
جورج أورويل
الطريق
إلى رصيف ويغان
رواية
ترجمة
أسعد الحسين
نينوى
علي مولا

الطريق إلى رصيف ويغان

جورج أورويل

ترجمة : أسعد الحسين

عدد الصفحات: ٢٦٢

القياس: ١٤,٥ * ٢١,٥

١٠٠٠/٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتــــف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

الإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

جورج أورويل

الطريق إلى رصيف ويغان

رواية

ترجمة
أسعد الحسين

العنوان الأصلي للكتاب

The Road to Wigan Pier
by George Orwell

المؤلف: جورج أورويل

- ولد ايريك ارثر بلير (جورج اورويل) عام ١٩٠٣ ومات عام ١٩٥٠ متأثرا بالسل.
- أنهى دراسته الثانوية في ايتون عام ١٩١٧.عمل في بورما في الشرطة الامبريالية الهندية لمدة ست سنوات ثم عاد إلى بريطانية عام ١٩٢١.
- كره الاستعمار وكل أشكال الحكم الاستبدادية كما كره الرأسمالية والآلات.
- شارك في الحرب الأهلية الاسبانية وأصيب فيها عام ١٩٣٦. تطوع للحرب ضد النازية لكنه رفض بسبب ظروفه الصحية.
- عمل مذيعاً في محطة البي بي سي عام ١٩٤١. استقال منها بعد أن نشر روايته مزرعة الحيوان وأصبح مشهورا عام ١٩٤٥. تزوج مرتين.
- كتب تسع روايات وعدد هائل من المقالات.
- من أعماله: بائس ومتشرد في باريس ولندن - أيام بورمية - ابنة القس - الطريق إلى رصيف ويغان - الصعود إلى الهواء - مزرعة الحيوان - ورواية ١٩٨٤.

إضافة إلى عدد من المقالات المنوعة والنقد الأدبي.

المترجم: أسعد الحسين

- حائز على إجازة في اللغة الانكليزية وآدابها من جامعة حلب عام ١٩٧٨.
- عمل مدرساً للغة الانكليزية في سوريا وقطر حتى عام ٢٠٠٤.
- تفرغ للترجمة ونقل عدد من الكتب والروايات والمسرحيات إلى اللغة العربية.
- صدر منها رواية الصعود إلى الهواء لجورج أورويل عام ٢٠٠٨.
- وصدر أيضاً كتاب *الحرب الطبقية العالمية* للمفكر جف فو عام ٢٠٠٩.
- له مقالات فكرية وأدبية في بعض المجلات والجرائد العربية.

الفصل الأول

كان الصوت الصباحي الأول الذي اسمعه كل يوم وطء قباقيب الفتيات العاملات في العمل على الشارع المرصوف بالحجارة الذي تسبقه كما اعتقد أصوات صفارات المصنع التي لم استيقظ أبدا لسماعها.

جرت العادة أن نكون أربعة أشخاص في غرفة النوم التي لم تكن سوى مكان قذر وصورة للغرف المؤقتة المهملة التي لا تخدم غرضها الصحيح. قبل ذلك بسنوات كان البيت مسكنا عاديا وبعدما أخذه آل بروكر حولوه إلى محل لبيع الكرش ونزل، وورثوا بعض قطع الأثاث العديمة الفائدة التي لم يرموها لقلة نشاطهم لذلك كنا ننام فيما لا يزال يعرف بغرفة الجلوس. تتدلى من سقف الغرفة ثريا زجاجية ثقيلة بدت كالوبر بسبب طبقة الغبار الكثيفة التي تغطيها. تحجب قطعة ضخمة وبشعة من النفاية معظم جدرانها بين الخوان ومنصة العرض وعليها نقوش كثيرة وأجزاء رفيعة من مرآة. وهناك ما كان في السابق سجادة مبهرجة تطوقها سطول فضلات طعام قديم وكرسيين مذهبين بمقاعد منفطرة تنزلق منها إن حاولت الجلوس عليها. لقد حولت تلك

الغرفة إلى غرفة نوم بعد حشر أربعة أسرة وسط هذا الخراب.

كان سريري في الزاوية اليمنى في الجانب القريب من الباب وبجانب قدمه سرير آخر يضغط عليه بقوة (يجب أن يكون بهذه الوضعية كي يسمح بفتح الباب) لهذا وجب أن أنام وساقاي منثنيتان لأنني لو مددتهما سأركل شاغل السرير الآخر في مؤخرته. كان كهلاً يدعى السيد ريلي وهو ميكانيكي كان قد عمل مشرفا في إحدى حفر الفحم. لحسن الحظ كان يذهب الى العمل في الساعة الخامسة صباحا لهذا كنت استطيع أن أفك ساقي واستمتع بساعتين من النوم الحقيقي. في السرير المقابل كان هناك عامل منجم اسكتلندي أصيب في حادث في إحدى حفر الفحم حين وقعت عليه قطعة كبيرة من الحجر وثبتته بالأرض ولم يستطيعوا تحريكها ورفعها عنه إلا بعد مرور ساعتين وتلقى خمس مئة جنيه تعويضاً عن ذلك. كان رجلاً ضخم الجثة في الأربعين من عمره، خط شعره شيب رمادي وله شارب مقلم ويبدو كعريف أكثر منه كعامل منجم. يظل مستلقياً في السرير حتى وقت متأخر من النهار وهو يدخن من غليون قصير. أما السرير الآخر فقد كانت تشغله سلسلة من التجار المتنقلين وجامعي أصوات الصحف ومشتري التقسيط الجوالين الذين يمضون ليلتين عادة. كان سريراً مزدوجاً وأفضل ما في الغرفة.

نمت الليلة الأولى في نفس السرير لكنني أخرجت منه بالحيلة لأفسح مكاناً لمستأجر آخر وأعتقد أن كل قادم جديد يمضي ليلته الأولى في السرير المزدوج الذي كان يستخدم طعماً كما يقال. كل

النوافذ كانت محكمة الإغلاق بأكياس من الرمل مكدسة في القاع، وفي الصباح تصدر رائحة منتنة من الغرفة كتلك التي تفوح من قفص النمس. لا تشم تلك الرائحة عندما تنهض من السرير أو تكون في الغرفة لكن في حال خرجت ثم عدت للغرفة تضربك بصفعة قوية على الوجه.

لم أستطع اكتشاف عدد غرف النوم في البيت أبداً، لكن من الغريب أنه كان هناك حمام يعود زمنه إلى ما قبل عهد آل بروكر. في الأسفل المطبخ المعتاد الذي يستخدم غرفة جلوس أيضاً بموقده الضخم المفتوح المشتعل ليلاً ونهاراً والذي لا يضيئه سوى المنور، على أحد جوانبه كان المحل وفي الجانب الآخر مكان حفظ اللحوم الذي ينفتح بدوره على مكان مظلم تحت الأرض تخزن فيه الكرش. باب الدرج تسده جزئياً أريكة مزينة ببطانيات قذرة مشوهة كانت صاحبة البيت المريضة تستلقي عليها دائماً بوجهها الشاحب الكبير والمصفر والتي لم يعرف أحد سر علتها. أعتقد أن مشكلتها الحقيقية الوحيدة هي الأكل الزائد. أمام الموقد هناك حبل من الغسيل بصورة دائمة تقريباً وفي وسط الغرفة طاولة مطبخ كبيرة تأكل عليها العائلة والمستأجرين. لم أر أبداً تلك الطاولة مكشوفة وإنما أغطيتها المتنوعة في أوقات مختلفة. في الأسفل طبقة من الجرائد القديمة المبقعة بصلصة ورسيستر وفوقها ملاءة من قماش زيتي لزج وفوقه غطاء من القماش الأخضر ويغطيها كلها غطاء كتاني خشن لم يبدل قط أو ينتزع. يظل عادة فتات الفطور على الطاولة للعشاء الذي كنت أعرف كل كسرة منه بالنظر وأراقب جولتها صعوداً وهبوطاً عن الطاولة يوماً بعد يوم.

كـان المحـل مـن النـوع الضـيق والبـارد وعلـى الطـرف الخـارجي لواجهتـه بضـع نقـوش بيضـاء وآثـار إعلانـات شـوكولا قديمـة مبعثـرة كـالنجوم أمـا في الـداخل فهنـاك لـوح تتكـوم فوقـه لفـات كـبيرة مـن الكروش البيضاء والمادة الرمادية الوبرية المعروفة بـالكروش السـوداء وحوافر الخنازير الشبحية الشفافة الجاهزة للسلق. كان نموذجاً عادياً لمحـل الكـرش والبـازيلا ولم يتكـدس شـيء آخـر فيـه غـير الخبـز والسـجائر والمـواد المعلبـة. هنـاك إعـلان عـن الشـاي في الواجهـة لكـن إن طلب زبون فنجاناً من الشاي يؤجل طلبه بعـذر مـا. كـان السـيد بروكـر وزوجته من أصحاب المحلات المتنوعة كخط جـانبي طيلـة حياتهم رغـم أنه عامل منجم بالحرفة و بلا عمل منذ سنتين. في الماضي كانت لـديهم حانـة لكـنهم خسـروا ترخيصـهم لسـماحهم بلعـب القمـار علـى الأرض التابعة لها. أشك بجدوى أي واحـد مـن مشـاريعهم التجارية لأنهم كـانوا من النوع الذي يدير مشروعاً لكي يكون لديه شيء يتذمر منـه. للسـيد بروكر وجه اسمر مكفهر وبنية عظمية صغيرة، ايرلندي المظهـر وقـذر بشكل مذهل ولا أظن بأنني رأيت يديه نظيفتين أبداً. وبمـا أن السـيدة بروكـر مريضـة الآن فهـو يعـد أغلـب الطعـام. وككـل أصـحاب الأيـدي القذرة له دائماً طريقة واضحة وبطيئة للتعامل مـع الأشـياء فلـو أعطـاك شـريحة مـن الخبـز والزبـدة سـتجد عليهـا آثـار سـوداء لإبهامـه. حتـى في الصباح البـاكر عنـدما يهـبط في الـوكر الخفـي خلـف أريكـة السـيدة بروكـر ويسـرق الكـرش تكـون يديـه مسـودتان مسـبقاً. لقـد سمعـت قصصاً مفزعـة مـن المسـتأجرين الآخـرين عـن المكـان الـذي يحفـظ فيـه لحم الكروش وقيل بأن أسراباً من الخنافس السوداء تحتشد هنـاك ولا

أعرف كم مرة تطلب شحنات طازجة جديدة من الكرش لكنها كانت على فواصل كبيرة لأن السيد بروكر كان يؤرخ الأحداث وفقها (دعني أرى الآن، كان لدي ثلاث حصص من الكروش المجمدة حين حدث، الخ) ونحن المستأجرين لم يقدم لنا طعام الكروش أبداً. لقد تخيلت في ذلك الوقت بأنها غالية جداً لكن فيما بعد عرفت السبب لأننا نعرف كثيراً عنها كما لاحظت بأن آل بروكر أنفسهم لم يأكلوا من هذه الكرش أبداً.

كان المستأجرون الدائمون هم عامل منجم اسكوتلندي والسيد ريلي ومتقاعدين اثنين ورجلاً عاطلاً عن العمل يعيش على إعانة البطالة يدعى جو وهو من الأشخاص الذين ليس لهم كنية. كان عامل المنجم الاسكتلندي مملاً حين تعرفه وكغيره من العاطلين عن العمل الكثيرين يمضي كثيراً من الوقت في قراءة الجرائد وإذا لم يكن يقرأ فإنه يظل يتحدث ساعات عن تلك الأشياء مثل الخطر الأصفر و جرائم صناديق السيارات وعلم التنجيم والصراع بين الدين والعلم. لقد طرد متقاعدي السن من بيوتهم كالعادة جراء استطلاع الموارد (تحقيق رسمي حول دخل شخص يتلقى إعانة عامة للعاطلين في بريطانية - المورد) فهم يسلمان شلناتهم الأسبوعية العشرة لآل بروكر ليحصلا مقابلها على الإقامة التي ترجى من العشر شلنات؛ سرير في العلية ووجبات أغلبها مكونة من الخبز والزبدة. كان أحدهما من النوع (المتميز) ويعاني من مرض خبيث - سرطان كما اعتقد. أما الآخر فيدعوه الجميع بجاك العجوز وهو عامل منجم سابق بعمر يبلغ الثامنة والسبعين وقد اشتغل بشكل جيد أكثر من خمسين عاماً في الحفر. كان يقظا

وذكيا لكن من الغريب أنه لا يتذكر سوى تجارب طفولته ونسي كل شيء عن معالج آلات التعدين وتطوراتها. وقد حكا لي عن معارك مع الخيول الوحشية في الأروقة الضيقة تحت الأرض وعندما سمع بأنني اخطط للنزول في عدد من مناجم الفحم أبدى احتقاره وأفصح أن رجلا بحجمي (ستة أقدام ونصف) لن ينجح في التنقل هناك ولم يجد إخباره بأن التنقل أصبح أفضل مما كان في السابق لكنه ودود مع الجميع وكان يتمنى لنا جميعا ليلة جيدة صائحا (طابت ليلتكم يا أولاد!) وهو يحبو على الدرج للذهاب إلى سريره في مكان ما تحت السقف المائل وأكثر ما أعجبني في اولد جاك أنه لم يتسول أبداً؛ يظل عادة بلا تبغ حتى نهاية الأسبوع لكنه يرفض دائماً أن يدخن من تبغ أي شخص آخر. آل بروكر أمنا على حياة المتقاعدين الاثنين عند شركات دباغة أسبوعياً وسمع عنهم يسألون موظف التأمين بتلهف (كم يعيش الناس بعدما يصيبهم السرطان).

كان جو كالرجل الاسكتلندي قارئاً كبيراً للجرائد ويمضي جل يومه في المكتبة العامة وهو نموذج للرجل العاطل عن العمل غير المتزوج، منظره مهمل، مخلوق مرهق بشكل واضح، وجهه مدور طفولي ارتسمت عليه ملامح تعبير خبث ساذج ويبدو كولد مهمل أكثر منه كرجل ناضج. اعتقد أن الغياب الكامل للمسوؤلية يجعل الكثير جداً من هؤلاء الرجال يبدون أصغر من أعمارهم الحقيقية. قدرت عمر جو بالثامنة والعشرين من مظهره واندهشت جداً عندما علمت أنه في الثالثة والأربعين. لديه حب للعبارات الطنانة وكان فخورا بدهائه الذي جنبه الزواج. كان يقول لي دائماً (قيود الزواج بند كبير) ويشعر بوضوح أن

هذه ملاحظة دقيقة واستثنائية. كل دخله خمسة عشر شلنا في الأسبوع يدفع منها ستة أو سبعة لال بروكر مقابل السرير. وكنت أراه أحياناً وهو يصنع لنفسه فنجاناً من الشاي على موقد المطبخ وببقية شلناته يحصل على وجباته في مكان ما خارج البيت وهي عبارة عن شريحة من الخبز والسمنة النباتية ورزم من السمك ورقائق البطاطس كما أعتقد.

بالإضافة لهؤلاء كان هناك زبائن متنقلون من أفقر الباعة الجوالين والممثلين المتنقلين ـ الشائعين دائماً في الشمال لأن أغلب الحانات الكبيرة تستأجرها تشكيلة من الممثلين في عطل نهاية الأسبوع ـ وجامعوا أصوات الصحف. كان جامعوا أصوات الصحف نموذجاً لم أقابله سابقاً قط. بدت لي وظيفتهم مستحيلة جداً ومرعبة لذلك تعجبت كيف يمكن أن يتحمل أي شخص مثل هذا الشيء عندما يتوفر له السجن كخيار بديل. يتم استئجارهم من قبل الجرائد الأسبوعية وجرائد الأحد ويتم إرسالهم من مدينة إلى أخرى مزودين بالجرائد وقوائم بالشوارع التي يجب أن يعملوا فيها كل يوم. وإن فشلوا في أن يحققوا عشرين طلباً كحد أدنى يتم طردهم. طالما يحققون عشرين طلباً في اليوم يظلون يتلقون مرتباً صغيراً يقدر بجنيهين أسبوعياً كما أعتقد إضافة أنهم يأخذون عمولة صغيرة على كل طلب بعد العشرين. الأمر ليس بسيطاً كما يبدو عليه لأنه في المناطق العمالية تأخذ كل عائلة صحيفة أسبوعية ببنسين ويستبدلونها كل عدة أسابيع؛ لكن أشك أن هناك من استمر في تلك المهنة طويلاً. تشغل الجرائد البائسين الفقراء اليائسين والموظفين الذين خارج العمل والمعلنين الجوالين وأمثالهم من الذين يقومون بجهود مسعورة لبرهة للمحافظة على

الحد الأدنى من زيادة مبيعاتهم ثم بعد أن يرهقهم العمل المميت يطـردون ويؤخـذ غيرهـم مـن الرجـال الجـدد. عرفـت اثـنين وظفـتهم إحـدى أردأ الجرائد الأسـبوعية سمعـة. كـانـا متوسـطي العمـر ومـن أربـاب العـائلات واحدهما كـان جَداً، يظلان على أقدامهم عشـر سـاعات يومياً يعمـلان في الشوارع المحددة لهم وبعدها ينشغلان حتى وقت متأخر من الليل بملء نماذج فارغة لعملية غش تـديرها جريـدتهم - إحـدى تلك الطـرق تعطـى فيهـا مجموعـة فخاريـة إن أخـذت اشـتراك بسـتة أسـابيع وأرسـلت حوالـة بريدية بشلنين أيضاً. البدين منهما هو الجد الذي كـان ينام ورأسـه على كـوم النماذج الفارغة. ونادراً ما تمكـنا من توفير الجنيـه الـذي يدفعانـه لآل بروكـر لقاء الإقامة والطعام في الأسبوع . كـانوا يدفعان مبلغاً قليلاً لقـاء النـوم ويصـنعان وجبـات مخجلـة في زاويـة المطـبخ مـن لحـم الخنـزيـر والخبز والسمنة النباتية التي يخزناها في حقائبهما.

لدى آل بروكـر عدد كـبير من الأولاد والبنات لـكن أغلبهم فرَّ من البيت منذ مـدة طويلـة. بعضهم كـان في كـنـدا (بكـنـدا كـمـا اعـتـادت السـيدة بروكـر أن تقـول، ولم يبـق سـوى ابنـاً واحـداً مـنهم يقـيم في الجوار، وهو شاب يشبه الخنزيـر الكـبير يعمـل في مـرآب، كـان يـأتي إلى البيت كثيراً من أجل وجباته وكـانت زوجتـه هنـاك طيلـة النهـار مـع طفلين وتقوم هـي وإيمي بأغلب الطبخ والغسيل. ايمـي هـي خطيبـة ابنهم الآخر الذي في لندن. كـانت إيمي شقراء الشعر حادة الأنف، فتاة تعيسة المظهر تعمل في إحدى مغاسل الثياب لقاء أجر زهيد يجنبها المجاعة ومـع ذلك تمضي كـل أمسياتها في عبودية بيت آل بروكـر. جمعـت أنبـاء بـأن ذلك الزواج كـان يؤجل باستمرار وقد لا يتم أبداً لـكن السـيدة بروكـر

كانت تعامل إيمي ككنة وتزعجها بتلك الطريقة المحبة المؤرقة الغريبة التي يملكها العاجزين.

ما بقي من أعمال المنزل يقوم أو لا يقوم بها السيد بروكر. أما السيدة بروكر فقلما تنهض عن أريكتها التي في المطبخ (تمضي هناك الليل والنهار أيضاً) وكانت مريضة جداً ولا تستطيع القيام بأي شيء سوى تناول وجبات ضخمة من الطعام. كان السيد بروكر هو الذي يهتم بأمر المحل ويقدم للمستأجرين طعامهم ويرتب غرفهم وينتقل دائماً ببطء لا يصدق من مهمة كريهة إلى أخرى. غالباً ما تظل الأسرة غير مرتبة حتى السادسة مساءاً، ويمكنك بأي ساعة من اليوم ملاقاة السيد بروكر على الدرج وهو يحمل نونية مملوءة لحوافها يمسكها بإبهامه جيداً. في الصباح يجلس بجانب الموقد بأنبوب من الماء القذر، يقشر البطاطس بسرعة الصورة البطيئة ولم أر أحداً قط يمكنه تقشير البطاطس بهذا الامتعاض الكئيب. يمكنك أن ترى كرهه لهذا العمل النسائي القذر كما يسميه - يثور في داخله بركان من المرارة. كان من النوع الذي يستطيع تأمل ضيمه.

طبعاً أنا أمضي وقتاً جيداً داخل البيت، وسمعت كل كوارث آل بروكر وكيف كان الجميع يغشهم وعقوقين وأن المحل لا يجدي وإيجار البيت يكسب بالكاد. بالمقاييس المحلية لم يكونوا في وضع سيء جداً، وبطريقة لم أفهمها، كان السيد بروكر يتحايل على استطلاع الموارد ويسحب حصة من إعانة البطالة؛ كانت مهنتهم الأساسية التحدث عن مظالمهم لأي شخص يمكن أن يسمعهم. اعتادت

السيدة بروكر على النواح كل ساعة، مستلقية على أريكتها، كومة رخوة من الدهن ورثاء الذات وتكرر قول الأشياء ذاتها المرة تلو الأخرى. (يبدو أنه لن يكون لدينا زبائن في الوقت الحاضر، لا أعرف كيف . الكرش ملقاة يوما بعد الآخر تلك الكرش الجميلة أيضاً. هذا صعب أليس كذلك؟ الخ الخ.) كل نواح السيدة بروكر ينتهي بيبدو هذا صعبا أليس كذلك؟ مثل اللازمة في اللحن. أكيد أن المحل لا يكسب فالمكان كله يغطيه الغبار الواضح والهواء الفاسد للمشروع الخاسر. لكن من العبث معهم محاولة شرح سبب عدم مجيء أي أحد إلى المحل حتى لو كانت لديه الجرأة لفعل ذلك؛ ولم يكن بقدرتهم إدراك أن الذباب الأزرق الميت من العام الفائت المنبطح في واجهة المحل ليس مفيدا للتجارة.

لكن الشيء الذي يعذبهم فعلا كان فكرة المتقاعدين الاثنين اللذان يعيشان في بيتهم، ويغتصبان أرضهم ويلتهمان الطعام ولا يدفعان سوى عشر شلنات في الأسبوع. أشك بأنهم يخسرون نقودا فعلا مع المتقاعدين المسنين الاثنين لكن من المؤكد أن فائدة العشر شلنات في الأسبوع قليلة جدا. وبنظرهم كان المتقاعدان عبارة عن نوع من الطفيليات المخيفة التصقت بهما وتعيش على إحسانهما. يمكنهم تحمل اولد جاك بصعوبة لأنه يظل خارج بيت آل بروكر معظم النهار، لكنهم يكرهون طريح الفراش كثيرا الذي اسمه هوكر. وللسيد بروكر طريقة غريبة في لفظ اسمه بحذف حرف الهاء وبإطالة حرف الواو فيصبح ووكر.

سمعت قصصاً كثيرة عن السيد هوكر ومشاكسته وإزعاج ترتيب سريره وطريقة (أنه لا يأكل هذا) أو (لا يأكل ذاك) وعقوقه الذي لا ينتهي واهم شيء العناد الأناني الذي يرفض فيه أن يموت! يتمنى آل بروكر له الموت بصراحة مكشوفة. وبعد حدوث ذلك يستطيعون سحب نقود التأمين على الأقل ويشعرون بأنه يأكل ثروتهم يوما بعد الآخر كحشرة في أحشائهم. أحياناً كان السيد بروكر ينظر للأعلى وهو يقشر بطاطته وينظر بعيني ويهز رأسه بنظرة مريرة يتعذر وصفها باتجاه السقف حيث غرفة العجوز هوكر. ويقول أنها عن..... أليس كذلك؟) لا حاجة لقول المزيد. سمعت عن كل أساليب السيد هوكر مسبقا. لكن آل بروكر لديهم شكاوي من نوع أو آخر ضد كل المستأجرين، وأنا منهم وجو بلا شك الذي كان على إعانة البطالة فهو عملياً في نفس فئة المتقاعدين العجوزين. يدفع الرجل الاسكتلندي جنيه أسبوعياً لكنه يمضي معظم وقته داخل البيت ولم يحبوا أن يظل متسكعا في المكان. يظل جامعا أصوات الجرائد أغلب الوقت خارج البيت لكن آل بروكر يحقدون عليهما لأنهما يجلبان طعامهما معهما وحتى السيد ريلي أفضل مستأجريهم كان في حالة من الخزي عندما قالت السيدة بروكر أنه يوقضها عندما ينزل إلى الطابق السفلي في الصباح. لا يستطيعون، أنهم يتذمرون باستمرار، الحصول على نوع المستأجرين الذين يريدونه ـ من طبقة جيدة من رجال الإعلان المحترمين الذين يدفعون للإقامة والطعام ويظلون في الخارج كل اليوم. مستأجرهم المثالي هو الذي يدفع ثلاثين شلنا في الأسبوع ولا يعود إلى البيت إلا لينام. ولقد لاحظت بأن المؤجرين يكرهون المستأجرين.

يريدون نقودهم لكنهم ينظرون إليهم كمتطفلين ولهم هيئة غيورة يقظة بشكل فضولي تبطن تصميمهم بأن لا يدعوهم يرتاحون أبداً إنه نتيجة نظام التأجير السيئ الذي يجبر المستأجر أن يسكن في بيت شخص آخر دون أن يكون فرد من عائلته.

كانت الوجبات في بيت ال بروكر متشابهة ومثيرة للاشمئزاز. على الإفطار تحصل على شريحتين مقليتين من لحم الخنزير وبيضة مقلية باهتة وخبز مدهون بالزبدة تقطع في الليلة السابقة ودائما عليها آثار إبهام. لم استطع أن أجعل السيد بروكر يدعني اقطع خبزي المدهون بالزبدة مهما كانت براعتي وكان يناولني إياه شريحة بعد شريحة، كل واحدة يمسك بها بقوة بإبهامه العريض الأسود. في العادة يكون على الغداء نقانق شرحات رخيصة تباع جاهزة - معلبة - كانت جزءاً من المحل كما أعتقد وبطاطس مسلوقة وحلوى الأرز. وللشاي هناك بعض الخبز المدهون بالزبدة وكعك حلو هزيل المنظر وسيء المذاق اشتروه بسعر رخيص من الخياز لقدمه. للعشاء هناك جبن لانكشاير الرخو الشاحب وبسكويت. ويشيرون دائماً إليه بتبجيل (تناول بسكوتة أخرى يا سيد ريلي. ستحب البسكوت مع جبنتك على العشاء) وعدد من قوارير صلصة ورسيستر ومطريان مملوء نصفه بالمربى مقيم دائم على الطاولة. من العادي تخليل أي شيء حتى قطعة الجبن بصلصة ورسيستر لكني لم أر أبداً أحداً يتحمل مطريان المرملات الذي كان عبارة عن كتلة لا توصف من اللزوجة والغبار. تتناول السيدة بروكر وجباتها لوحدها لكنها بالإضافة إلى ذلك تتناول كميات قليلة من كل وجبة طعام، وتناور بمهارة كبيرة من أجل ما تسميه قعر الإبريق وتقصد أثقل

كأس من الشاي وعندها عادة دائمة حين تقوم بمسح فمها بإحدى بطانياتها. ومع اقتراب نهاية إقامتي بدأت تمزق شرائط من الجرائد لهذه الغاية، وفي الصباح تكون أرض الغرفة متسخة بكرات من الورق المخاطي الذي يظل ساعات. كانت رائحة المطبخ مرعبة لكنها مقارنة برائحة غرفة النوم فإنك تتوقف عن ملاحظتها بعد فترة قصيرة.

ظننت أن هذا المكان يجب أن يكون مناسب كغيره من منازل الإيجار في المنطقة الصناعية لأن كل المستأجرين لم يتذمروا منه. الوحيد الذي فعل ذلك حسب معرفتي كوني من أحد أحياء لندن الفقيرة ذو رأس صغير أسود وأنف حاد يعمل متنقلاً لشركة سجائر. لم يأتِ إلى الشمال أبداً من قبل وأعتقد منذ ذلك الحين انتقل إلى عمل أفضل وأصبح ينزل في فنادق تجارية. كانت نظرته الأولى لمنازل الطبقة الدنيا مكان تلجئ إليه مجموعة من مروجي السلع ومستطلعي أنباء السباقات رحلاتهم التي لا تنتهي. في الصباح وأثناء ارتداء ملابسنا (كان ينام في السرير المزدوج طبعاً) كنت اضبطه وهو ينظر في الغرفة البائسة بنوع من الكره العجيب. شاهدني وأنا انظر إليه فعرف أنني جنوبي وقال بحماس (أولاد الزنا القذرين الملعونين). بعد ذلك أخذ حقيبته ونزل إلى الطابق السفلي و أفصح عن رأيه بقوة وأخبر آل بروكر إن هذا البيت ليس من النوع الذي اعتاد عليه وأنه مغادر فوراً ولم يستطع آل بروكر أن يدركوا السبب أبداً. لقد اندهشوا وتألموا.إنه عقوق. يتركهم بتلك الطريقة بدون سبب بعد ليلة واحدة فقط. وناقشوا كل صلات الحادثة واحتمالاتها وأضيفت إلى مخزن مظالمهم.

في أحد الأيام قررت أن أغادر حين كانت هناك نونية ممتلئة تحت طاولة الفطور. بدأ المكان يسبب لي الحزن والكآبة ليس بسبب القذارة والروائح والطعام الرديء فقط بل بسبب الشعور بالانحطاط الراكد التافه بالهبوط إلى مكان تحت سطح الأرض يتنقل فيه الناس زاحفين كالخنافس السوداء بتشوش أبدي وسط مهن سلوفينية ومظالم حقيرة. أكثر ما يرعب في ناس كآل بروكر هو قول الشيء نفسه وتكراره مرة تلو أخرى مما يعطيك انطباعا بأنهم أناس غير حقيقيين أبدا بل نوع من الأشباح تتكرر بصورة أبدية لنفس الهراء. وأخيراً يأتيك حديث السيدة بروكر الرثائي ـ دائماً نفس الشكاوي، المرة تلو الأخرى ودائما تنتهي بنحيب مرتعش (يبدو هذا صعباً، أليس كذلك؟) الذي سبب لي الغثيان أكثر من عادة مسح فمها بقصاصات الجرائد. لكن لا فائدة من القول بأن الناس الذين يشبهون آل بروكر مقززين جداً لنخرجهم من تفكيرنا لأنهم موجودون بعشرات ومئات الآلاف؛ إنهم الصفة المميزة للمنتجات الجانبية للعالم الحديث. لا يمكنك تجاهلهم إن قبلت بالحضارة التي أنتجتهم لأنهم على الأقل جزء مما فعلته الصناعة بنا. عبر كولومبوس الأطلسي وتحرك المحرك البخاري الأول مترنحاً ووقفت التشكيلات القتالية البريطانية المربعة بثبات أمام البنادق الفرنسية في واترلو، وملأ أوغاد القرن التاسع عشر العور جيوبهم وشكروا الرب؛ وكانت النتيجة ـ أحياء الفقراء المتشابكة والمطابخ السوداء مع كبار السن المرضى الذين يدبون حولها كالخنافس السوداء. من الواجب أن نرى مثل تلك الأماكن بين الحين والآخر، وخصوصاً روائحها، كيلا ننسى وجودها؛ لكن من الأفضل أن لا تكون الإقامة طويلة.

حملني القطار بعيداً عبر منظر شديد البشاعة لأكوام مخلفات المعادن المصهورة والمداخن وأكوام خردة الحديد والاقنية القذرة والطرق الطينية الرمادية المعلمة بآثار القباقيب المتشابكة. هذا هو شهر آذار لكن الطقس كان باردا بشكل مرعب وانتشرت أكوام الثلج الأسود في كل مكان. وعندما تحركنا قليلا داخل ضواحي البلدة مررنا بصفوف من بيوت أحياء الفقراء الرمادية الواحد تلو الآخر والتي تتجه بزاوية قائمة مع السد.

خلف إحدى البيوت جثت شابة ملقاة على الحجارة كانت تدخل عصا في أنبوب التصريف الرصاصي القادم من المغسلة في الداخل الذي اعتقدت بأنه مسدود. كان لدي الوقت لرؤية كل ما حولها - مئزرها الخيشي، قبقابها الأخرق وذراعاها المحمرتان من البرد. نظرت للأعلى عندما مر القطار وكنت قريباً بما يكفي للنظر في عينيها. لها وجه مدور شاحب، الوجه المعتاد لفتيات الأحياء الفقيرة اللواتي يبدون في الأربعين من العمر وهن بسن الخامسة والعشرين بسبب الاجهاضات والكدح الشاق؛ وكان يحمل في الدقيقة التي رأيتها فيها أكثر تعبير بائس ويائس في حياتي كلها. وخطر لي أننا مخطئون عندما نقول أن (الأمر ليس نفسه بالنسبة لهم كما هو لنا) وأن من يولدون في الأحياء الفقيرة القذرة لا يرون غيرها. لأن ما رأيته في وجهها لم يكن معاناة حيوان جاهل. كانت تعرف جيداً ما كان يحدث - وتفهم كما أفهم القدر المفزع للجثو هناك في البرد القاسي وعلى الحجارة اللزجة في الساحات الخلفية لبيوت الأحياء الفقيرة القذرة وإدخال عصا في أنبوب تصريف متعفن.

لكن بعد ذلك بقليل ابتعد القطار ودخل في الريف المفتوح الذي بدا غريباً وغير طبيعي لأنه كان يجب أن يكون كمنتزه؛ ففي المناطق الصناعية يشعر المرء دائماً بأن الدخان والقذارة يجب أن تستمر إلى الأبد ولن تستطيع بقعة من الأرض النجاة منهما. في الريف الصغير المزدحم والقذر كريفنا يعتبر المرء التلوث أمراً مسلماً به. وبدت أكوام نفايات المعادن والمداخن أكثر من عادية ومناظر متوقعة أكثر من العشب والأشجار. وحتى في أعماق الريف عندما تغرز شوكتك داخل الأرض تتوقع منها أن ترفع قارورة مكسورة أو علبة صدئة. لكن الثلج هنا لم تطأه قدم ويتراكم عميقا لدرجة لا يظهر فيه سوى قمة جدران الحدود التي تتعرج فوق التلال مثل طرق سوداء. تذكرت بأن دي اتش لورانس كتب نفس المشهد أو قريباً منه وقال إن التلال المغطاة بالثلوج تموجت من بعيد كالعضلة. ليس التشبيه هو ما خطر لي. بالنسبة لي الثلج والأسوار السوداء كانت مثل ثوب أبيض مزين بشريط أسود. رغم أن الثلج لم تذبه الشمس التي كانت تشرق ساطعة لأن الجو خلف نوافذ عربة القطار المغلقة بدا دافئاً. بناءاً على التقويم فإنه وقت الربيع، وقلة من الطيور صدقت ذلك. للمرة الأولى من حياتي، في رقعة جرداء بجانب الخط، رأيت الغربان ترقص. فعلتها على الأرض وليس كما توقعت على الأشجار. كانت طريقة التودد غريبة. الأنثى واقفة ومنقارها مفتوح والذكر يتمشى حولها وبدا أنه يطعمها. لم يمر علي أكثر من نصف ساعة في القطار لكنها بدت مسافة طويلة عن مطبخ آل بروكر الأسود وإلى المنحدرات الفارغة الثلجية والشمس الساطعة والطيور الوامضة الكبيرة.

الحقيقـة أن المنطقـة الصـناعية كلـها بلـدة ضـخمة واحـدة يعـادل قاطنيها سكان لندن الكبرى لكن لحسن الحظ، مساحتها أكبر؛ لـذلك حتـى في وسـطها لا يـزال هنـاك مجـال لبقـع نظافـة وحشـمة. تلـك فكـرة مشـجعة. رغـم المحاولـة الصـعبة لم يـنجح الإنسـان بعـد في نشـر قذارته في كل مكان. الأرض واسعة جداً ولا تزال فراغات كبيرة حتى في وسط الحضارة القذرة تجد فيها حقول عشبها أخضر وليس رمـادي؛ ولو بحثت فيها فقد تجد جداول المياه مع سمك حي فيهـا بـدلاً مـن سمك السلمون المعلب. لفترة طويلة جداً من الوقت ربما لعشـرين دقيقـة أخـرى، ظل القطـار يتـدحرج عـبر الريـف المفتـوح قبـل أن تبـدأ حضـارة الفـيلات بمحاصرتنا مرة أخرى ثم تلتها أحياء الفقراء الخارجية ثم أكوام نفايات الحديد والمداخن المتجشئة والأفـران المنفجـرة النافثـة والأقنيـة وخزانـات غاز بلدة صناعية أخرى.

الفصل الثاني

حضارتنا مع الاعتذار من تشيسترتون، ترتكز على الفحم أكثر مما يدرك المرء حتى يتوقف ويفكر بها. الالات التي تبقينا أحياءاً تعتمد كلها بشكل مباشر أو غير مباشر على الفحم. في كل حركة العالم الغربي عامل المنجم هو الثاني بالأهمية بعد المرء الذي يحرث التربة وهو العمود الذي يحمل تقريباً كل شيء ليس مكسواً بالسخام لهذا السبب العملية الفعلية التي يستخرج فيها الفحم تستحق المشاهدة إن توفرت الفرصة لذلك وتحملت المخاطرة.

عندما تنزل في منجم فحم من المهم أن تحاول الحصول على منظر وجه الفحم أثناء عمل المعبئين. هذا ليس سهلاً لأن الزوار يسببون إزعاجاً وليس مُرحباً بهم عندما يكون المنجم يعمل ولو ذهبت في أي وقت أخر فإنك قد تخرج بإنطباع خاطىء تماماً. يوم الأحد مثلاً يبدو المنجم فيه هادئاً لكن الوقت المناسب للذهاب عندما تكون الآلات تهدر والهواء أسود من غبار الفحم وعندها تستطيع أن ترى ما يجب أن يفعله العمال. وفي تلك الأوقات يكون المكان مثل جهنم أو بمقياس ما مثل الصورة

الزهنية التي كونتها عن جهنم. أكثر الأشياء التي يتخيلها المرء في جهنم موجودة هناك - الحرارة والفوضى والظلام والهواء الفاسد وأهم شيء الفراغ الضيق الذي لا يحتمل. كل شيء ماعدا النار، ولا يوجد هناك سوى الأشعة الواهنة لمصابيح ديفي والمشاعل الكهربائية التي نادرا ما تخترق غيوم غبار الفحم.

عندما تصل هناك أخيراً - والوصول بحد ذاته مهمة شاقة: سأشرح ذلك في لحظة - تزحف عبر أخر صف من دعامات الحفر وترى مقابلك جداراً أسوداً براقاً بارتفاع ثلاثة أربعة أقدام. هذا هو وجه الفحم. فوقك سقف ناعم صنعته الصخور التي قطع منها الفحم؛ تحتك الصخر ثانية، لهذا فالدهليز الذي أنت فيه بإ رتفاع عرق الفحم نفسه الذي لا يتجاوز الياردة الواحدة. الانطباع الأول للكل، الذي يطغى على كل شيء لبرهة، الضجيج الصام للآذان والمرعب الصادر عن السير الناقل الذي يحمل الفحم الى الخارج. لا يمكنك أن ترى لمسافة بعيدة لأن ضباب غبار الفحم يعكس ويرد شعاع مصباحك، لكن يمكنك أن ترى على كلا الجانبين صف الرجال نصف العاريين الجاثيين - واحد في كل أربع أوخمس ياردات - يشقون مجاريفهم تحت الفحم الساقط ويقذفونه بسرعة من فوق أكتافهم. إنهم يغذون به السير الناقل المطاطي المتحرك، وهو بعرض قدمين و يتبعهم على بعد ياردة أو اثنتين منهم. أسفل السير يجري نهر لامع من الفخم باستمرار. في المناجم الكبيرة يحمل هذا السير معه أطنان كثيرة من الفحم كل دقيقة، يحمله إلى مكان ما في الطرق الرئيسية حيث يرمى في أحواض تصل حمولة واحدها إلى نصف طن وتجر من ذلك المكان إلى

أقفاص لترفع إلى الجو الخارجي.

يستحيل أن تراقب المعبئين وهم يعملون دون أن تشعر بغصة من الحسد لصلابتهم. إنها المهنة التي يقومون بها مرعبة، مهنة جبابرة بمقاييس الشخص العادي. لأنهم لا ينقلون كميات ضخمة جداً من الفحم فقط بل يقومون بذلك في وضع يضاعف عملهم مرتين أوثلاث. يجب أن يبقوا جاثين كل الوقت ـ لا يمكنهم النهوض والوقوف على أقدامهم دون أن يصطدموا بالسقف ـ ويمكنك بسهولة أن ترى معنى هذا الجهد الهائل بتجريب ذلك. الجرف سهل نسبياً إذ أنك تكون واقفاً، وتستطيع استخدام ركبتك وفخذك لحمل المجرفة؛ عند الجثو كل الجهد يقع على ذراعك وعضلات بطنك. والشروط الأخرى لا تجعل الأمر أسهل. هناك الحرارة ـ التي تتنوع، ففي بعض المناجم تكون خانقة ـ وغبار الفحم الذي يقتحم حلقك ومنخريك ويتراكم على جفنيك، يشبه الصليل الأبدي للسير الناقل في ذلك المكان المحصور صليل بندقية آلية. لكن المعبئين أخذوا على عاتقهم العمل وكأنهم مصنعون من الفولاذ. في الواقع يبدون وكأنهم تماثيل حديدية مطروقة ـ تحت غطاء غبار الفحم الناعم الملتصق بهم من رأسهم حتى أقدامهم. لا تدرك عظمة رجال المناجم إلا عندما تراهم في المنجم وهم عراة. أغلبهم صغار الحجم (الرجال الضخمين لا يكونون مناسبين لهذه المهنة) لكن الكل لهم أجسام جميلة وقوية تقريباً، أكتاف عريضة تضيق لتتصل بخصور رفيعة ومرنة وأرداف بارزة صغيرة وأفخاذ وترية دون أي أونصة من السمنة في أي مكان. في المناجم الأشد حرارة يلبسون سروالاً تحتياً رقيقاً وقبقاباً ووسادات للركب. ولا يمكنك التمييز بالنظر إن كانوا

صغاراً أم كباراً. قد يكونون بأي عمر حتى الستين أو الخامسة والستين، لكنهم عندما يغطيهم اللون الأسود ويكونون عراةً يبدون كلهم متشابهين. لا أحد يستطيع القيام بعملهم إن لم يكن جسمه كجسم شاب ومظهره ملائم للحراس، مجرد بضع أرطال زائدة على الخصر تجعل الانثناء مستحيلا. لن تستطيع نسيان ذلك المشهد إن رأيته مرة ـ خطوط الانحناء والأشكال الجاثية والسخام الأسود الذي يغطي كل شيء، وهم يشقون مجاريفهم الضخمة تحت الفحم بقوة هائلة وسرعة ويعملون سبع ساعات ونصف بدون أي استراحة نظرياً لأنه لا يوجد انقطاع عن العمل. وعملياً يخطفوا حوالي ربع ساعة أثناء الوردية لتناول الطعام الذي يحضرونه معهم والمكون عادة من قطعة ضخمة من الخبز وماء الشواء والشاي البارد. أول مرة كنت أراقب فيها المعبئين أثناء عملهم وضعت يدي على شيء مروّع لزج وسط الفحم. كان مضغة تبغ وكل المعبئين تقريباً يمضغون التبغ وقيل بأنه مفيد ضد العطش.

ربما عليك أن تنزل إلى مناجم كثيرة قبل أن تفهم العملية التي تجري من حولك هناك. هذا أولاً لأن مجرد جهد الانتقال من مكان إلى آخر يجعل من الصعب ملاحظة أي شيء آخر ومخيب للآمال أحياناً، أو على الأقل ليس كما تتوقع. تدخل في القفص، وهو عبارة عن صندوق فولاذي بعرض حجرة الهاتف وأطول بمرتين أو ثلاث. يحمل الصندوق عشرة رجال، يحزمونهم مثل السمك في العلبة ولا يستطيع الرجل الطويل الوقوف فيها بشكل مستقيم ثم يغلق الباب الفولاذي عليك ويقوم شخص في الأعلى بلف ناقل الحركة ليسقطك في الفراغ. ينتابك شعور بالمغص المؤقت المعتاد في بطنك وضجة انفجارية في أذنيك لكن لا

يتولد لديك إحساس كبير بالحركة حتى تقترب من القاع، عندما يتباطأ القفص فجأة لدرجة تحلف فيها أنه سيصعد للأعلى مرة أخرى. في وسط السباق قد تقارب سرعة القفص الستين ميلاً في الساعة وفي المناجم الأعمق يتجاوز ذلك. حين تصل وتحبو إلى القاع تكون على عمق أربع مئة ياردة تحت الأرض. هذا يعني حجم جبل فوقك؛ مئات الياردات من الصخر الصماء والعظام والوحوش المنقرضة والتربة التحتية وحجر الصوان وجذور الأشياء النامية والعشب الأخضر والأبقار التي ترعى فوقه - كل هذا معلق فوقك لا تدعمه سوى دعامات خشبية بسماكة ربلة ساقك. لكن بسبب السرعة التي ينزلك بها القفص والظلام الدامس الذي تسافر عبره فإنك قلما تشعر بأنك على عمق أكبر من نفق سكة حديد بيكاديلي.

المدهش في الجانب الآخر، المسافات الأفقية الهائلة التي عليك قطعها تحت الأرض. قبل أن تنزل في منجم تخيلت على نحو غامض بأن عامل المنجم يخطو من القفص ويصل الى العمل على رف من الفحم على بعد بضع ياردات. لم أدرك أنه قبل أن يصل الى العمل عليه أن يزحف في ممرات طويلة تعادل المسافة من لندن إلى اوكسفورد سيركوس. في البداية، طبعاً، يغور بئر مصعد المنجم في مكان ما قرب درزة (طبقة) الفحم؛ لكن حالما يتم حفر تلك الطبقة تأتي بعدها طبقات جديدة أخرى وتصبح الحفريات أبعد وأبعد عن قاع الحفرة. إن كانت المسافة ميلاً من قاع الحفرة إلى وجه الفحم فذلك هو المتوسط النموذجي للمسافة، أما ثلاثة أميال فهو عادي جداً، وقيل أن بعض المناجم تتجاوز المسافة فيها الخمسة أميال. لكن تلك المسافات لا علاقة لها بالمسافة

فوق الأرض. لأنه في الميل أو الثلاثة أميال قلما يوجد أي مكان خارج الطريق الرئيسي ولا توجد أماكن كثيرة هناك يستطيع الرجل الوقوف فيها بقامة منتصبة.

لا تلاحظ تأثير هذا الإ بعد أن تقطع بضع مئات من الياردات حتى تبدأ بالانحناء بشكل خفيف وأنت تنزل في الدهليز ذو الإضاءة العاتمة الذي بلغ عرضه ثمان أوعشرة ياردات وارتفاعه خمس ياردات تقريباً وجدرانه المبنية من ألواح من صخر الصلصال مثل الجدران الحجرية في ديربي شاير.

كل ياردة أو اثنتين هناك دعامات خشبية تحمل العوارض الخشبية الأفقية والعوارض الحديدية المثبتة، التوى بعضها بانحناءات غريبة الشكل يجب عليك تفاديها. من السير في الطريق الذي تحت قدميك ـ غبار كثيف و قطع مثلمة من الصخور وفي بعض المناجم هناك ماء بقذارة ساحة المزرعة. وهناك أيضاً مسار لأحواض الفحم مثل مصغر مسار سكة حديدية مع عوارض تبعد الواحدة عن الأخرى قدماً أو اثنين يصعب عليه المشي. كل شيء رمادي بسبب غبار الصلصال؛ وهناك رائحة حارة ومغبرة تجدها في كل المناجم. وترى آلات غريبة لن تعرف الغرض منها أبداً وحزمة من الأدوات معلقة معاً على أسلاك وأحيانا تندفع الجرذان مبتعدة عن عن عمود المصابيح. وهي مألوفة إلى حد الدهشة وخصوصاً في المناجم التي فيها أو كان فيها خيول. وسيكون ممتعاً أن تعرف كيف وصلت هناك أولاً؛ ربما بالسقوط من بئر المصعد ـ لأنهم يقولون أن الجرذ يستطيع أن يسقط من أي مسافة دون أن

يتضـرر، بفضـل منطقـة سـطحه الواسـعة نسـبة إلى ثقلـه. تضـغط نفسـك بالجـدار لتفسـح الطريـق لصـف الأحـواض المترنحـة ببطء باتجـاه العمـود ويسحبها سلك فولاذي متصل يدار من السطح. وتحبو عبر ستائر الخيش والأبواب الصوفية الثخينة التي عندما تفتح تسمح بدخول هبات قوية من الهـواء السـاخن البغـيض. الأبـواب جـزء هـام مـن نظـام التهويـة. الهـواء المستنفذ يمتصه أحد الأعمدة بواسطة المراوح ويدخل الهواء الجديد من الآخر بنفسه. لكـن لـو تـرك لحالـه سيأخذ الهواء الطريق بأقصـر دورة تاركاً العمال الذين في الأمـاكن الأعمق دون تهوية؛ لهـذا كـل الطـرق المختصرة يجب أن تفصل بحواجز. في البداية يبدو المشي وظهرك محني شيء هين لكن لا تلبث تلك السهولة في التلاشـى سـريعاً. أنـا معـاق إلى حد مـا بسـبب طـولي وحـين يكـون ارتفـاع السـقف أربعـة أقـدام أو أقـل يصبح المشي مهمة قاسية لا يقدر عليها سوى قزم أو طفل. ليس عليك أن تنحني للضعف فقط بل يجب عليك أن تبقي رأسك مرفوعاً لترى الروافد والعوارض وتتفاداها عندما تأتـي. لـذلك تصـاب رقبتـك بتشـنج لكنـه لا يقارن بالألم الذي تعانيه ساقيك وركبتيك. بعد نصف ميـل يصبح الألم مبرحاً لا يطاق (وأنا لا أبالغ وتبدأ بالتساؤل إن كنت ستصل إلى النهايـة - بل الأسوأ التفكير في العودة - فتصبح خطواتـك أبطـأ وأبطـأ ثـم تصـل بعـد مسـافة مئتي يـاردة إلى منطقـة منخفضـة علـى نحـو اسـتثنائي يجـب عليك أن تكون فيها بوضع القرفصاء بعدها ينفتح السـقف علـى ارتفـاع غريب - منظر انحدار صخرة قديمة، من المحتمل - أن تظل ماشياً بقامـة منتصـبة مسـافة عشـرين يـاردة فيغمـرك الارتيـاح. لكـن بعـد هـذا هنـاك مسافة مئة ياردة أخـرى منخفضـة ثـم سلسـلة مـن الروافـد الخشـبية الـتي

يجب أن تزحف تحتها. تنزل على أطرافك الأربعة وحتى هذا مريح يبدو مريحاً بعد مهمة القرفصاء لكن عندما تصل إلى نهاية الروافد الخشبية وتحاول النهوض ثانية تجد أن ركبتيك أضربتا عن العمل مؤقتاً وترفضان رفعك للأعلى. تصيح توقف، بصورة شائنة وتقول بأنك تود أن تستريح لمدة دقيقة أو اثنتين. دليلك وهو عامل منجم يتعاطف معك ويعرف أن عضلاتك ليست كعضلاته. يقول لك مشجعاً (لم يبق سوى أربع مائة ياردة أخرى)، وتشعر بأنه يقول أربع مئة ميل أخرى. لكنك بشكل أو بآخر تزحف حتى تصل وجه الفحم. تقطع ميلاً فيما يقارب الساعة؛ بينما يقطعها عامل المنجم في حوالي عشرين دقيقة. بعد الوصول هناك، يجب أن تتبطح على الفحم لعدة دقائق لتستجمع قوتك قبل أن تستطيع مراقبة سير العمل بأي نوع من الذكاء.

الإياب أسوأ من الذهاب، ليس لأنك متعب مسبقاً بل لأن الرحلة إلى الممر الرأسي صاعدة قليلاً. وتمر عبر الأماكن المنخفضة بسرعة السلحفاة ولا تستحي من الصياح طلباً للتوقف بسبب ركبتيك الخائرتين حتى حمل المصباح يصبح مزعجاً ويمكن أن تسقطه عندما تتعثر؛ لا تحملانك لذلك إن كان من نوع ديفي ينطفئ. يصبح تحاشي الروافد الخشبية أكثر صعوبة وإجهاداً وأحياناً تنسى تجنبها. تحاول المشي ورأسك للأسفل كما يفعل العمال لكنك تخبط عمودك الفقري. حتى العمال يخبطون عمودهم الفقري كثيراً. في المناجم الحارة جداً يكون من الضروري التنقل شبه عار لهذا أغلب العمال لديهم ما يسمونه (مناقير عظمية في أسفل ظهورهم) جرباً في كل فقرة من ظهورهم. عندما يكون المسار منحدراً يهيء العمال قباقيبهم، التي تكون مجوفة

من الأسفل على قضبان السكة وينزلقون. في المناجم التي فيها التنقل سيء جداً يحمل العمال كلهم عصياً طولها قدمين ونصف مجوفة تحت القبضة. في الأماكن العادية تقبض بيدك بأعلى العصا وفي الأماكن المنخفضة تزلق يدك إلى التجويف. تعتبر العصي عوناً كبيراً والخوذة الخشبية وهي اختراع حديث نسبياً مصادفة سعيدة. تبدو مثل الخوذ الإيطالية والفرنسية المعدنية لكنها مصنوعة من لب الخشب وهي خفيفة وقوية جداً لدرجة لو تعرضت لضربة عنيفة فلن تشعر بها. عندما تعود وتصل إلى السطح أخيراً تكون قد أمضيت ثلاث ساعات تحت الأرض وقطعت ميلين وتكون قد أنهكت أكثر من لو أنك قطعت خمس وعشرين ميلاً مشياً فوق الأرض. وتظل ساقاك متيبستان أسبوعاً ويصبح فيها نزول الدرج مأثرة بطولية؛ إذ تشق طريقك بطريقة جانبية غريبة دون ثني الركب. يلاحظ أصدقائك العمال صعوبة في المشي ولهذا ينظرون إليك ويمزحون. (ما رأيك بالعمل في الحفرة؟) حتى عامل المنجم عندما يعود إلى الحفرة بعد نوبة مرضية مثلاً تجده يعاني بشكل سيء خلال الأيام الأولى القليلة من عودته.

ربما أكون مبالغاً لكن ليس هناك من أحد هبط في حفرة قديمة الطراز وأغلب حفر المناجم الإنكليزية كذلك إلا وقال نفس الكلام عندها. لكن ما أريد تأكيده هو هذا. الزحف المخيف ذهاباً وإياباً والذي هو بالنسبة لأي شخص عادي عمل يومي مجهد بحد ذاته، هو ليس جزءاً من عمل العامل إطلاقاً بل هو عمل إضافي مثل رحلة رجل المدينة في قطار الأنفاق. يقوم العامل بتلك الرحلة ذهاباً وإياباً وتعصره سبع ساعات ونصف من العمل الوحشي. لم أقطع أبداً أكثر من ميل

واحد للوصول إلى وجه الفحم؛ لكنها ثلاثة أميال في العادة وفي تلك الحالة أنا وأغلب الناس من غير العمال لا يصلون إلى هناك أبداً. هذه هي النقطة التي ينساها الناس دائماً. عندما تفكر بالمنجم يخطر لك العمق والحرارة والظلام والأشكال المسودة التي تعزق جدران الفحم؛ ولا تفكر بالضرورة بتلك الأميال من الزحف ذهاباً وإياباً. وهناك قضية الوقت أيضاً إذ تبدو نوبة العمل المؤلفة من سبع ساعات ونصف غير طويلة لكن يجب أن نضيف إليها ساعة من التنقل وعلى الأغلب ساعتين وأحياناً ثلاث ساعات. فنياً التنقل ليس عملاً ولا يتقاضى العامل أجراً عليه لكنه عمل لا يختلف عن عمله الأخر. من السهل القول بأن العمال لا يكترثون بذلك. لكن بالتأكيد ليس بالنسبة لي ولك. فهم متعودون على ذلك منذ الطفولة ويملكون العضلات المتحجرة المناسبة ويستطيعون التنقل تحت الأرض برشاقة فظيعة. يضع العامل رأسه للأسفل ويركض بخطوات طويلة متمايلة عبر أماكن أمشي فيها مترنحاً. تراهم يثبون في أماكن العمل على أطرافهم الأربعة حول دعامات الحفرة كالكلاب. لكن الاعتقاد بأنهم يستمتعون بذلك خطأ فادح. تحدثت في هذا الموضوع مع عشرات العمال واعترفوا كلهم بأن التنقل عمل شاق؛ على أي حال عندما تسمعهم يتحدثون عن حفرة فيما بينهم يكون التنقل أحد عناصر النقاش ويقولون دائماً بأن النوبة تكون أسرع في الذهاب منها في الإياب ويقولون أيضاً بأن الانتقال من المكان بعد يوم عمل شاق مزعج جداً بشكل خاص. إنه جزء من عملهم وهم مهيئون له لكنه بالتأكيد مجهوداً وربما يقارن بتسلق جبل صغير قبل وبعد يوم عمل.

بعد أن تنزل في حفرتين أو ثلاثة تبدأ بإدراك العملية التي تجري تحت الأرض. (بالمناسبة يجب أن أقول بأنني لا اعرف أي شيء عن الجانب التقني للتعدين: أنا وصفت ما رأيته فقط.) يتوضع الفحم في درز دقيقة بين طبقات ضخمة من الصخر لذلك فإن استخراجه أساساً يكون مثل جرف الطبقة المركزية للجليد النابولي.

في السابق كان العمال يحفرون بشكل مستقيم في الفحم بمخل وعتلة ـ وهي مهنة بطيئة جداً لأن الفحم عندما يكون متوضعاً في حالته العذرية يكون قاسياً كالصخر. في الوقت الحاضر تقوم بذلك العمل أدوات قطع كهربائية، التي هي من حيث المبدأ عبارة عن منشار دوار قاس وقوي بشكل هائل يدور أفقياً بدلاً من عمودياً وله أسنان بطول بوصتين ونصف وسماكة بوصة، يمكنه التحرك للأمام والخلف بنفسه ويستطيع الرجال الذين يشتغلون بتدويره بهذا الاتجاه أو ذاك. وقبل أن أنسى يصدر هذا المنشار ضوضاء من أبغض الأصوات التي سمعتها في حياتي ويبعث غيوماً من غبار الفحم تجعل من المستحيل أن ترى على بعد أكثر من قدمين أو ثلاثة ومن المستحيل التنفس أيضاً. تنتقل الآلة على وجه الفحم وهي تقطع بقاعدته وتحفره بعمق خمسة أقدام أو خمسة ونصف؛ بعد هذا يصبح من السهل نسبياً استخراج الفحم حتى عمق الحفرة التي أحدثها المنشار. في الأماكن الصعبة يجب أن تحرر بالمتفجرات. يحفر رجلاً بمثقب كهربائي يشبه المثقب الذي يستخدم في إصلاح الطرق لكنه أصغر حفراً على فواصل في الفحم ويدخل فيها المسحوق المتفجر ويسدها بالوحل ويلتجىء خلف زاوية قريبة في حال توفرها (المفروض أن يتراجع إلى مسافة خمس

وعشرين ياردة) ويفجر الحشوة بالتيار الكهربائي . ليس الغرض من هذا إخراج الفحم بل تحريره. أحياناً تكون الحشوة قوية جداً فلا تسبب تحرر الفحم فقط بل تهاوي السقف وسقوطه أيضاً. بعد القيام بالتفجير يقلب المعبئون الفحم ويفتتونه ويجرفونه لوضعه على الحزام الناقل. يخرج أولا على شكل جلاميد هائلة الحجم قد يزن أحدها عشرين طناً ويقذفها الحزام الناقل إلى الأحواض التي ترحلها إلى الطريق الرئيسي وتعلق بسلك فولاذي يدور دائماً ويسحبها إلى القفص. وهناك يتم رفعها وعلى السطح يفرز الفحم بتمريره فوق مناخل ويغسل في حال الضرورة أيضاً. وبقدر الإمكان تستخدم القذارة ـ الصلصال لتعبيد الطرق السفلية. وكل ما يزيد يرسل إلى السطح ويفرغ هناك ويشكل أكوام ضخمة من القذارة مثل الجبال الرمادية البشعة وهي مشهد يميز مناطق الفحم. بعد أن يستخرج الفحم إلى العمق الذي أحدثته الآلة يكون وجه الفحم قد تقدم حوالي خمسة أقدام. توضع دعامات جديدة لتسند السقف المكشوف الجديد وخلال النوبة التالية يفكك حزام النقل إلى قطع وينقل خمسة أقدام للأمام ويعاد تجميعه. وبقدر ما تسمح به الظروف تتم العمليات الثلاثة من الحفر والتفجير والاستخراج في ثلاث نوبات منفصلة، الحفر بعد الظهر والتفجير في الليل (يوجد قانون، لا يلتزم به دوماً، يحرم التفجير أثناء عمل العمال في الجوار) والتعبئة في النوبة الصباحية التي تستمر منذ السادسة صباحا حتى الواحدة والنصف بعد الظهر.

حتى عندما تراقب عملية استخراج الفحم فإنك تراقبه لفترة قصيرة ولا تدرك ضخامة العمل الذي ينجزه المعبئون حتى تقوم ببعض

الحسابات. في العادة كل رجل عليه أن يزيل حيزاً بسعة أربع أو خمس ياردات. تحفر الحفارة الفحم إلى عمق خمسة أقدام لهذا إن كانت درزة الفحم بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام، كل رجل علية تقطيع وتفتيت وتعبئة كمية بين سبع ياردات مكعبة أو اثنتا عشر من الفحم. هذا يعني بما أن الياردة المكعبة تزن الفين وسبعمائة حجر أي أن كل رجل ينقل فحماً بمعدل طنين في الساعة تقريباً. ولقد جربت عمل المخل والمجرفة مسبقاً وأفهم ما يعنى هذا. عندما أحفر خندقاً في حديقتي لو نقلت طنين من التراب خلال فترة ما بعد الظهر، أشعر بأنني أستحق شايي. لكن التراب مادة قابلة للطرق مقارنة بالفحم ولست مجبراً على العمل وأنا جاثياً وعلى عمق ألف قدم تحت الأرض في حرارة خانقة وأبلع غبار الفحم في كل شهقة ولست مجبراً على قطع ميلاً وظهري محني جداً قبل أن أبدأ. إن مهنة عامل المنجم تفوق قدراتي مثل العمل على أرجوحة طائرة للفوز بجائزة المواطن الكبير. أنا لست عاملاً عضلياً وأشكر الرب لأنني لن أكون كذلك أبداً، لكن هناك بعض أنواع العمل اليدوي التي أستطيع القيام بها إن اضطرت. بدرجة ما يمكن أن أكون كناس طرق أو بستاني عاجز أو حتى عامل مزرعة من الدرجة العاشرة لكن لم أتخيل أنني قد أصبح عامل منجم لا بالجهد ولا بالتمرين وسيقتلني ذلك بعد بضعة أسابيع.

بمراقبة عمال المناجم وهم يعملون تدرك مؤقتاً مدى اختلاف العالم الذي يعيشون فيه. في الأسفل حيث يحفر الفحم عالم معزول قد تمضي حياتك كلها دون أن تسمع به. وربما أغلب الناس لا يفضلون السماع به. لكنه يظل بالتأكيد مكملاً ضرورياً لعالمنا العلوي. عملياً

كل ما نفعله من الآيس كريم (البوظة) إلى عبور الأطلسي ومن خبز رغيف الخبز إلى كتابة الرواية يتضمن استخدام الفحم بشكل مباشر أو غير مباشر. كل فنون السلام تحتاج إلى الفحم وإن اندلعت الحروب تصبح ضرورته أشد. في زمن الثورة يجب على عامل المنجم العمل باستمرار وإلا تتوقف لأن الثورة تحتاج للفحم بقدر ما تحتاجه الرجعية. مهما يحدث على السطح يجب أن يستمر الحفر والغرف دون توقف أو بأي ظرف دون التوقف لأكثر من أسابيع قليلة في أفضل الأحوال. لكي يمشي هتلر بخطوة الوزة ولكي يشجب البابا البلشفية ويجتمع جمهور الكريكت في اللوردز ويحك الشعراء ظهور بعضهم البعض يجب أن يكون الفحم في متناول اليد. لكن بالإجمال نحن غير منتبهين لذلك وكلنا نعرف بأنه يجب أن يكون لدينا فحم لكن نادراً أو مطلقاً ما نتذكر ماذا يتضمن الحصول على الفحم. أنا الآن أكتب مرتاحاً أمام نار فحم موقدي. إنه شهر نيسان لكنني لازلت بحاجة إلى النار. مرة كل نصف شهر تأتي عربة الفحم إلى الباب ويحمل رجال بسترات جلدية الفحم إلى داخل بيتي في أكياس مملوءة تفوح منها رائحة القطران ويرمونها وهي تقعقع في قبو الفحم تحت الدرج. ومرات نادرة قليلة بذلت فيها مجهوداً عقلياً واضحاً ربطت به هذا الفحم بالجهد البعيد في المناجم؟ إنه مجرد فحم - شيء يجب أن احصل عليه؛ مادة سوداء تصل بشكل غامض من اللامكان على وجه الخصوص مثل المن باستثناء أنك تدفع ثمنه. ويمكنك بسهولة قيادة سيارتك في شمال انكلترا ولا تتذكر أبداً إنه على عمق مئات الأقدام تحت الطريق الذي أنت عليه هناك عمال مناجم يغرفون الفحم. ومع ذلك

وبمعنى آخر إنهم عمال المناجم الذين يدفعون سيارتك للمضي قدما. عالمهم المضاء بالمصابيح هناك بالأسفل ضروي لعالم النهار العلوي كضرورة الجذر للزهرة.

كانت ظروف المناجم منذ زمن غير بعيد أسوأ مما هي عليه الآن. لا تزال هناك نساء عجائز عملن في شبابهن في المناجم والنير حول خصورهن والسلسلة المارة من بين ارجلهن، يزحفن على أطرافهن الأربعة ويسحبن أحواض الفحم. كن يواصلن العمل حتى وهن حوامل. وحتى في وقتنا الحالي لو لم ينتج الفحم دون نساء حوامل تجره للأمام والخلف لتركناهن يقمن بذلك بدلاً من حرمان أنفسنا منه كما أتصور. لكن طبعاً من الأفضل أن ننسى في أغلب الأوقات إنهن كن يعملن ذلك. إنه ككل العمل اليدوي يحافظ على بقائنا أحياءاً ونحن غافلون عن وجوده. أكثر من أي شيء آخر، ربما يقف عامل المنجم كنموذج للعمال اليدويين، ليس لأن عمله كريه بشكل ضخم فقط بل لأنه ضروري بشكل حيوي أيضاً وبعيد جداً عن خبرتنا، مخفي جداً لدرجة أننا قادرون على نسيانه كما ننسى الدم الذي في عروقنا. ان مراقبة عمال المناجم وهم يعملون طريقة مهينة وتثير الشك في نفسك مؤقتاً بمنزلتك كمفكر وكشخص ارفع منزلة عموما. أنه يحمل إليك لباب بيتك على الأقل بينما أنت تراقب، ذلك لأن عمال المناجم يلفظون أحشائهم ليظل الأشخاص الأعلى مقاماً أعلى. أنا وأنت ومحرر تايمز ليتريتشر والشعراء ورئيس أساقفة كانتربيري والرفيق سين مؤلف كتاب الماركسية للقصر - كلنا ندين حقيقة بمدنية وحشمة حياتنا النسبية للكادحين المساكين تحت الأرض، الذين يغطيهم السواد حتى عيونهم وحلوقهم مترعة بغبار الفحم يشقون مجاريفهم للأمام بأذرع وبطون فولاذية.

الفصل الثالث

عندما يخرج عامل المنجم من الحفرة يكون وجهه شاحباً جداً ولافتاً للنظر حتى من وراء قناع غبار الفحم هذا بسبب الهواء الفاسد الذي يستنشقه لكن ذلك يتلاشى في الحال. بالنسبة للجنوبي، الجديد على مناطق التعدين، منظر النوبة المؤلفة من عدة مئات من العمال الخارجين من الحفرة غريب ومشؤوم قليلاً لوجوه منهكة جداً يلتصق السخام بكل تجاويفها وفيها نظرة برية متوحشة. لكن في أوقات أخرى حين تكون وجوههم نظيفة لا يوجد الكثير ما يميزهم عن بقية السكان. لهم مشية بأكتاف مربعة منتصبة جداً وهي رد فعل على الانحناء الدائم تحت الأرض لكن أغلبهم يميلون إلى قصر القامة وتخفي ثيابهم الثخينة غير اللائقة روعة أجسادهم. أكثر ما يميزهم ندب زرق على أنوفهم. كل عامل منجم عنده ندباً على أنفه وجبينه يظل يحملها حتى مماته. غبار الفحم الذي يحمله الهواء تحت الأرض يدخل إلى كل جرح وبعد أن ينمو الجلد فوقه يشكل بقعة زرقاء كالوشم

لهذا تبدو عروق جباه بعض الرجال الكبار في السن مثل أجبان روكفورت.

حالما يخرج العامل إلى سطح الأرض يتغرغر بقليل من الماء ليتخلص من غبار الفحم الذي في حلقه ومنخريه وبعدها يذهب إلى البيت وهناك قد يستحم أو لا وذلك حسب طبعه. يجب أن أقول من جراء ما رأيته أن أغلبهم يفضلون أن يتناولوا طعامهم أولاً ثم يستحمون فيما بعد وهذا ما يجب أن يفعله أي واحد في ظروفهم. من العادي أن ترى العامل جالساً يتناول شايه ووجهه كوجه قس كريستي، مسود كله ما عدا شفتيه المحمرتين جداً و اللتان أصبحتا نظيفتين بسبب الأكل. بعد الطعام يأخذ حوض غسيل واسع من الماء ويغسل بمنهجية، أولاً يديه ثم صدره وعنقه ونقرتي إبطيه بعد ذلك ساعديه ثم وجهه وفروة رأسه يلتصق أكثف السخام عليها ـ ثم تأخذ زوجته قطعة قماش وتغسل بها ظهره. لقد قام بغسل الجزء العلوي من جسمه وقد يظل جزئه الأوسط عشاً من غبار الفحم لكن حتى هذا الشكل يتطلب بعض المهارة لينظف نفسه بحوض ماء واحد. بالنسبة لي احتجت إلى مغطسين كاملين بعد النزول إلى منجم الفحم. إن إخراج القذارة من الجفون يتطلب عشر دقائق لوحده.

توجد في بعض منشآت المناجم المجهزة الأوسع والأفضل حمامات قريبة من العمود الرئيس للحفرة. هذه ميزة هائلة، ليس لأن العامل يستطيع غسل نفسه كل يوم براحة وترف بل لأنه في الحمامات لديه

خزانتين حيث يحفظ ثياب الحفرة بشكل معزول عن ثيابه النهارية لهذا خلال عشرين دقيقة بعد خروجه كزنجي أسود يمكنه الذهاب إلى مباراة كرة قدم وهو في غاية التأنق. لكن من النادر نسبياً فقط لأن درزة الفحم لا تدوم إلى الأبد لهذا ليس مجدياً بالضرورة بناء حمام كلما غار العمود الرأسي أعمق. لا أستطيع الحصول على أرقام دقيقة، لكن يبدو أن كل منجم من ثلاثة يوجد خدمة حمامات الحفر. تظل غالبية عمال المناجم ستة أيام في الأسبوع مسودة تماماً من الخصر إلى القدم على الأقل. يستحيل عليهم تقريباً أن يغسلوا كل أجسامهم في بيوتهم. كل قطرة ماء يجب أن تسخن في غرفة معيشة صغيرة جداً تضم علاوة على المطبخ والأثاث، زوجة وبعض الأولاد وربما كلب ولا يوجد متسع للحصول على حمام مناسب ومجبر على رش الأثاث بالماء حتى لو أستحم في حوض. وأفراد الطبقة الوسطى مغرمين بالقول بأن عمال المناجم لا يغسلوا أنفسهم جيداً حتى لو استطاعوا لكن هذا هراء، كما بينته الوقائع وحين توفرت حمامات الحفر فإن كل الرجال استخدموها. فقط وسط كبار السن لا يزال الاعتقاد بأن الغسيل يسبب ألماً في أسفل الظهر. فضلاً على ذلك يدفع العمال ثمن الاستحمام في حمامات الحفر بأنفسهم كله أو قسماً منه من صندوق إنعاش عمال المناجم إن وجدت. أحياناً شركة المنجم تشارك في تحمل التكاليف وأحياناً أخرى يتحملها الصندوق كلها. لكن لا شك بأن سيدات نزل برايتون ظللن يرددن حتى إلى عهد قريب القول (إن أعطيت عمال المناجم أحواض استحمام فسيضعون فيها الفحم).

في الواقع إن استحمام عمال المناجم بشكل منتظم كما يفعلون شيء مذهل، نظراً للوقت القليل الذي يتوفر لديهم بين العمل والنوم. من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن يوم عمل عامل المنجم سبع ساعات ونصف فقط. السبع ساعات ونصف هي الوقت الفعلي الذي يمضيه العامل في العمل الفعلي لكن كما أوضحت سابقاً يجب أن يضاف إليها الوقت الذي يستغرقه التنقل الذي نادراً ما يقل عن الساعة ويصل إلى ثلاث ساعات في أكثر الأحيان. بالإضافة إلى الوقت الكبير الذي يمضيه العمال في الذهاب إلى الحفرة والعودة منها. في كل المناطق الصناعية هناك نقص حاد في البيوت، ولا يتأكد الرجال أنهم يعيشون قريباً من أماكن عملهم إلا في قرى التعدين الصغيرة التي تتجمع فيها القرية حول الحفرة. في بلدات المناجم الكبيرة حيث أقمت، كل واحد تقريباً يذهب إلى العمل في الحافلة ويصرف نصف كراون ثمناً للأجرة العادية أسبوعياً. عامل أقمت معه كان يعمل في النوبة الصباحية التي تستمر منذ السادسة صباحاً حتى الواحدة والنصف بعد الظهر. كان يخرج من البيت في الساعة الرابعة إلا ربع ويعود بعد الساعة الثالثة. وفي بيت آخر أقمت فيه كان هناك صبياً في الخامسة عشر من عمره يعمل في نوبة ليلية. يغادر البيت للعمل في الساعة التاسعة مساءاً ويعود في الساعة الثامنة صباحاً، يتناول فطوره ويذهب إلى السرير مباشرة وينام حتى الساعة السادسة مساءاً؛ لهذا وقت فراغه يقارب الأربع ساعات يومياً ـ وهي عملياً أقل من ذلك بكثير إن طرحت منها وقت الاستحمام والطعام وارتداء الثياب.

التعديل الذي على عائلة عامل المنجم القيام به عند تبديل نوبته يكون متعباً إلى أقصى حد. إن كان في نوبة ليلية يصل إلى البيت وقت الإفطار وإن كانت نوبته نهارية يصل بيته في منتصف العصر. وإن كان في نوبة العصر يصل بيته في منتصف الليل؛ وفي كل حالة طبعاً يريد وجبته الأساسية اليومية فور عودته. لاحظت بأن المبجل وليام رالف اينغ في كتابه انكلترا، يتهم عمال المناجم بالنهم. من خلال ملاحظاتي يجب أن أقول أنهم يأكلون كمية قليلة تثير الدهشة. أكثر العمال الذين أقمت معهم يأكلون أقل مما آكل وصرح كثيراً منهم أنهم لا يستطيعون القيام بعملهم إن تناولوا وجبات كبيرة والطعام الذي يأخذونه معهم مجرد وجبة خفيفة من الخبز المقطر بماء الشواء والشاي البارد عادة. يحملونه في علبة مسطحة يربطونها بأحزمتهم تسمى علبة عضة. عندما يعود العامل في وقت متأخر من الليل يجد زوجته بانتظاره لكن عندما يكون في النوبة الصباحية تجري العادة بأن يحضر إفطاره بنفسه. من الواضح بأن الخرافة التي تقول أن رؤية امرأة قبل الذهاب إلى العمل في النوبة الصباحية تجلب الحظ السيئ لم تنقرض تماماً. لقد قيل في الأيام الماضية أن عامل المنجم الذي يلتقي بامرأة في الصباح الباكر سيعود غالباً دون أن يعمل في ذلك اليوم.

قبل أن اذهب إلى مناطق الفحم شاركت في تصديق الوهم الواسع الانتشار من أن عمال المناجم يتقاضون أجوراً جيدة. ويسمع المرء أن العامل يتقاضى عشر أو أحد عشر شلناً وإن قمنا بعملية ضرب بسيطة

نستنتج أن كل عامل يكسب أكثر من جنيهين بقليل في الأسبوع أو ١٥٠ جنيه في السنة. لكن القول بأن العامل يتقاضى عشر شلنات في النوبة مضلل جداً. لنبدأ مع، فقط النائل الفعلي وهو الذي يستحق هذا المبلغ؛ أما المسقف وهو الذي يهتم ويعمل في إنشاء السقوف ينال آجراً أقل ويبلغ عادة ثمان أو تسع شلنات. وحين يدفع للنائل بالقطعة بقدر ما يستخرج من أطنان الفحم كما هي الحالة في مناجم كثيرة، فهو يعتمد على نوعية الفحم، وأي عطل في الآلة أو خطأ ـ كعرق صخري داخل درزة الفحم ـ قد يسلبه ماله المكتسب لمدة يوم أو يومين في المرة الواحدة. لكن في أي حال يجب أن لا نحسب بأن العامل يعمل ستة أيام في الأسبوع واثنين وخمسين أسبوعاً في السنة. بالتأكيد سيكون هناك عدد من الأيام التي يكون فيها عاطلاً عن العمل. معدل ما يستحقه عامل المنجم من كل الأعمار ومن الجنسين في النوبة في بريطانية العظمى وفي عام ١٩٣٤ كان تسعة شلنات وبنس وثلاثة أرباع إن كان كل شخص في العمل طوال الوقت، هذا يعني أن العامل يكسب ١٤٢جنيه في السنة أو جنيهين وخمسة عشر شلن وبنسين في الأسبوع. لكن دخله الحقيقي بعيد عن هذا، لأن تسع شلنات في النوبة وبنس وثلاثة أرباع هو مجرد معدل حسابي قائم على نوبات العمل الفعلية ولا يأخذ بحسابه أيام العطل.

أمامي خمسة أوامر دفع لعامل منجم من يوركشاير لخمسة أسابيع (ليست متتالية) في بداية عام ١٩٣٦. لو أخذنا معدل إجمالي الأجور

الأسبوعية فسيكون جنيهين وخمسة عشر شلن وبنسين؛ هذا المعدل يساوي ٩ شلن وبنسين ونصف في النوبة. لكن هذه الشيكات في الشتاء حين تكون كل المناجم تعمل على مدار اليوم. وبتقدم الربيع تتراخى تجارة الفحم ويزداد عدد العمال المتوقفين عن العمل، في حين يتوقف الذين لا يعتبرون في العمل فنياً يوم أو اثنين في الأسبوع. لهذا من الواضح أن مبلغ ١٥٠ أو ١٤٢جنيه في السنة كدخل لعامل المنجم هو تقدير مبالغ فيه. وكواقع كان إجمالي ما يكسبه عامل الفحم في بريطانية العظمى عام ١٩٣٤ لا يتعدى ١١٥جنيه و١١شلن و٦بنسات ويتنوع من مقاطعة إلى أخرى فيرتفع إلى ١٣٣جنيه و٢شلن و٨ بنسات في اسكتلندا بينما في دورهام كان أقل من ١٠٥جنيه أو لا يتجاوز جنيهين في الأسبوع. أخذت هذه الأرقام من دلو الفحم، لجوزف جونز عمدة بارنسلي بوركشاير. كما أضاف السيد جونز:

هذه الأرقام تغطي أجور الشباب والكبار وذوي الأجور العالية والمنخفضة.... وأي أجر عال سوف تشمله هذه الأرقام، كما يكون عليه الحال مع بعض الموظفين ومن يتقاضون أجوراً عالية بالإضافة إلى المبالغ التي تدفع لقاء العمل الإضافي.

فشلت هذه الأرقام كمعدلات في الكشف عن وضع آلاف العمال الراشدين الذين يتراوح معدل دخلهم الفعلي من ٣٠ إلى٤٠ شلن أو أقل في الأسبوع.

كلام السيد جونز مطبوع بخط مائل. لكن أرجو أن تلاحظ أنه

حتى هذه الأجور البائسة هي المكسب الإجمالي. وقبل كل هـذه هنـاك كل أنواع التوقيفات عن العمل التي تحسم من أجور العامل كل أسبوع؛ هذه قائمة بتوقيفات أسبوعية أعطيت لي في إحدى مناطق لانكشاير:

تأمين (وفاة وبطالة) ١,٥ شلن وخمس بنس، أجـرة مصـباح ٦ بـنس، سـن أدوات ٦ بـنس، مراقبـة وزان ٩ بـنس، مستشـفى ٢بـنس، صـندوق خيري ٦ بنس، أجور نقابة ٦ بنس، المجموع ٤ شلن و ٥ بنس.

ويمكـن القـول أن بعـض هـذه الحسـميات مثـل الصـندوق الخـيري وأجور النقابة هـي مسؤولية العامل لكن الأخـرى فرضتها عليـه شـركة التعـدين. وهـي ليسـت متماثلـة في كـل المنـاطق. مـثلاً، الاحتيـال الجـائر لجعل العامل يدفع أجور المصباح (بمعدل ست بنسات في الأسـبوع و الـتي يسـتطيع بهـا شـراء عـدة مصـابيح في سـنة واحـدة) لا تحصـل في كـل مكان. لكن إجمالي الحسميات يكون متماثلا في كل الأمـاكن. في أمر صرف عامل يوركشاير معدل الكسب الأسبوعي جنيهين وخمسـة عشـر شلن وبنسين. متوسط صافي المكسب يصبح جنيهين وأحد عشـر شلن وأربع بنسات أما الحسم فثلاثة شـلنات وعشـر بنسـات لكـن أوامـر الصرف لا تذكـر سـوى الحسـميات الـتي تفرضـها الشـركة وتـدفع عـن طريقها، ويجب دمج أجور النقابـة ممـا يجعـل إجمـالي الحسـميات أربعـة شلنات. ربما من الآمن القول أن الحسميات تقطع أربع شلنات تقريباً مـن الأجـر الأسـبوعي لكـل عامـل بشـكل أو بـآخر لـذلك فـإن الـ١١٥جنيـه و١١شـلن و٦بنسـات الـتي هـي معـدل دخـل عامـل المـنجم في بريطانيـة

العظمى عام ١٩٣٤يصبح أقرب إلى ١٠٥جنيهات. خلافاً لهذا يتلقى أغلب العمال حصص عينية، كقدرتهم على شراء الفحم بأسعار مخفضة لاستعمالهم الذي يكون عادة ثمان أو تسع شلنات للطن. لكن حسب ما جاء عن السيد جونز، الذي اقتبسنا عنه مسبقاً، (قيمة معدل الحسميات العينية في كل البلاد أربع بنسات في اليوم. و هذه البنسات الأربع تعويض في حالات كثيرة عن المبلغ الذي يصرفه العامل كأجور تنقل من والى الحفرة، وفي الصناعة إجمالاً، المبلغ الذي يستطيع فعلا أن يجلبه العامل إلى البيت ويسمى له ليس أكثر من المعدل وربما أقل من جنيهين في الأسبوع.

لكن في المقابل ما هي كمية الفحم التي ينتجها العامل؟

ترتفع الحمولة الطنية سنوياً للفرد الواحد المستخدم في التعدين بثبات لكن ببطء. في العام ١٩١٤ كان كل عامل ينتج ٢٥٣ طن من الفحم وفي العام ١٩٣٤ أصبح ينتج ٢٨٠ طن. هذا طبعا معدل الرقم لكل أنواع عمال المناجم، هؤلاء الذين يعملون في وجه الفحم يستخرجون مقدراً أكبر بكثير جداً من هذا ففي حالات كثيرة يتجاوز إنتاج واحدهم الألف طن سنوياً. لكن نأخذ رقم ٢٨٠ كرقم نموذجي، هذا انجاز ضخم يستحق الملاحظة لكل فرد يعمل في التعدين.

يمكن الحصول على أفضل صورة بمقارنة حياة العامل مع حياة شخص آخر. لو عشت إلى الستين أكون قد أصدرت ثلاثين رواية أو ما

يكفي لملء رف مكتبة متوسطي الحجم. بنفس الفترة ينتج عامل المنجم ٨٤٠٠ طن من الفحم؛ تكفي لرصف ساحة ترافيلغار بعمق قدمين أو ما يكفي لتموين سبع عائلات كبيرة بالوقود لأكثر من مئة عام.

من أوامر الدفع الخمسة التي ذكرتها سابقاً ثلاثة منها على الأقل ممهورة بكلمات (حسم الموت). عندما يقتل عامل أثناء العمل من العادي أن يتبرع كل واحد من العمال الآخرين بشلن لأرملة المقتول وتجمع شركة المنجم التبرعات وتحسم آلياً من أجورهم. التفصيل المهم هنا هو الموافقة الروتينية. معدل الحوادث بين العمال مرتفع جداً مقارنة بالعاملين في المهن الأخرى. تعتبر الخسائر في الأرواح شيء بديهي كما لو كان الأمر في حرب ثانوية. كل سنة يقتل عاملاً واحداً من كل تسعة مئة ويصاب واحد من أصل ستة وأغلب هذه الإصابات تافهة بالطبع لكنها رقم معقول بالنسبة لمجمل الإعاقات. هذا يعني إن كانت حياة العامل أربعين عاماً فإن فرص نجاته من الإصابة تبلغ سبعة ضد واحد وليس أكثر من عشرين ضد واحد لحالة القتل التام. ليس هناك مهنة أكثر من هده المهنة خطورة؛ وتليها بالخطورة مهنة النقل البحري التي يبلغ معدل الوفيات فيها واحد من كل ١٣٠٠ بحار في السنة. تنطبق هذه الأرقام التي أعطيتها على كل عمال المناجم طبعاً؛ لأن نسبة الإصابات بين الذين يعملون تحت الأرض ترتفع إلى أكثر من ذلك بكثير. كان كل عامل منجم دائم تحدثت معه إما أنه تعرض لحادث خطير نوعاً ما بنفسه أو أنه رأى مقتل أحد زملاءه، وكل عائلة عامل لديها ذكرى

مؤلمة عن آباء أو أخوة أو أعمام لهم قتلوا في العمل. (سقط من ارتفاع سبع مئة قدم ولم يستطيعوا جمع القطع ما عدا البذلة الجديدة ذات القماش الزيتي الخ الخ) وبعض تلك الحكايات مرعب إلى أقصى حد. روى لي أحد العمال مثلاً كيف سقط فوق زميله (المسقف) الذي يعرفه جيدا صخرة ودفن تحتها. اندفعوا مسرعين إليه ونجحوا في الكشف عن رأسه وكتفيه لكي يتمكن من التنفس وكان حياً وتكلم معهم ثم رأى السقف يسقط ثانية ففروا ناجين بأنفسهم وطمر زميلهم مرة ثانية، أسرعوا نحوه مرة ثانية وحرروا رأسه و كتفيه من جديد وكان لا يزال حياً حيث تكلم معهم ثانية وانهار السقف مرة ثالثة ولم يتمكنوا هذه المرة من نبشه إلا بعد عدة ساعات لكنه كان ميتاً بعد كل ذلك. لم يعتقد العامل الذي حكى لي القصة (الذي طمر بنفسه في إحدى المناسبات لكنه كان محظوظاً حيث انحشر رأسه بين ساقيه فكان هناك مجالاً كي يتنفس) بأنها كانت قصة مرعبة. ومغزاها بالنسبة له أن العامل كان يعرف جيداً أن المكان الذي يعمل فيه غير آمن وذهب للعمل فيه وهو يتوقع يومياً حصول حادث ما. كان يفكر بذلك إلى درجة كان يجب أن يُقبل زوجته قبل أن يذهب إلى العمل. وأخبرتني زوجته فيما بعد بأنه لم يقبلها منذ أكثر من عشرين عاماً.

أكثر سبب مفهوم للحوادث هو انفجار الغاز الذي يتواجد بكثرة أو قلة في هواء الحفرة. يوجد مصباح خاص يستخدم لاختبار الغاز في الهواء ويمكن كشفه أيضاً بواسطة لهب مصباح ديفي العادي حيث

تصبح الشعلة زرقاء عندما يكون موجوداً بكميات كبيرة. إذا أمكن رفع الفتيلة إلى أقصى حد وظل اللهب أزرق فإن كمية الغاز عالية بشكل خطر؛ لكن مع ذلك يظل من الصعب اكتشافه لأنه لا يتوزع بشكل متساو في الجو بل يلتصق في الشقوق والصدوع. قبل البدء بالعمل يقوم العامل بفحص الغاز غالباً بدس مصباحه في كل الزوايا. قد يتأثر الغاز بشرارة أثناء عمليات التفجير أو التقاط شرارة من حجر مضروب أو من مصباح عاطل أو من حرائق الكومة وهي حرائق تحدث عفوياً يشتعل في غبار الفحم ومن الصعب إخمادها. كوارث المناجم الكبيرة التي تحدث بين حين وآخر ويقتل فيها المئات تسببها التفجيرات عادة؛ لذلك يميل المرء إلى الاعتقاد بأن الإنفجارات هي الخطر الرئيسي في التعدين. في الواقع غالبية الحوادث تكون بسبب المخاطر اليومية في الحفرة؛ وخاصة الانهيارات السقفية. هناك، مثلاً، ثقوب السقف ـ وهي ثقوب دائرية تنطلق منها كتل كبيرة من الحجارة بقوة الرصاصة تكفي لقتل رجل. لقد تحدث كل العمال مع استثناء واحد بقدر ما يمكن أن أتذكر وأعلنوا بأن الآلات الجديدة والتسريع عموماً جعلا العمل أكثر خطورة. قد يكون سبب ذلك عائد جزئياً إلى النزعة المحافظة لكنهم يستطيعون تقديم مبررات كثيرة. لنبدأ بالسرعة التي يستخرج الفحم بها الآن تعني بقاء مساحة واسعة بشكل خطير من السقف غير مدعمة لمدة ساعات في كل مرة. ثم هناك الاهتزاز الذي يقوم بهز كل ما هو مرتخ ومتدل والضجيج الذي يجعل اكتشاف علامات الخطر أصعب. يجب أن يتذكر المرء بأن سلامة عامل المنجم

تحت الأرض تعتمد على مهارته واهتمامه الخاص. يدعي العامل غير الخبير بأنه يعرف بنوع من الغريزة حين يكون السقف غير آمن؛ والطريقة التي يصوغ بها هذا أنه (يشعر بالثقل عليه). يستطيع سماع الصرير الضعيف للدعامات مثلاً. إن سبب استمرار تفضيل الدعامات الخشبية على العوارض الحديدية هو أن الأولى تعطي إنذاراً من خلال صريرها حين تكون على وشك الانهيار بينما الثانية تتطاير بشكل غير متوقع. ضجيج الآلات المدمر يجعل من المستحيل سماع أي شيء آخر ولذلك يزداد الخطر.

حين يصاب العامل طبعاً من المستحيل تقديم العناية الفورية له. يستلقي مسحوقاً تحت ثقل حجارة تزن بالمئات في صدع مظلم مخيف تحت الأرض، وحتى بعد أن يتم تخليصه يجب جر جسده إلى مسافة تتجاوز الميل عبر دهاليز لا يمكن لأحد أن يقف فيها منتصباً. عادة عندما تتحدث مع رجل تعرض لإصابة تجد أنه أمضى ساعتين أو أكثر قبل أن يوصلوه إلى السطح. أحياناً، طبعا هناك حوادث تصيب القفص. ينطلق القفص مسافة ياردات كثيرة للأعلى أو للأسفل بسرعة القطار السريع ويشغله شخص على السطح لا يرى ما يحدث. لديه مؤشرات ضعيفة تخبره كم قطع القفص لكن من المحتمل أن يرتكب أخطاء وكانت هناك حالات ارتطم فيها القفص بقاع الحفرة وهو في أقصى سرعته. بدت لي هذه طريقة مروعة للموت. لأنه عندما يئز ذلك الصندوق الفولاذي الصغير مخترقاً الظلام يجب أن تمر لحظة يعرف

فيها الرجال العشرة المحبوسين داخله بأن خللا ما قد حصل؛ أما التفكير بالثواني المتبقية قبل أن يتحطموا إلى مزق فلا يتحمل. أخبرني أحد العمال أنه كان مرة في القفص عندما أصابه خلل. لم يتباطأ حين افترض به ذلك وظنوا أن السلك قد تقصف وحدث أن وصلوا للقاع سالمين لكنه عندما خطا إلى الخارج وجد أن سنه قد انكسر فقد كان يطبق على أسنانه بقوة كبيرة حين توقع ذلك الارتطام المخيف.

بمعزل عن الحوادث يبدو العمال أصحاء بشكل جلي كما يجب عليهم أن يكونوا بأخذ الجهود العضلية المطلوبة منهم بعين الاعتبار. إنهم معرضون للروماتيزم والرجل الذي لديه خلل في الرئتين لا يستطيع الاستمرار طويلا في الجو المشبع بالغبار، لكن أهم ما يميز أمراض الصناعة الرأرأة ـ تذبذب المقلتين اللاإرادي. هذا المرض يصيب العيون ويجعل المقلتين تتذبذبان بطريقة غريبة عندما تقتربان من الضوء. هذا يعود إلى عملهم في ما يشبه الظلام ويسبب العمى الكامل أحيانا. عمال المناجم الذين يصابون بإعاقات كهذه أو غيرها تعوضهم شركة المنجم، أحياناً بمبلغ صافٍ، وأحياناً بمعاش تقاعدي أسبوعي. لم تتجاوز هذه المنحة أبداً التسعة والعشرين شلن في الأسبوع؛ وإن هبطت إلى أقل من خمسة عشر شلن يستطيع العامل الحصول على شيء من إعانة البطالة الحكومية أو من لجنة الإعانة الشعبية. لو كنت عاملاً معاقاً لفضلت نقود المبلغ الصافي عندها وبأي حال أعرف بأنني أخذت نقودي. رواتب الإعاقة لا يضمنها أي صندوق مركزي. لهذا إن أفلست شركة المنجم

فسيكون ذلك نهاية الراتب التقاعدي للعامل المعاق رغم أنه يعتبر من الدائنين الآخرين.

في ويغان أقمت مع عامل يعاني من الرأرأة، لا يستطيع أن يرى أبعد من الغرفة التي هو فيها. كان يسحب تعويضا بمقدار تسع وعشرين شلن أسبوعياً في الشهور التسع الماضية لكن شركة المنجم وضعته على التعويض الجزئي بمقدار أربعة عشر شلن في الأسبوع. ويعتمد الأمر كله على الطبيب فإن اعتبره لائق لعمل خفيف على القمة لكن حتى لو اعتبره الطبيب كذلك فلا حاجة للقول بعدم توفر أي أعمال خفيفة هناك، لكنه يستطيع سحب إعانة البطالة الحكومية وتستطيع الشركة أن توفر لنفسها خمسة عشر شلن أسبوعيا. بمشاهدة هذا الرجل وهو يذهب إلى شركة المنجم ليسحب تعويضه، أدهشتني الاختلافات العميقة التي لا تزال موجودة بين المراتب الاجتماعية. هذا رجل أصيب بشبه عمى في واحدة من انفع المهن وكان يسحب راتبه التقاعدي الذي له كامل الحق فيه ـ إن كان لأي شخص حق في أي شيء ـ ومع ذلك لم يقدر أن يطالب بهذا الراتب ـ لا يستطيع مثلاً أن يسحبه متى وكيفما أراد. يجب أن يذهب إلى الشركة مرة كل أسبوع وعندما يصل هناك يظل ينتظر ساعات في الريح الباردة. وحسب معرفتي، متوقع منه أن يبجل ويقر بالجميل لكل من يدفع له؛ في أي حق يجب أن يضيع هذا المعاق فترة ما بعد الظهر ويصرف ستة بنسات على أجرة الحافلة. انه مختلف جداً عن أي فرد من أفراد الطبقة

البورجوازية وحتى عن فرد معسر مثلي. فلدي حقوق محددة مرتبطة بطبقتي البورجوازية حتى عندما أكون على حافة المجاعة. لا اكسب أكثر مما يكسبه عامل منجم لكن على الأقل يدفع لي اجري في مصرف بطريقة محترمة ومهذبة وأستطيع سحبه حين اختار ذلك. حتى عندما يكون حسابي نافذ يظل موظفو البنك يعاملونني بتهذيب مقبول.

هذا العمل من الإزعاج التافهة والإذلال في البقاء منتظراً وفي ضرورة عمل كل شيء بما يلاءم الناس متأصل في حياة الطبقة العاملة. ألف مؤثر يكره الرجل العامل على القيام بدور سلبي. هو غير فاعل انه مفعول به. يشعر انه عبد لسلطة خفية ولديه قناعة ثابتة بأنهم لا يسمحون له بفعل هذا أو ذاك أو غيرهما. مرة عندما كنت اعمل في قطاف حشيشة الديناري سألت القاطفين الكادحين الذين يكسبون أقل من ستة بنسات في الساعة، لماذا لا يشكلون نقابة فردوا علي مباشرة أنهم لن يسمحوا لهم بذلك. وعندما سألت ما هو المقصود (بهم) بدا بأن لا احد مهم يعرف، لكن من الواضح أن (هم) كانوا شخص كلي القدرة والسلطة والنفوذ.

يشق الشخص المنحدر من أصل برجوازي حياته بأمل الحصول على ما يريده ضمن الحدود المعقولة. لهذا في أوقات الشدة يميل الناس المتعلمون إلى المجيء إلى الواجهة؛ هم ليسوا موهوبين أكثر من غيرهم كما أن تعليمهم بحد ذاته غير ذي نفع على الإطلاق، لكنهم معتادون عموماً على مقدار معين من الاحترام وبالتالي لديهم الجرأة الضرورية

للقائد. يبدو أن مجيئهم للواجهة مسلم به في كل زمان ومكان. في تاريخ الكومونة لليساغاراي يوجد مقطع ممتع يصف الإعدامات بالرصاص التي وقعت بعد قمع الكومونة. كانت السلطات تعدم زعماء الثورة بالرصاص ولأنهم لم يعرفوا من هم الزعماء فقد كانوا يختارونهم على مبدأ أن أبناء الطبقة الأفضل هم الزعماء. يمشي ضابط بين صف من السجناء وينتقي النماذج المحتملة ظاهرياً. أعدم أحد الرجال لأنه كان يرتدي ساعة يد وآخر لأن له وجه ذكي. لا أريد أن أعدم بالرصاص لأن وجهي يبدو ذكياً. لكني أوافق أنه في كل ثورة تقريباً يميل القادة لأن يكونوا أناساً يستطيعون نطق هاءاتهم.



الفصل الرابع

حين تمشي في البلدات الصناعية تضيع في متاهات من بيوت القرميد الصغيرة التي اسودت بالدخان وتكومت كالدمامل في فوضى عشوائية حول أزقة قذرة وأفنية رمادية صغيرة تغص بحاويات الزبالة النتنة وصفوف من الغسيل الوسخ والمراحيض شبه المهدمة. داخل بيوت متشابه، رغم أن عدد الغرف يتراوح بين الاثنتين والخمسة. كلها فيها نفس غرفة المعيشة الصغيرة التي لا تتعدى مساحتها من عشرة إلى خمسة عشر متر مربع مع مطبخ مفتوح وفي البيوت الأكبر هناك حجرة لغسل الأطباق أيضاً، في البيوت الأصغر الحوض و مرجل غسيل الثياب في غرفة المعيشة. في الخلف فناء البيت أو قسم من الساحة تشترك فيه عدة بيوت، كافي لحاويات القمامة والمراحيض. ليس هناك بيت واحد يتوفر فيه الماء الحار. يمكنك أن تمشي كما أعتقد عبر مئات الأميال في الشوارع التي يسكنها عمال المناجم الذين يعود واحدهم من العمل مغطى بالسواد من رأسه حتى قدميه يومياً دون المرور ببيت فيه حمام.

كان من الممكن ببساطة تمديد شبكة مياه حارة تعمل من المطبخ، لكن البناء وفّر عشر جنيهات من كل بيت بذلك وعند بناء هذه البيوت لم يتخيل أحد بأن العمال سيكونون بحاجة إلى الحمامات.

ويلاحظ أن غالبية هذه البيوت قديمة وعمرها لا يقل عن خمسين أو ستين سنة وعدد كبير منها غير مناسبة للسكن البشري بالمقاييس العادية لكنها مسكونة لعدم توفر غيرها. وهذه هي الحقيقة المركزية للإسكان في المناطق الصناعية: ليس لأن البيوت ضيقة وبشعة وغير صحية وغير مريحة أو أنها منتشرة في أحياء فقيرة قذرة حول ما تقذفه مسابك المعادن والأقنية النتنة وأكوام مخلفات المعادن المنصهرة التي تغمرها بدخان كبريتي - كل هذا حقيقي - بل ببساطة لأنه لا توجد بيوت كافية لكل واحد.

(نقص المساكن) عبارة تداولت بشكل ممتاز منذ الحرب لكنها لا تعني الكثير للشخص الذي يربو دخله على العشرة جنيهات في الأسبوع أو حتى خمسة. حيثما ترتفع الإيجارات لا تكمن الصعوبة في إيجاد البيوت وإنما المستأجرين. امش في شوارع مثل ميفير وسترى لوحات (للإيجار) على نصف النوافذ. لكن في المناطق الصناعية هناك صعوبة في الحصول على بيت واحد من أسوأ تفاقمات الفقر. هذا يعني أن الناس يتأقلمون مع أي شيء - أي حفرة وزاوية في حي قذر والبؤس والبق والأرضيات المتعفنة والجدران المحطمة وابتزاز الملاكين الشحيحين والوكلاء المبتزين — لمجرد الحصول على سقف يظل

رؤوسهم. لقد ذهبت إلى بيوت مفزعة، بيوت لا أعيش فيها أسبوع لو دفع لي مقابل ذلك واكتشفت أن المستأجرين هناك صار لهم عشرين أو ثلاثين سنة وربما يحالفهم الحظ ويموتون هناك. على العموم تعتبر هذه الظروف أمراً مفروغاً منه لكن ليس دائماً. يبدو أن بعض الناس لم يدركوا وجود أشياء كالبيوت اللائقة ونظروا إلى البق والسقوف الراشحة على أنها من أعمال الرب؛ وألقى آخرون اللوم المر على الملاكين؛ لكنهم تشبثوا ببيوتهم كلهم كيلا يحدث الأسوأ. طالما أن نقص المساكن مستمر فإن السلطات المحلية لا تستطيع فعل الكثير لتجعل البيوت الموجودة قابلة أكثر للسكن . يستطيعون إصدار حكم ببيت بأنه غير صالح للاستعمال لكنهم لا يستطيعون إصدار أمر بهدمه حتى يكون لدى المستأجر بيت آخر يذهب إليه؛ لهذا يظل البيت المصادر قائماً وأسوأ البيوت هي التي صدر فيها حكم بأنها غير صالحة للاستعمال لأن المالكون لن ينفقوا عليها أكثر من مساعدة بيت سوف يهدم آجلا أم عاجلاً. في بلدة مثل ويغان مثلاً، يوجد أكثر من ألفي بيت واقفة اعتبرت غير صالحة للاستعمال منذ سنين وقطاعات كاملة بالبلدة تعتبر غير صالحة للاستعمال في الجملة لو كان هناك أي أمل ببناء بيوت جديدة بدلاً منها. بلدات مثل ليدز وشيفيلد فيها عشرات الآلاف من البيوت المتلاصقة من الجانبين والخلف مع بيوت أخرى وكلها من النموذج الذي صدر فيها حكم عدم صلاحيتها للاستعمال لكنها تظل قائمة عقوداً من الزمن. لقد تفحصت بيوت كثيرة في بلدات صناعية مختلفة وقرى ودونت ملاحظات حول النقاط الجوهرية. أعتقد

أنني أستطيع أن أعطي فكرة مثلى لشكل ظروفها بنسخ بضع مقاطع من مدوناتي، المأخوذة بشكل أو بآخر عشوائياً. إنها ملاحظات مختصرة وتحتاج إلى شرح سأقدمه فيما بعد. هذه بعض منها من ويغان:

١ - بيت في حي وولفيت. نموذج خلفي مسدود، واحد علوي وواحد سفلي. غرفة معيشة ١٢قدم في ١٠، غرفة فوق الدرج مماثلة. فجوة تحت الدرج بقياس ٥ في٥ قدم تستخدم لحفظ اللحوم والأطعمة، حجرة غسيل أطباق ومستودع للفحم. نوافذ سوف تفتح. بعد المغسلة (الحمام) ٥٠ ياردة. الإيجار ٩ شلن و٤ بنس، رسوم ٢ شلن و٦ بنس الإجمالي ٧ شلن و٣ بنس.

٢ ــ واحد آخر قريب. نفس المقاسات السابقة، لكن دون فجوة الدرج، مجرد فجوة بعمق قدمين فيها المغطس ـ لا توجد غرفة لحفظ الأطعمة، الخ. الآجار٣ شلن و٢ بنس، رسوم ٢ شلن، إجمالي ٥ شلن و٢ بنس.

٣ ـ بيت في حي شولس. بيت صادر بحقه حكم عدم صلاحية واحد فوق وواحد تحت. غرفة ١٥ في ١٥ قدم. مغطس ومرجل لغسيل الثياب في غرفة المعيشة، مستودع الفحم تحت الدرج. الأرضية غائرة. لا نوافذ تفتح. البيت جاف بشكل لائق. الملاك جيد.الأجرة ٣ شلن و٨ بنس، رسوم ٢شلن و٦ بنس، الإجمالي ٦ شلت و٢ بنس.

٤ ــ بيت آخر قريب. اثنان فوق اثنان في الأسفل ومستودع فحم.

الجـدران منهـارة تمامـاً. المـاء يـدخل في داخـل الغـرف العلويـة بكميـات. الأرض مائلـة. أبواب الطوابق السـفلية لا تفـتح. المـلاك سيء. الأجرة ٦ شلن رسوم ٣ شلن، إجمالي ٩ شلن و٦ بنس.

٥ ـ بيت في شارع غرينـاو. واحـد علوي، اثنـان سـفليان. غرفـة معيشـة ١٣ في ٨ قدم. الجدران منفصلة والماء يدلف إلى الـداخل. النوافـذ الخلفيـة لا تفـتح. عشـرة في عائلـة مـع ثمانيـة أطفـال متقـاربين في العمر. الشـركات تحاول إخلاءهـم بسـبب الاكتظـاظ لكنهـا لم تستطع إيجاد بيت ترسلهم إليه. ملاك سيء. إيجار ٤ شلن، رسوم ٢ شلن، إجمالي ٦ شلن.

هناك الكثير عن ويغان. عندي صفحات أكثـر مـن نفـس النمـوذج. هـذه واحـدة مـن شـيفيلد ـــ عينـة نموذجيـة عـن عشـرات آلاف البيـوت الخلفية:

بيت في شـارع تومـاس. خلفـي، اثنـان في الأعلـى وواحـد في الأسـفل (بيت من ثلاث طوابق وكـل طـابق فيـه غرفـة). قبـو في الأسـفل. غرفـة معيشـة ١٤ في ١٠ قـدم، والغـرف العلويـة تشـبهها. مغطـس في غرفـة المعيشة. الطابق العلوي بلا باب لكنه يطل علـى درج مفتـوح، الجـدران في غرفة المعيشة رطبة، جدران غرف الطوابق العلويـة متداعيـة وترشـح منها الرطوبة. البيت مظلم جداً لذلك تظل الأضواء مشتعلة طول اليـوم. تقدر الكهرباء ب٦ شلن باليوم (ربما مبالغة). ستة في العائلة، الوالـدان وأربعة أولاد. الزوج مريض بالسل وعلـى المعـاش التقاعـدي. احد الأولاد

في المستشفى، يبدو الآخرون أصحاء. مستأجرين منذ سبع سنين في هذا البيت. سينتقلون لكن لا يتوفر بيت آخر. الإيجار ٦ شلن و٦ بنس بما فيها الرسوم.

هذه واحدة أو اثنتان من بارنسلي:

١ ـ بيت في شارع ورتلي. اثنان في الأعلى وواحد في الأسفل. غرفة معيشة ١٢ في ١٠ قدم. المغطس ومرجل غسيل الثياب في غرفة المعيشة، مستودع الفحم تحت الدرج. المغطس بال مسطح تقريباً ويطفح دائماً. الجدران ليست متينة. ماكينة مصباح غازي تعمل بإدخال النقود فيها. البيت مظلم جداً ويقدر ضوء الغاز ب٤ بنس في اليوم. غرف الطابق العلوي في الحقيقة غرفة كبيرة مقسومة إلى اثنتين.الجدران سيئة جداً ـ جدار غرفة خلفية مشقوقة تماماً. إطارات النوافذ مكسرة ويجب حشوها بالخشب. المطر يتسرب من عدة أماكن. المجرور يجري من تحت البيت ويصدر رائحة كريهة في الصيف لكن الشركة تقول أنها لا تستطيع إصلاحه الآن. ستة أشخاص في البيت، بالغان وأربعة أطفال كبيرهم في الخامسة عشر. أصغرهم متردد دائم للمستشفى ـ يشك بالسل. البيت مبلي بالبق. الإيجار ٥ شلن و٣ بنس مع الرسوم.

٢ ـ بيت في شارع بيل. خلفي، اثنان علويان واثنان سفليان وقبو واسع. علية غرفة معيشة مربعة واسعة مع مرجل غسيل الثياب ومغطس. غرفة الطابق السفلي نفس الحجم، ربما مراد منها ردهة استقبال

لكنها استخدمت كغرفة نوم. غرف الطابق العلوي نفس حجم غرف الطابق السفلي. غرفة المعيشة مظلمة جدا. يقدر قيمة ضوء الغاز ب٤ ونصف بنس في اليوم. البعد عن المرحاض ٧٠ ياردة. أربعة أسرة في بيت لثمانية ـ والدان كبيرا السن وفتاتان بالغتان (الكبيرة ٢٧ عاما) وشاب واحد وثلاثة أولاد. للوالدين سرير واحد وسرير للولد الأكبر ويبقى خمسة أشخاص يتقاسمون السريرين الباقيين. البق سيء جداً ـ لا يمكنك السيطرة عليه حين يكون الجو حاراً. قذارة لا توصف في غرفة الطابق السفلي ورائحة لا تطاق في الطابق العلوي. الإيجار ٥ شلن و٧ ونصف بنس مع الرسوم.

٣ ـ بيت في مابلويل (قرية مناجم صغيرة قرب بارنسلي). اثنان في الأعلى وواحد في الأسفل. غرفة معيشة ١٤ في ١٣ قدم. مغطس في غرفة المعيشة. الجص مكسر ويتقشر عن الحائط. لا رفوف في الفرن. الغاز يتسرب بشكل خفيف.غرف الطابق العلوي ١٠ في ٨ قدم. أربعة أسرة لستة أشخاص كلهم كبار لكن أحدها غير مستخدم، يفترض بسبب نقص البطانيات والشراشف. الغرفة الأقرب للدرج ليس لها باب وليس للدرج درابزين لهذا حين تخرج من السرير تتدلى قدمك في الخلاء وربما تسقط من ارتفاع عشرة أقدام على الحجارة. الجفاف ليس سيئا جداً إذ يمكنك أن ترى من الأرضية إلى داخل الغرفة الطابق السفلي. البق (سيطر عليه برشه بمبيد الأغنام). الطريق الترابي المار من هذه الأكواخ مثل كوم وحل قيل أنه يتعذر عبوره في الشتاء. مراحيض حجرية بطرف

الحدائق في حالة شبه مدمرة. المستأجرين صار لهم اثنين وعشرين سنة في هذا البيت. تأخر ديون الإيجار المتأخرة ١١ جنيه وكانوا يدفعون شلن إضافي كل أسبوع ليسددوا ذلك. الملاك يرفض هذا الآن وحصل على أمر إخلاء. إيجار ٥ شلن مع الرسوم. وهكذا

يمكنني مضاعفة الأمثلة ليس بالعشرات فقط بل بالمئات الألوف لو اختار المرء فحص كل بيت في المناطق الصناعية كلها . والآن تحتاج بعض العبارات التي استخدمتها إلى الشرح. (واحد في الأعلى وواحد في الأسفل) تعني غرفة واحدة في كل طابق - يعني بيت من غرفتين. بيوت (خلفية) بيتان مبنيان في بيت واحد ، كل جانب من البيت هو الباب الأمامي لشخص آخر ، لذلك إن مشيت في صف مؤلف ظاهرياً من اثنا عشر بيتاً فأنت في الحقيقة لا ترى اثنا عشر بيتاً بل أربع وعشرين. البيوت الأمامية تطل على الشارع والخلفية على الساحة ويوجد مخرج واحد فقط لكل بيت. أثر هذا واضح. المراحيض الموجودة في الساحة الخلفية لذلك إن كنت تسكن على الجانب المواجه للشارع يلزمك كي تذهب إلى المراحيض أو سلال النفايات أن تخرج من الباب الأمامي وتدور حول كتلة البناء ـ مسافة قد تساوي مائتا ياردة؛ وإن كنت تسكن في البيوت الخلفية المنظر الذي تشرف عليه صف من المراحيض. توجد أيضاً بيوت تسمى (خلفية مظلمة) وهي بيوت منفردة ، لكن البناء حذف منها الباب الخلفي - بسبب الحقد الأعمى على ما يبدو. النوافذ التي تمنع من الفتح هي الغرابة التي تميز بلدات استخراج المعادن

القديمة. بعض هذه البلدات قوضتها حفريات المناجم القديمة لذلك الأرض تخسف باستمرار والبيوت التي فوقها تنزلق مائلة من الجوانب. في ويغان تمر في صفوف كاملة من البيوت التي انزلقت بزوايا مروعة، انحرفت نوافذها من عشرة إلى عشرين درجة عن الخط الأفقي. أحياناً الجدار الأمامي منتفخ للخارج حتى ويبدو كما لو أن البيت حامل في شهره السابع. يمكن ترميمه، لكن الطلاء الجديد يعود للانتفاخ ثانية. عندما يغور البيت تتسد كل نوافذه فجأة والى الأبد ويحتاج الباب إلى إعادة إصلاح. هذا لا يثير الدهشة محلياً. قصة عامل المنجم الذي عاد إلى البيت ووجد بأنه لا يستطيع الولوج إلى الداخل إلا بتحطيم الباب الأمامي بفأس تعتبر فكاهة ظريفة. في بعض الحالات لاحظت وجود الملاك (الجيد والسيئ)، وهناك اختلاف كبير فيما يقوله ساكني الأحياء الفقيرة القذرة عن ملاكي بيوتهم ووجدت ـ كما يجب أن يتوقع المرء ـ أن الملاكين الصغار هم الأسوأ عادة. وهذا يتناقض مع الميل الفطري، لكن يمكن أن يرى المرء السبب. مثاليا، أسوأ أنواع ملاكي بيوت الأحياء الفقيرة القذرة هم من النوع السمين الشرير، يفضل لو كان مطرانا، الذي يسحب دخلاً ضخماً من الإيجارات الباهظة لكن فعليا، هي امرأة عجوز وظفت مدخرات حياتها في ثلاث بيوت، تسكن أحدها وتحاول أن تعيش من إيجار البيتين الآخرين ـ وبالتالي لن يكون لديها أبداً أي مال تنفقه على إصلاحات البيت.

لكن ملاحظات كهذه هي مجرد رسائل تذكير لي فقط. عندما

اقرأها تعيد لي ما رأيته لكن لا تستطيع بحد ذاتها إعطاء فكرة كبيرة عن حالة تلك الأحياء القذرة الشمالية المخيفة. الكلمات والعبارات واهنة جداً عن وصف ذلك. ما فائدة عبارة مثل (السقف يرشح) أو (أربع أسرة لثمانية أشخاص)؟ انه المهم هو ما تراه عيناك اللتان لا تسجلان شيئا لكن وفرة البؤس الذي تغطيانه تثير الدهشة ! خذ مسألة الاكتظاظ مثلاً. من المألوف تماماً أن يعيش ثمانية أو عشرة أشخاص في بيت مؤلف من ثلاثة غرف. إحدى تلك الغرف للمعيشة وقد تكون قياساتها حوالي اثنا عشر قدم مربع وتحتوي على موقد المطبخ والمغطس وطاولة وبعض الكراسي وخزانة، ليس فيها متسع لسرير. لهذا يكون هناك ثمان أو عشر أشخاص يعيشون في غرفتي نوم صغيرتين وأربعة أسرة. وتكون المشكلة أسوأ إن كان قسم منهم أشخاصاً بالغين وعليهم الذهاب للعمل. أتذكر في بيت واحد، ثلاث فتيات بالغات يتقاسمن نفس السرير ويذهبن إلى العمل في ساعات مختلفة، كل واحدة منهن تزعج الأخريات عندما تذهب أو تعود؛ في بيت آخر عامل المنجم الشاب يعمل في نوبة ليلية وينام في النهار في سرير ضيق ينام فيه عضو آخر من العائلة في الليل. تزاد الصعوبة عندما يكون في العائلة أفراد راشدين، في تلك الحالة لا تستطيع ترك المراهقون الشباب ينامون مع الفتيات في نفس السرير. في إحدى العائلات التي زرتها هناك أب وأم وابنيهما وابنتهما التي في حوالي السابعة عشر وليس هناك سوى سريرين لهم كلهم. ينام الأب مع الابن والأم مع البنت؛ كان ذلك التدبير الوحيد لإبعاد خطر السفاح. ثم تأتي تعاسة السقوف الراشحة والجدران الناضحة التي تحول بعض الغرف في

الشتاء إلى أماكن غير قابلة للسكن. ثم يأتي البق. ما إن يدخل البق في بيت حتى يظل فيه إلى يوم القيامة لا توجد طريقة مؤكدة لإبادته. بعد ذلك النوافذ التي لا تتفتح. لا ضرورة لأن أشير إلى ما يعنيه ذلك، في الصيف وفي غرف معيشة ضيقة بالغة الصغر حيث يظل موقد الطبخ مشتعلا دائماً تقريباً. وهناك أيضاً الآلام المصاحبة للبيوت الخلفية المتلاصقة كمشي خمسين ياردة لتصل إلى المرحاض أو سلة القمامة ليس حافزاً صحيحاً للنظافة. في البيوت الأمامية ـ في كل الشوارع الفرعية حيث لا تتدخل الشركة ـ تعودت النساء على رمي نفايتهن من الباب الأمامي لذلك تتكوم فضلات أوراق الشاي وكسر الخبز في البالوعة. ويستحق الاهتمام كيف يكبر طفل في إحدى البيوت الخلفية حيث يقتصر نظره على صف من المراحيض وجدار.

المرأة في مثل هذه الأماكن هي الكادح الوحيد المسكين الذي يتخبط بين عدد لا ينتهي من الأعمال. يمكنها أن تحافظ على شجاعتها وعزمها لكنها لا تستطيع المحافظة على معايير النظافة والترتيب. هناك دائماً ما يجب عليها إنجازه، ليس هناك أي وسيلة للراحة ولا متسع للتغير والنجاح. لا يمر وقت طويل على تنظيف وجه احد الأطفال حتى يتسخ وجه الآخر وقبل أن تغسل الأطباق من وجبة حتى يحين طبخ الوجبة الأخرى. وجدت اختلاف كبير في البيوت التي زرتها. بعضها كانت محترمة بقدر ما تتوقعه في هذه الظروف وبعضها الآخر كانت مرعبة جداً لدرجة ليس لدي أمل في وصفها بالشكل الكافي. لنبدأ

بالرائحة ذلك الشيء المهيمن والجوهري التي تفوق الوصف. أما القذارة والفوضى فحدث ولا حرج! حوض استحمام مليء بماء قذر هنا، طست مملوء بالأطباق غير المغسولة هناك، أطباق أخرى مكومة في أي ركن غريب وجرائد ممزقة مرمية في كل مكان وفي الوسط دائماً نفس الطاولة المفزعة المغطاة بقماش زيتي تتكوم فوقها قدور الطبخ والكوي والجوارب شبه البالية وكسر الخبز القديم وقطع الجبن الصغيرة الملفوفة بجريدة ملوثة! والاكتظاظ في غرفة صغيرة جداً حيث الوصول من طرف إلى آخر رحلة معقدة وسط قطاع الأثاث مع حبل من الغسيل الرطب يضرب بوجهك كل مرة تتحرك فيها والأولاد مثل فطر سام ثخين تحت القدم! وهناك مناظر بارزة في ذاكرتي. غرفة معيشة جرداء في كوخ في قرية تعدين صغيرة، حيث العائلة كلها عاطلة عن العمل ويعاني الجميع من قلة التغذية؛ والعائلات الكبيرة التي ينبطح أبناءها البالغين وبناتها بلا هدف، والغريب أنهم يتشابهون كلهم بالشعر الأحمر والأجساد الممتازة والوجوه الواهنة التي هدّها سوء التغذية والكسل، واحد الأبناء الطوال جالس بقرب الموقد، كسول جداً لدرجة لا يلاحظ دخول غريب، ويقشر ببطء جراب لزج عن قدمه الحافية. غرفة مفزعة في ويغان كل أثاثها الممزق مصنوع من صناديق التعبئة و البراميل المحطمة وعجوز اسود عنقها وشعرها يتدلى كالوتد تشجب مالكة البيت بلهجة لانكشاير؛ وأمها التي تجاوزت التسعين تجلس في ركن ناء على برميل خشبي تستخدمه كدرج وتنظر إلينا بوجه اصفر قميء خال من أي تعبير. يمكنني أن أملأ صفحات

بذكريات من أسرار البيوت الداخلية المشابهة.

طبعاً قذارة بيوت هؤلاء الناس تنتج عن أخطاءهم أحياناً. حتى لو سكنت في بيت خلفي ملتصق ولديك أربعة أولاد وإجمالي دخلك اثنان وثلاثون بنس أسبوعياً من معاش تقاعدي فلا ضرر أن توجد النونيات غير المفرغة في غرفة معيشتك. لكن من المؤكد على حد السواء أن ظروفهم لا تشجع احترام الذات. قد يكون العامل الحاسم هو عدد الأولاد. أفضل الأمور الداخلية التي رأيتها كانت البيوت التي لا أولاد فيها أو البيوت التي فيها ولد أو اثنين؛ في البيوت التي فيها ستة أولاد من المستحيل الحفاظ على أي شيء محترم. شيء واحد بارز هو أن أسوأ القاذورات لم تكن في الأدوار السفلية أبداً يمكنك زيارة عدد كاف من البيوت حتى وسط أفقر الناس العاطلين عن العمل لتبعد أي انطباع مغالط. هؤلاء الناس، لو فكرت، لا يمكن أن يكونوا في حالة عوز كبيرة إن ظلت لديهم كمية مقبولة من الأثاث وأواني الطبخ. لكن في الغرف العلوية تكشف كآبة الفقر عن نفسها. لا أعرف إن كان السبب هو الكبرياء الذي يجعل الناس يتعلقون بأثاث غرف معيشتهم للنهاية أو لأن فرش الأسرة قابل للرهن أكثر، لكن كثيراً من غرف النوم التي رأيتها كانت أماكن مفزعة. يجب أن أقول بأن الناس الذين ظلوا عاطلين عن العمل سنوات كثيرة متواصلة كانوا استثناءاً ولديهم ما يشبه مجموعة كاملة من فرش السرير. لكن على الأغلب لا يوجد شيء يمكن وصفه بفرش سرير إطلاقاً ـ مجرد معاطف قديمة وأسمال

متنوعة على هياكل أسرة معدنية صدئة. بهذه الطريقة يتفاقم الاكتظاظ. إحدى العائلات التي عرفتها مكونة من أربعة أفراد، أب وأم وولدين، يملكون سريرين لكنهم لا يستطيعون استخدام سوى واحد لأنه لا يوجد لديهم لوازم فرش كافية للسرير الآخر.

كل من يريد أن يرى آثار نقص المساكن في أسوأ حالاته يجب أن يزور البيوت المتنقلة المرعبة التي توجد بأعداد كبيرة في البلدات الشمالية. منذ الحرب وفي حالة الاستحالة التامة في الحصول على البيوت، تدفق قسم من السكان إلى أحياء يفترض أنها مؤقتة مكونة من عربات ثابتة. ويغان مثلاً بسكانها البالغين ٨٥،٠٠٠ فيها حوالي ٢٠٠ بيت متنقل وكل واحد منها تسكنه عائلة ويبلغ عدد الأشخاص حوالي ١٠٠٠. يصعب اكتشاف عدد تلك المستعمرات من البيوت المتنقلة في المناطق الصناعية بشكل دقيق كما أن السلطات المحلية متكتمة حولها والتقرير الإحصائي لعام١٩٣١ قرر تجاهلها. ولكن بقدر ما استطعت اكتشافه من خلال الاستعلام فهي موجودة في أغلب البلدات في لانكشاير ويوركشاير وربما في الشمال الأقصى أيضاً. وعلى الأرجح توجد في شمال انكلترا آلاف وربما مئات آلاف من العائلات (وليس الأفراد) الذين ليس لهم بيوت سوى بيوت القوافل الثابتة.

لكن كلمة بيت متنقل مضللة جداً. فهي تستدعي صورة المخيم الغجري الدافئ والمريح (في طقس جميل طبعاً) مع فرقعة نار المخيم والأولاد يقطفون العليق وثياب الغسيل الملونة التي ترفرف على الحبال.

البيوت المتنقلة التي في ويغان ليست كتلك. لقد ألقيت نظرة على كثير منها، تفحصت بيوت ويغان باهتمام كبير، ولم أر قط نفاية تقارن بها باستثناء الشرق الأقصى. صدقاً عندما رأيتها ذكرتني مباشرة بأوجار الكلاب القذرة التي يعيش فيها الحمالين الهنود في بورما. لكن في الواقع لا شيء في الشرق يمكن أن يكون بمثل هذا السوء لأن الشرق ليس فيه رطوبة بلادنا ولا البرد الثاقب الذي يجب أن تستعد لمواجهته كما أن الشمس معقمة.

على طول ضفاف قناة ويغان القذرة هناك بقع من الأرض البور تكدست فيها البيوت المتنقلة مثل النفاية المرمية من السلة. بعضها فعلاً بيوت غجرية متنقلة لكنها قديمة جداً وصيانتها سيئة. أغلبها من حافلات السطح الواحد (الحافلات الأصغر منذ عشر سنوات) التي خلعت عجلاتها ودعمت بدعامات خشبية. بعضها عربات بسيطة مع ألواح نصف دائرية في أعلاها بسطت فوقها خيمة، لذلك لا يفصل الناس الذين في الداخل عن الجو الخارجي سوى قماش الخيمة. سعة الداخل عادة خمسة أقدام للعرض وستة للارتفاع ومن ستة إلى خمسة عشر للطول (أنا لا استطيع الوقوف منتصباً بأي منها). يقطن في بعضها شخص واحد فقط كما أعتقد، لكني لم أر واحداً يضم أقل من شخصين وبعضها يضم عائلات كبيرة العدد. واحد منها مثلاً، طوله أربعة عشر قدم يسكن فيه سبعة أشخاص في حوالي ٤٥٠ قدم مكعب مما يعني أن كل واحد منهم له متسع أصغر من حجرة المراحيض

العمومية. قذارة وأوساخ هذه الأماكن لا يمكن تخيلها حتى تراها بعيونك وبالأخص بأنفك. كل واحد منها يحوي كوخ مطبخ صغير جداً وأثاث محشو فيه - أحياناً سريرين وعادةً واحد تضطر العائلة للتكوم فيه بقدر استطاعتها. من المستحيل النوم على الأرضية لأن الرطوبة تنز من الأسفل. رأيت فرشاً لا زالت تعصر من الرطوبة حتى الساعة الحادية عشر صباحاً. وفي الأيام الباردة يجب أن يظل ضوء المطبخ مشتعلاً طيلة فترة الليل والنهار والنوافذ، لا حاجة للقول، بأنه لا تفتح أبداً. يتم الحصول على الماء من حنفية مشتركة لكل المستعمرة بعض السكان يجب أن يمشوا ١٥٠ أو ٢٠٠ ياردة لكل دلو من الماء. لا توجد أية تدابير صحية أبداً. أغلب الناس يبنون كوخاً صغيراً ليقوم بوظيفة مرحاض على بقعة صغيرة من الأرض المحيطة ببيتهم المتنقل، ويحفرون حفرة عميقة لطمر فضلاتهم مرة في الأسبوع. كل الناس الذين رأيتهم في تلك الأماكن قذرين بشكل لا يوصف وخصوصاً الأولاد ولا أشك بأنهم كانوا مصابين بالقمل أيضاً. لا يمكن أن يكونوا غير ذلك. الفكرة التي استولت على تفكيري وأنا أتنقل من بيت إلى آخر، ماذا يحدث في داخل تلك البيوت المكتظة عندما يموت أحد ما؟ لكن يظل طرح مثل ذلك السؤال نادراً.

بعض الناس أمضوا سنوات كثيرة في البيوت المتنقلة. نظرياً الشركة تتخلص من مستعمرات البيوت المتنقلة وتخرج سكانها إلى بيوت عادية لكن البيوت لم تبنى بعد وبقيت البيوت المتنقلة موجودة.

أكثـر النـاس الـذين تحـدثت إلـيهم يأسـوا مـن فكـرة الحصـول علـى مسكن محترم ثانية. كلهم كانوا بلا عمل وبدت الوظيفة والبيت لهم قضية مستحيلة. بعضهم بدا غير مهتم وبعضهم الأخر أدرك بوضوح تام البؤس الذي يعيشون فيه. توقفت بجانبي امرأة بوجه مرهق كجمجمة وعليها نظرة تعاسة وإذلال مفرط. استنتجت بأنها تصارع في تلك الزريبة المفزعة لتحفظ نتاجها الكبير من الأولاد نظيفاً، شعرت كما يجب أن أشعر، كما لو أنني طليت كلي بالروث. يجب أن يتذكر المرء بأن هؤلاء الناس ليسوا غجراً؛ إنهم أشخاص بريطانيون محترمون وكان لديهم كلهم (ما عدا الأولاد المولودين هنا) بيوت خاصة بهم في عصرهم؛ بالإضافة، إن بيوتهم المتنقلة ليست بمستوى بيوت الغجر كما أنهم لا يملكون ميزة القدرة على التنقل. لاشك بأنهم لا يزالون من الطبقة الوسطى الذين يعتقدون بأن أعضاء مجلس العموم (السلطة التشريعية) لم ينتبهوا إلى هذا النوع ولو حدث أن مرَّ أحدهم بمستعمرة من البيوت المتنقلة وهو في القطار فإنه يفترض فوراً أن هؤلاء الناس الذين يعيشون هناك بناءً على اختيارهم. أنا لن أجادل هذا النوع من الناس في الوقت الحاضر. لكن من الجدير بالملاحظة أن قاطني البيوت المتنقلة لا يوفرون نقوداً حتى بالعيش هناك، فهم يدفعون تقريباً نفس الإيجارات التي تدفع لقاء البيوت العادية. لم أسمع بأي إيجار يقل عن خمس شلنات في الأسبوع (خمس شلنات من أجل ٢٠٠ قدم مكعب من الفراغ!) وهناك حالات أيضاً يرتفع فيها الإيجار ليصل إلى عشر شلنات. هناك من يربح كثيراً من تلك البيوت المتنقلة! لكن استمرار وجودها

يعود إلى نقص المساكن وليس بسبب الفقر مباشرة.

كنت أتحدث مع أحد عمال المناجم مرة وسألته. متى أصبحت مشكلة نقص المسكن حادة في منطقته؛ أجاب، (عندما أخبرونا هم بذلك)، مما يعني أنه حتى وقت قريب كانت مقاييس الناس هابطة جداً لدرجة أنهم سلموا بأي درجة من الاكتظاظ. وأضاف أنه عندما كان طفلاً كانت عائلته المكونة من إحدى عشر فرداً تنام في غرفة واحدة ولم يهتموا بهذا وعندما كبر فيما بعد، عاش هو وزوجته في بيت من طراز البيوت الخلفية المتلاصقة القديم التي لا تمشي مأتي ياردة إلى المرحاض فقط بل تنتظر في رتل أيضاً بعد أن تصل هناك، يشترك في المرحاض ستة وثلاثون شخصاً. وحين مرضت زوجته بمرض قتلها، ظلت تقطع رحلة المأتي ياردة إلى المرحاض. وقال، هذا الشيء البغيض الذي يظل الناس يتحملونه دون تذمر (حتى يخبرونهم به).

لا أعرف إن كان هذا صحيحاً لكن ما هو مؤكد أنه لا أحد الآن يعتقد بأن نوم إحدى عشر شخصاً في غرفة واحدة يحتمل وحتى أن الناس ذوي الدخول المريحة يزعجهم مجرد التفكير بالأحياء الفقيرة القذرة. لهذا السبب كان اللغو عن إعادة الإسكان وتصفية الأحياء الفقيرة الذي نسمعه على فواصل منذ الحرب. المطارنة والسياسيون والإنسانيون لا يمتعهم الحديث بصدق عن تصفية الأحياء الفقيرة القذرة لأنهم بهذا يحولون الانتباه عن شرور أكثر خطورة ويزعمون بأنه لو محيت تلك الأحياء لزال الفقر. لكن كل هذا

الحديث لم يؤدي إلا لنتيجة صغيرة بشكل مدهش. وبقدر ما يمكن للمرء اكتشافه، إن الاكتظاظ ليس أفضل مما كان عليه منذ عشر سنوات مضت، بل قد يكون أسوأ بقليل. هناك بالتأكيد تنوع كبير في السرعة التي تعمل بها البلدات لمجابهة مشاكلها السكنية. في بعض البلدات يبدو التعمير متوقفاً تقريباً وفي بلدات أخرى يسير بسرعة وطرد الملاكين الخاصين من المشروع. في ليفربول مثلاً، أعيد بناء قسم كبير منها بجهود الشركات بشكل رئيسي. شيفيلد أيضاً هدمت وأعيد بناءها بسرعة كبيرة رغم أن الاهتمام بشناعة أحيائها الفقيرة التي لا تضاهى لم يكن بالسرعة الكافية.[1]

أنا لا أعرف لماذا تتحرك إعادة الإسكان ببطء شديد إجمالا ولماذا بعض البلدات تستطيع اقتراض النقود لأغراض التعمير بسهولة أكبر من بلدات أخرى. تلك الأسئلة يجب أن يجيب عليها شخص أعرف مني بآلية الحكومة المحلية. بيت الشركة يكلف عادة بين ثلاث مئة أو أربع مئة جنيه؛ يكلف أقل عندما يبنيه العامل مباشرة من أن يبنى بواسطة العقد. يتراوح معدل إيجار هذه البيوت فوق العشرين جنيه في السنة دون حساب الرسوم، مما يجعلنا نفكر، حتى لو قبلنا بنفقات إضافية وفوائد القروض، بأن ذلك الربح سيدفع أي شركة

(١) عدد شركات البيوت التي تبني في شيفيلد في بداية عام ١٩٣٦ كانت ١٣٩٨. يحتاج استبدال مناطق أحياء الفقراء في شيفيلد بشكل كامل إلى ١٠٠,٠٠٠ بيت، كما قيل.

لبناء بيوت كثيرة بعدد المستأجرين. في حالات كثيرة، يتم إسكان من هم على المعاش التقاعدي لذلك تخرج السلطات المحلية النقود من جيبها الأول لتدسها في جيبها الآخر أي تدفع النقود على شكل إعانة وتسترجعها بشكل إيجار. لكن هم مجبرون على دفع الإعانة بأي حال، وفي الوقت الحاضر الحصة التي تدفع يبلعه المالكون الخاصون. إن الأسباب المقدمة عن بطء معدل البناء هي نقص المال وصعوبة الحصول على مواقع ـ لأن بيوت الشركة لا تنصب على قطع مختلفة من الأراضي وبالتدريج وإنما في عقارات كاملة. وليس هناك ما يدهشني أكثر من اهتمام الكثير من البلدات الشمالية بتشييد أبنية حكومية فخمة لها بنفس الوقت الذي تكون فيه بأمس الحاجة إلى البيوت السكنية. بلدة بارنسلي مثلاً، صرفت مؤخراً ١٥٠,٠٠٠جنيه على قصر البلدية رغم الاعتراف بحاجتهم إلى ٢٠٠٠ بيت جديد من بيوت الطبقة العاملة، دون الحاجة إلى ذكر الحمامات العامة. (الحمامات العامة في بارنسلي تحتوي على تسعة عشر حمام رجالي ـ يسكن هذه البلدة ٧٠,٠٠٠ شخص، أغلبهم عمال مناجم، ولا أحد منهم لديه حمام في بيته!) ويمكن لـ ١٥٠,٠٠٠ جنيه أن تبني ٣٥٠ بيتاً من بيوت الشركة ويبقى منها ١٠,٠٠٠ جنيه لصرفها على دار البلدية. أنا لا أدعي بفهم ألغاز الحكومة المحلية. أنا أسجل الوقائع فقط بأن تلك البيوت التي لها حاجة ماسة، تبنى ببطء مشلول إجمالاً.

لا تزال البيوت تعمر، والشركة تبني العقارات، صفاً تلو الأخر

من بيوت صغيرة من القرميد الأحمر، كلها تتشابه أكثر من حبتي البازلاء (من جاء بهذا التعبير؟ للبازلاء شخصية كبيرة) وهذه ميزة مألوفة لكل ضواحي البلدات الصناعية. أما بالنسبة لحالها ومقارنتها ببيوت الأحياء الفقيرة، فيمكنني إعطاء أفضل فكرة بنسخ مقتطفين آخرين من مذكرتي. آراء المستأجرين ببيوتهم مهم جداً، لهذا سأقدم مقتطف واحد عن الاستحسان وآخر عن عدم الاستحسان. كلاهما من ويغان وكلاهما من النموذج الأرخص (بلا ردهة استقبال):

١ ـ بيت في عقار بيتش هيل

الطابق الأرضي. غرفة معيشة واسعة مع موقد مطبخ، خزن ثياب وخزانة أطباق ثابتة وأرضية مركبة. رواق صغير، مطبخ واسع قليلاً. فرن طبخ كهربائي مستأجر من الشركة بنفس سعر فرن الغاز.

في الطابق العلوي غرفتي نوم أوسع قليلاً، واحدة أصغر من الأخرى ـ مناسبة كمقصورة أو غرفة نوم مؤقتة. حمام، مرحاض، مع ماء بارد وحار.

حديقة صغيرة. تتنوع في العقار كله، لكنها أصغر من الحصة التي توزعها الحكومة.

أربعة في العائلة، الوالدان وولديهما. الزوج في وظيفة جيدة. البيوت مبنية جيداً ومنظرها مقبول. قيود متنوعة مثلاً، ممنوع تربية الدجاج أو الحمام، إيواء النزلاء، التأجير الفرعي أو البدء بأي مشروع دون أخذ

إذن الشركة. (هذا مقبول بسهولة في حالة إيواء النزلاء، لكن ليس كذلك في أي من الحالات الأخرى). المستأجر راض جداً ببيته وفخور به. البيوت في هذا العقار مصانة جيداً. الشركة جيدة في الإصلاحات، لكن إبقاء المستأجرين إلى المستوى فيما يخص المحافظة على أناقة المكان، الخ.

الإيجار ١١ شلن و٣ بنس. أجرة الحافلة إلى البلدة ٢ بنس.

٢ ـ بيت في عقار ويلي

الطابق الأرضي. غرفة معيشة ١٤ قدم في عشرة، مطبخ أصغر من ذلك بكثير، مكان صغير جداً لحفظ الأطعمة تحت الدرج، حمام صغير لكنه مناسب. فرن غاز، إنارة كهربائية. مرحاض خارجي.

الطابق العلوي. غرفة نوم واحدة ١٢ في عشرة قدم مع موقد صغير، غرفة أخرى بنفس الحجم بدون موقد، غرفة أخرى ٧ في ٦ قدم. غرفة النوم الأفضل فيها حجرة ملابس صغيرة داخل الجدار. حديقة ٢٠ في ١٠ ياردة.

ستة عدد أفراد العائلة، الوالدان وأربعة أولاد، الابن الأكبر تسعة عشر عاما. المستأجرون مستاءون جداً. شكاويهم: البيت بارد، فيه تيار هوائي ورطب. الموقد في غرفة المعيشة لا يصدر أي حرارة ويجعل الغرفة مغبرة ـ لأنها منخفضة جداً. الموقد في غرفة النوم الجيدة صغير جداً

لذلك بلا فائدة. الجدران في الطابق العلوي مصدعة. نظراً لعدم فائدة غرفة النوم الصغيرة، خمسة ينامون في غرفة نوم واحدة، وواحد في الأخرى (الابن الأكبر).

الحدائق في هذا العقار مهملة.

الإيجار ١٠ شلن و٣ بنس، شامل. البعد عن البلدة أكثر من ميل بقليل - لا توجد حافلة هنا.

يمكنني إعطاء الكثير من الأمثلة، لكن هذين الاثنين كافيين، لأن نماذج بيوت الشركة لا تختلف كثيراً من مكان إلى آخر. شيئان واضحان على الفور. الأول أن بيوت الشركة في أسوأ أحوالها أفضل من أحياء الفقراء التي حلت محلها. مجرد ملكية حمام وحديقة صغيرة سوف تغطي على أي سلبية أخرى. الثاني أن العيش فيها مكلف أكثر بكثير. من المعتاد تماماً أن يترك الإنسان بيتاً صادر بحقه حكم عدم صلاحيته للسكن حيث يدفع ستة شلنات والانتقال إلى بيت للشركة حيث عليه أن يدفع عشر شلنات. هذا يضر من هم في العمل أو الذين بدؤوا في العمل حديثاً، لأن المرء حين يكون على الراتب التقاعدي يقدر إيجاره بربع إعانته التي تعطيها له الحكومة وإن كانت أعلى من هذا يعطى علاوة إضافية؛ على أي حال هناك أنواع محددة من بيوت الشركة التي لا يقبل فيها من يعيش على الإعانة الحكومية. لكن توجد وسائل أخرى تكون فيه الحياة في ممتلكات الشركة مكلفة جداً، إن كنت على رأس عملك أم لم تكن. أولاً المحلات في

ممتلكات الشركة أغلى بكثير وليست كثيرة بسبب الإيجارات المرتفعة. لكن في البيت المنفصل الواسع نسبياً والبعيد عن الازدحام الكريه للأحياء الفقيرة يكون أبرد بكثير ويحتاج إلى حرق مزيد من الوقود، خصوصاً بالنسبة لرجل يعمل، والذهاب والإياب من وإلى البلدة. والسبب الأخير من أكثر مشاكل إعادة الإسكان وضوحاً. تصفية الأحياء الفقيرة يعني توسع السكان وامتداده. عندما تعيد البناء على نطاق واسع فإن ما تقوم به يؤثر إفراغ مركز البلدة وإعادة توزيعهم في الضواحي. هذا حسن في طريقة ما، فأنت أخرجت الناس من أزقة نتنة إلى مكان يمكنهم التنفس فيه؛ لكن من وجهة نظر الناس هم، ما فعلته هو أنك اقتلعتهم ورميتهم على بعد خمسة أميال عن مكان عملهم. لذلك أبسط الحلول هي الشقق. إن كان الناس سيعيشون في بلدات كبيرة يجب أن يتعلموا العيش فوق بعضهم البعض. لكن العمال في الشمال لا يحبون الشقق؛ ودائماً يسمى باحتقار المكان الذي تتواجد فيه الشقق ببناية الشقق. وسيخبرك كل واحد منهم تقريباً أنه يريد (بيتاً مستقلاً به) ويبدو بوضوح أن بيتاً في وسط كتلة متصلة من البيوت طولها مئة ياردة لهم بيتهم أكثر من شقة معلقة في الهواء.

نعود إلى ثاني بيوت الشركة التي ذكرتها. اشتكى المستأجر بأن البيت كان بارداً ورطباً وهكذا. ربما بني البيت على نحو رخيص، لكنه قد يبالغ أيضاً. لقد جاء من زريبة قذرة في وسط ويغان كنت تفحصتها بنفسي سابقاً؛ حين بذل كل جهد ممكن للحصول

على بيت من بيوت الشركة، وما إن صار فيه حتى بدأ يريد العودة إلى الأحياء الفقيرة. في حالات كثيرة جداً، يبدو هذا مجرد صعوبة إرضاء لكنه يحجب ضيماً حقيقياً جداً. في حالات كثيرة جداً، ربما نصف الحالات، وجدت أن الناس في بيوت الشركة لا يحبونها فعلاً. هم سعداء بخروجهم من نتانة الأحياء الفقيرة، ويعرفون أن ذلك أفضل لأولادهم بفسحته التي يلعبون فيها لكنهم لا يشعرون بالراحة. الاستثناءات عادة هم الناس الذين في عمل جيد ويستطيعون أن يدفعوا أكثر على الوقود والأثاث والتنقل وهم النموذج الأرفع في كل الأحوال. أما الآخرون ساكني الأحياء الفقيرة النموذجيين فيفتقدون الحرارة النتنة لأحيائهم القذرة ويتذمرون بأنهم (في الريف) أي في طرف البلدة وأنهم يموتون (يتجمدون). بالتأكيد أكثر ممتلكات الشركة العقارية باردة جداً في الشتاء. لقد مررت ببعض تلك البيوت الجاثمة على سفوح تلال طينية مقفرة تكتسحها رياح باردة جداً، إنها أماكن مرعبة للعيش. لا يريد سكان الأحياء الفقيرة القذارة والازدحام لنفسيهما، كما يحب البرجوازيون المكرشون الاعتقاد. (راجع المحادثة عن تصفية الأحياء الفقيرة في أغنية البجعة لغلاسورثي حيث أعتقد المؤجر المدلل أن ساكن الأحياء الفقيرة يصنع تلك الأحياء بنفسه وليس العكس، وكأن محسناً يهودياً يقولها.) أعط الناس بيوتاً مقبولة وسيتعلمون المحافظة عليها. علاوة على ذلك، العيش في بيت أنيق يحسن احترامهم لذاتهم ونظافتهم ويبدأ أولادهم الحياة بفرص أفضل. لكن الجو في بيوت الشركة غير مريح يشبه جو السجون

ويدرك الساكنون ذلك تماماً.

وهنا نصل إلى الصعوبة المركزية لمشكلة الإسكان. عندما تمشي عبر الأحياء الفقيرة المظلمة بسبب الدخان في مانشستر تعتقد أن الأمر لا يحتاج إلا لتهديم هذه الأشياء المقيتة وبناء بيوت محترمة مكانها. لكن المشكلة أنك بتدمير تلك الأحياء فإنك تدمر أشياء أخرى أيضاً. البيوت مطلوبة جداً وهناك حاجة ماسة لها ولا تبنى بالسرعة الكافية؛ لكن بقدر ما يتم بناء البيوت ـ فهي تتم بطريقة غير إنسانية وشديدة البشاعة. أنا لا أقصد أن البيوت جديدة وبشعة فقط. يفترض أن كل البيوت كانت جديدة في وقت ما، وفي الواقع إن منظر نموذج بيت الشركة المبني الآن ليس كريها أبداً. توجد في ضواحي ليفربول ما يعادل بلدات كاملة كلها من بيوت الشركة وهي تسر العين؛ كتل شقق العمال في وسط البلدة بنيت على نموذج شقق العمال في فيينا كما أعتقد وهي أبنية جميلة بالتأكيد . لكن هناك شيء بلا رحمة أو روح في كل العمل. خذ مثلاً، القيود التي تكبلك في بيوت الشركة. لا يسمح لك بأن تصون بيتك وحديقتك كيفما ترغب ـ في بعض العقارات لا يسمح لك بتربية الدواجن أو الحمام؛ يربونها في الساحة الخلفية ويخرجونها لتتسابق أيام الأحد. لكن الحمام طيور غير مرتبة والشركة تمنعها طبعاً. لكن القيود على المتاجر أكثر خطورة. عدد المتاجر في عقار الشركة محدود بشكل صارم، ويقال أن الأفضلية تعطى للتعاونيات والمخازن المتسلسلة؛ قد لا يكون ذلك صحيحاً تماماً، لكن بالتأكيد

هذه هي المتاجر التي يراها المرء هناك عادة. هذا سيء كفاية بالنسبة للعامة، لكن من وجهة نظر الحانوتي المستقل هي كارثة. كثير من أصحاب المتاجر الصغيرة دُمروا تماماً بخطة إعادة الإسكان التي لا تهتم بوجودهم. قطاع كامل من البلدة يحكم عليه بعدم الصلاحية بالجملة؛ فوراً تهدم البيوت ويرحل الناس إلى عقار سكني يبعد أميالاً. بهذه الطريقة كل أصحاب المتاجر الصغيرة في الحي ينتزع منهم كل زبائنهم في ضربة واحدة ولا يتلقون أي تعويض. لا يستطيعون نقل تجارتهم إلى العقار، لأنهم حتى لو استطاعوا دفع تكاليف الانتقال والإيجار الباهظ جداً يمكن أن يرفض ترخيصهم. بالنسبة للحانات فقد استبعدت من عقار الشركة تماماً، والقلة التي بقيت هي أماكن مرعبة وتقليد زائف لنموذج تيودور تزودها شركات الجعة الكبيرة ومكلفة جداً. قد تكون إزعاجاً بالنسبة لسكان الطبقة الوسطى ـ مما يعني قطع ميل مشياً لتناول كأس من الجعة أما بالنسبة لطبقة العمال الذين يستخدمون الحانة كنوع من النادي، هي صفعة خطيرة للحياة الاجتماعية المشتركة. وضع ساكني الأحياء الفقيرة في بيوت محترمة إنجاز عظيم لكنه غير مناسب بسبب الطبع الغريب لعصرنا الذي يعتبر من الضروري سرقة آخر ذرة من حريتهم. هذا ما يشعر به الناس أنفسهم، وهذا هو الشعور الذي يسوغونه عندما يتذمرون من بيوتهم الجديدة الباردة وغير المريحة وغير العائلية ـ التي هي أفضل بكثير من تلك التي جاؤوا منها.

أعتقد أن ثمن الحرية في بعض الأحيان لا يحتاج إلى الكثير من الحذر الأبدي كالقذارة الأبدية. هناك بعض عقارات الشركة تفلي المستأجرين من القمل قبل أن تسمح لهم في السكن في بيوتهم. وتؤخذ كل ممتلكاتهم ماعدا ما يقفون فيه، تطهر بالبخار قبل أن ترسل إلى البيت الجديد. لهذا الإجراء غاياته، إذ من المؤسف أن يأخذ الناس البق معهم إلى البيوت الجديدة (سيلحق البق بك في أمتعتك لو توفرت له أدنى فرصة) لكن ذلك نفس الشيء الذي يجعلك تتمنى حذف كلمة (صحي) من المعجم لو كان ذلك ممكناً. البق سيء لكن الحالة التي يغمس فيها الناس كالخراف في محاليل التعقيم أسوأ. لكن على المرء أن يسلم المرء بقدر محدد من القيود واللاانسانية عندما يتعلق الأمر بتصفية الأحياء الفقيرة. وعندما ينفذ كل ما يقال، أهم شيء هو أن يعيش الناس في بيوت محترمة وليس في زرائب. رأيت الكثير جداً من الأحياء الفقيرة تدخل في نشوة خيالية. مكان يتنفس الأولاد فيه هواء نظيفاً وتجد النساء فيه بعض وسائل الراحة التي تنقذهن من العمل الحقير ويجد الرجل حديقة بيتية صغيرة يحفرها، يجب أن تكون أفضل من الشوارع الخلفية لليدز وشيفيلد. إجمالا إن عقارات الشركة أفضل من الأحياء الفقيرة لكن بهامش بسيط.

عندما كنت أبحث في قضية الإسكان زرت وتفحصت عدد من البيوت، ربما مئة أو مائتين في بلدات وقرى تعدينية مختلفة. لا أستطيع إنهاء هذا الفصل دون التعليق على الكياسة الاستثنائية والطبيعة الطيبة

التي قوبلت بها في كل مكان. لم أذهب وحيداً ـ دائماً كان معي صديق محلي من العاطلين عن العمل ليأخذني في جولة استكشافية ـ لكن مع هذا ، من الوقاحة أن تقتحم بيوت الفرباء وتطلب رؤية شقوق جدارن غرف النوم. مع ذلك تحلى الجميع بالصبر المدهش وبدوا متفهمين دون تعليل سبب استجوابي لهم وما أردت رؤيته. حدث لي هذا مرة واحدة كانت فيها المرأة شبه صماء وظنتني جاسوساً أعمل لحساب استطلاع الموارد؛ لكنها هدأت بعد برهة وأعطتني المعلومات التي أريدها.

قيل لي ليس جيداً أن يقتبس الكاتب من مقابلاته الخاصة لكنني أريد هنا أن أناقض ناقداً في مانشستر غارديان قال عن أحد كتبي:

لو ذهبت إلى ويغان أو وايتشابل لتجد أن السيد أورويل لا يزال يمارس قدرته السديدة في سد بصيرته في وجه كل ما هو جيد لكي يستمر في تشويهه الصادق للإنسانية.

هذا خطأ. السيد أورويل جلس في ويغان فترة طويلة ولم تثره أي رغبة لذم الإنسانية. لقد أحب ويغان كثيراً جداً ـ الناس وليس المشهد. وفي الحقيقة لم ينتقد سوى عيباً واحداً فيها يتعلق برصيف ويغان الشهير الذي يتوق لرؤيته كثيراً لكن يا للأسف لقد هدم رصيف ويغان وحتى البقعة التي كان يقف عليها لم تعد مؤكدة.

الفصل الخامس

حين ترى الأرقام التي تشير إلى البطالة بمليونين، ستفهم المغزى بسهولة حتمية بأن هناك مليون شخص بلا عمل وما بقي من السكان في راحة نسبية. وأعترف بأنني تعودت على فعل ذلك حتى فترة قريبة. فقد اعتقدت لو أني وضعت المليونين العاطلين عن العمل المسجلين وأضفت إليهم المعدمين و الذين لم يسجلوا لسبب أو لآخر، لحصلت على عدد الناس الذين يعانون من سوء التغذية في انكلترا (لأن كل من هو على الإعانة الحكومية أو قريباً منها يعاني من سوء التغذية) ولن يتجاوزوا الخمسة ملايين في أقصى حالاتهم.

هذا تقليل هائل في التقدير لأن الذين يظهرون في أرقام البطالة هم من يعيش فعلياً على الإعانة الحكومية هذا بالدرجة الأولى ـ أي عموماً أرباب العائلات ولا يحسب في القائمة ما يعيل العاطل عن العمل إلا إذا سحبوا حصصاً منفصلة. وقال لي موظف في دائرة العمل لكي تحصل على الرقم الحقيقي للذين يعيشون على الإعانة الحكومية (وليس الذين يسحبونها) عليك أن تضرب الأرقام الرسمية بأكثر من ثلاثة على الأقل.

بهذا الشكل يقترب رقم العاطلين عن العمل من الستة ملايين. لكن بالإضافة لذلك توجد أعداد كبيرة جداً من الناس الذين في العمل، لكن من وجهة النظر المالية يعتبرون كالعاطلين عن العمل لأنهم لا يستطيعون سحب أي شيء يمكن وصفه كأجر معيشة.[٢] بقبول هؤلاء ومن يعيلونهم وإضافة المتقاعدين من كبار السن والمعدمين والآخرين الذي يصعب تصنيفهم وستحصل بالنتيجة على عدد يتجاوز العشرة ملايين من الذين يعانون من سوء التغذية لكن السير جون اور قدرهم بعشرين مليوناً.

خذ الأرقام في ويغان، وهي نموذجية جداً لكل المناطق الصناعية والتعدينية. عدد العمال المؤَمنين حوالي ٣٦,٠٠٠ (٢٦,٠٠٠ رجل و١٠,٠٠٠ امرأة). بلغ عدد العاطلين عن العمل في بداية عام ١٩٣٦ حوالي ١٠,٠٠٠. لكن هذا الرقم تراجع في الشتاء حين كانت المناجم تعمل بوقت كامل لكن في الصيف قد يصل الرقم إلى ١٢,٠٠٠، اضرب هذا الرقم بثلاث كما سبق وستحصل على ٣٠,٠٠٠ أو ٣٦,٠٠٠. يقل إجمالي عدد السكان في ويغان عن ٨٧,٠٠٠؛ لذلك تجد هناك أكثر من شخص واحد من كل ثلاثة من إجمالي عدد السكان ـ ليس العمال المسجلين فقط إما أنه يسحب حصصاً أو يعيش على إعانة البطالة الحكومية. في العشرة آلاف أو اثنا عشر ألف عاطل عن العمل هناك قسم ثابت ومهم

(٢) مثلاً، إحصاء رسمي حديث لمعامل قطن لانكشاير كشفت حقيقة أن أكثر من ٤٠,٠٠٠ مستخدم بوقت كامل يتلقون أقل من ثلاثين شلناً في الأسبوع. في بريستون، لنأخذ بلدة واحدة، عدد الذين يتلقون أكثر من ثلاثين شلن أسبوعياً كان ٦٤٠ وعدد من يتلقون أقل من ثلاثين شلن ٣١١٣.

يتراوح عدده مابين أربعة أو خمسة آلاف عامل منجم من العاطلين عن العمل بشكل دائم خلال السنوات السبع الأخيرة. وويغان ليست أسوأ من البلدات الصناعية الأخرى. حتى في شيفيلد التي نجحت في السنة الأخيرة بسبب الحروب وإشاعاتها، تجد نسبة البطالة نفسها تقريباً ـ واحد من ثلاثة من العمال المسجلين عاطلين عن العمل.

يظل العاطل عن العمل لأول مرة عاطل يسحب (إعانة كاملة) حتى يكتمل دفع ضرائبه ومعدلها كالآتي: الرجل الأعزب ١٧ شلن، الزوجة ٩ شلن، كل واحد من الأولاد تحت الحادية عشر ٣ شلن أسبوعياً.

هذه عائلة نموذجية مؤلفة من الوالدين وثلاثة أولاد واحدهم بعمر الرابعة عشر، إجمالي دخلهم سيكون ٣٢ شلن في الأسبوع، زائد أي شيء قد يكسبه الولد الأكبر. عندما يكتمل دفع ضرائبه وقبل أن يحول إلى لجنة المعونة الشعبية، يستلم معونة انتقالية لمدة ست وعشرين أسبوعاً من هيئة معونة البطالة، معدلها الأسبوعي كالآتي: الرجل الأعزب ١٥ شلن، الرجل والزوجة ٢٤ شلن، الأولاد من ١٤ ـ ١٨ عاماً ٦ شلن، الأولاد من ١١ ـ ١٤ عاما ٤ شلن و ٦ بنس، الأولاد من ١١ ـ ٨ عام ٤ شلن، الأولاد من ٥ ـ ٨ عام ٣ شلن و٦ بنس، الأولاد من ٣ ـ ٥ عام ٣ شلن.

لهذا يبلغ دخل العائلة النموذجية المؤلفة من خمسة أشخاص ٣٧ شلن و٦ بنس أسبوعياً إن لم يكن احد الأولاد يعمل. عندما يكون الرجل على إعانة هيئة البطالة تذهب ربع إعانته لإيجار البيت بحد أدنى ٧ شلن و٦ بنس أسبوعياً. إن كان الإيجار الذي يدفعه أكثر من ربع إعانته

يتلقى معونة إضافية وإن كانت أقل من ٧ شلن و٦ بنسات، يحسم منه مبلغ مماثل. دفعات معونة اللجنة الشعبية تخرج من الأسعار المحلية نظرياً لكنها تطبخ في الصندوق المركزي. أسعار المعونة الأسبوعية كالتالي: الرجل الأعزب ١٢ شلن و٦ بنس، الرجل وزوجة ٢٣ شلن، الولد الأكبر ٤ شلن أي ولد آخر ٣ شلن.

لا تختلف هذه المعدلات إلا قليلاً لكونها على هوى الهيئات المحلية ويمكن أن يحصل الرجل الأعزب على شلنين إضافيين أسبوعياً وذلك برفع معونته إلى ١٥ شلن وقد لا يمكن ذلك. كما في معونة هيئة البطالة تذهب ربع معونة المرء الحكومية للإيجار. لهذا يصبح دخل هذه العائلة النموذجية الإجمالي المشار إليها آنفا ٣٣ شلن أسبوعياً، ربعه يدفع للإيجار. بالإضافة إلى ذلك أغلب المناطق تمنح علاوة فحم بمعدل شلن و٦ بنسات في الأسبوع لمدة ستة أسابيع قبل وستة أسابيع بعد عيد الميلاد (ما يعادل مئة كيلو من الفحم) .

يتبين أن دخل العائلة التي على معونة البطالة يراوح حول الثلاثين شلن بالأسبوع ونستطيع القول بأن ربعها على الأقل يحسم كإيجار، مما يعني الشخص المعدل، طفلا كان أم راشدا، يجب أن يطعم ويكسى ويدفئ ويعتني به مقابل ستة أو سبعة شلنات في الأسبوع. مجموعات هائلة من الناس وربما ثلث سكان المناطق الصناعية على الأقل يعيشون في هذا المستوى. ينفذ استطلاع الموارد بصرامة والمرء معرض للحرمان من الإعانة جراء أي إشارة طفيفة توحي بأنه يحصل على نقود من مصدر آخر. عمال دوك مثلاً، الذين يتم استئجارهم

لنصف يوم عمل، يجب أن يسجلوا في دائرة العمل مرتين في اليوم؛ وإن فشلوا يفترض بأنهم كانوا يعملون و تقلل إعاناتهم بالتساوي. رأيت حالات من تفادي استطلاع الموارد، لكن يجب القول أن الأمر في البلدات الصناعية، حيث لا يزال هناك مقدار معين من الحياة الاجتماعية المشتركة وكل واحد لديه جار يعرفه، أصعب مما هو عليه في لندن. إن الطريقة المعتادة لحصول الشاب الذي يعيش فعليا مع والديه على عنوان إقامة أن يكون لديه منشاة منفصلة وهمية ويسحب معونة منفصلة. لكن يوجد كثير من التجسس ونشر الإشاعات. أحد الرجال الذين أعرفهم مثلاً، شوهد وهو يطعم دجاج جاره حين كان الأخير غائباً فنقلت القصة إلى السلطات بأن عنده وظيفة إطعام الدجاج وواجه صعوبة كبيرة لتفنيد هذا. كانت النكتة المفضلة في ويغان عن رجل حرم من إعانته لأنه يعمل بوظيفة نقل الحطب وقيل أنه أرسل لنقل الحطب ليلاً فكان عليه أن يوضح بأنه لم يكن ينقل الحطب وإنما كان ينتقل إلى مكان آخر ليلاً كي لا يدفع الإيجار وكان الحطب أثاث بيته.

أقسى وأسوأ أثر لاستطلاع الموارد هو الطريقة التي يفكك بها العائلة. فقد تسبب بطرد كبار السن وأحياناً طريحي الفراش من بيوتهم. إن كان متقاعد السن أرملاً مثلاً فسيعيش مع أحد أولاده عادة وتذهب شلناته العشرة الأسبوعية على النفقات المنزلية التي قد لا توفر له سوى عناية سيئة. لكنه على ضوء استطلاع الموارد يعتبر (نزيلاً) وإن ظل في البيت تحسم معونته. لهذا يضطر في السبعين أو الخامسة والسبعين من عمره إلى الانتقال إلى الغرف المفروشة ويسلم معاشه

التقاعدي لحارس النزل ويحيا على حافة المجاعة. رأيت حالات كثيرة كهذه بعيني وتحدث الآن في كل أرجاء انكلترا، الشكر لا استطلاع الموارد.

لكن رغم هذا الحد المخيف من البطالة فإن واقع الفقر ـ الفقر المدقع ـ أقل وضوحاً في المناطق الصناعية مما هو عليه في لندن. كل شيء أفقر وأخس وعدد السيارات و الناس المتأنقين أقل؛ لكن هناك عدد أقل من المعدمين بشكل واضح أيضاً. حتى في بلدة بحجم ليفربول أو مانشستر تدهشك قلة عدد المتسولين. لندن دوامة تجذب الناس المنبوذين نحوها كما أنها واسعة جداً لذلك الحياة هناك نوع من عزلة وغياب الاسم. لن يلاحظك أحد إن لم تنتهك القانون ويمكن أن تنهار مادياً أو معنوياً بشكل لا يمكن أن يحدث في مكان لك فيه جيران يعرفوك. لكن في البلدات الصناعية لم تتفكك طريقة الحياة الاجتماعية القديمة بعد ولا تزال قوية التقاليد وكل شخص تقريباً له عائلة وبالتالي بيت. في بلدة يقطنها ٥٠,٠٠٠ أو ١٠٠,٠٠٠ ساكن لا يوجد عامل موسمي كما لو أنه غير محسوب بالنسبة للسكان ولا من ينام في الشوارع، مثلاً. فضلاً على ذلك ليس هناك ما يمكن قوله عن قوانين البطالة سوى أنها لم تثبط رغبة الناس في الزواج. إن زوج وزوجة على ثلاث وعشرين شلن في الأسبوع ليسا بعيدين عن خط المجاعة لكنهما يستطيعان تأسيس بيت من نوع ما؛ كما أنهما أحسن بكثير من رجل أعزب على خمسة عشر شلن. إن حياة الرجل الأعزب العاطل عن العمل مرعبة. فهو يعيش في نزل أحياناً أو على الأكثر في غرفة مفروشة يدفع لقاءها ست شلنات في الأسبوع ليجد نفسه بأفضل الأحوال على التسع

شلنات الأخرى (ست شلنات للأكل الأسبوعي وثلاث شلنات للثياب والتبغ والتسلية). لا يستطيع أن يطعم نفسه أو يعتني بها بشكل مناسب طبعاً ومن يدفع ست شلنات لقاء غرفته لا يتشجع على البقاء داخلها أكثر من الوقت الضروري.

لهذا يمضي يومه متسكعاً في المكتبة العامة أو أي مكان آخر يجد فيه الدفء.

الحفاظ على الدفء هو الشاغل الوحيد للأعزب العاطل عن العمل في الشتاء. في ويغان كانت دور السينما هي الملجأ المفضل الرخيص هناك. يمكنك الحصول على مقعد ببنسين دائماً. حتى الأشخاص الذين على حافة المجاعة مستعدون لدفع بنسين ليخرجوا من مساء شتوي برودته مرعبة. في شيفيلد أخذت إلى القاعة العامة للاستماع إلى محاضرة لقس وكانت أسخف محاضرة سمعتها أو توقعت أن اسمعها بحياتي. وجدت بأنه من المستحيل فيزيائياً الجلوس فحملتني قدماي للخارج فعلا بنفسيهما قبل أن أقطع نصف المسافة للخارج. لكن القاعة كانت مزدحمة بالعاطلين عن العمل المستعدين للجلوس في ظل هراء أسوأ من أجل مكان دافئ يلجأون إليه.

رأيت الرجال غير المتزوجين على إعانة البطالة وهم في أقصى درجات البؤس مرات كثيرة. أتذكر مستعمرة كاملة منهم في بلدة واحدة كانوا يقرفصون بشكل غير قانوني في بيت مهجور كان عملياً متداعياً. جمعوا بضع بقايا أثاث من أكوام النفايات وأتذكر أن طاولتهم الوحيدة كانت حامل غطاء مغسلة رخامية. لكن هذا النوع

استثنائي.

أعزب الطبقة العاملة نادر، وطالما أن المرء متزوجاً تشكل البطالة تغييراً طفيفا في أسلوب حياته بالمقارنة. بيته يفتقر أكثر لكنه يظل بيت ومن الملاحظ في كل مكان أن الوضع الشاذ تخلقه البطالة ـ يصبح الرجل خارج العمل بينما يستمر عمل المرأة كما كان في السابق ـ لم تتبدل المرتبة النسبية للجنسين. في بيت الطبقة العاملة الرجل هو السيد وليس العكس كما هو الحال في بيوت الطبقة الوسطى حيث تكون المرأة أو الطفل. لا ترى أبداً في بيوت الطبقة العاملة الرجل يقوم بأي نوع من العمل المنزلي. لم تبدل البطالة هذا التقليد الذي يبدو ظاهره غير عادل. الرجل متكاسل من الصباح حتى الليل في حين المرأة مشغولة كما هي دائماً ـ أو أكثر لأنها يجب أن تدبر الأمر بنقود أقل. وبقدر تجربتي لا تحتج النساء. أعتقد أنهن مثل الرجال يشعرن بأن الرجل يفقد رجولته إن كان خارج العمل ويتحول إلى (ماري آن).

لكن ليس هناك شك بأثر البطالة القاتل والمدمر على كل شخص متزوج أم أعزب وعلى الرجال أكثر من النساء. أفضل العقول الذكية لا تصمد في وجهها. وحدث أن صادفت مرة أو اثنتين رجال عاطلين عن العمل بقدرات أدبية حقيقية؛ وهناك غيرهم لم ألقاهم لكنني أرى أعمالهم أحياناً في المجلات. بين الحين والآخر وعلى فواصل طويلة يصدر لهؤلاء الرجال مقال أو قصة قصيرة وهي أفضل من الهراء الذي يجعجع به نقاد المدح. لماذا إذا لا يستغلون مواهبهم؟ لديهم كل وقت الفراغ الموجود في العالم؛ لماذا لا يجلسون ويكتبون الكتب؟ لأنك لكي

تكتب كتاباً لا تحتاج إلى الراحة فقط والعزلة التي ليس من السهل توفيرها في بيت من بيوت الطبقة العاملة ـ وإنما تحتاج إلى راحة البال أيضاً. لا يمكنك الاستقرار على أي شيء ولا تستطيع أن تأمر روح الأمل التي يجب أن يبتكر فيها كل شيء في ظل تلك الغيمة الثقيلة الشريرة للبطالة التي تخيم فوق رأسك. رغم ذلك يظل العاطل عن العمل الذي يحس بالراحة بالكتب قادراً على إشغال نفسه بالقراءة تحت أي ظرف. لكن ماذا عن الرجل الذي لا يستطيع القراءة دون مشقة؟ خذ عامل المنجم مثلاً، الذي يعمل في الحفرة منذ طفولته وتربى ليكون عامل منجم وليس شيئاً آخر. كيف سيملأ أيامه الفارغة؟ من سخافة القول بأنه يجب أن يبحث عن عمل. لا يوجد عمل ليبحث عنه والكل يعرف هذا. لا يمكنك أن تستمر في البحث عن عمل يومياً لمدة سبع سنين. توجد حصص (قطع صغيرة من الأرض لزرع بعض الخضار فيها) تشغل الوقت وتساعد على إطعام العائلة لكن في البلدة الكبيرة لا توجد مثل تلك حصص إلا لنسبة صغيرة من الناس. ثم هناك المراكز المهنية التي بدأت منذ سنوات قليلة لمساعدة العاطلين عن العمل. لكن إجمالاً كانت تلك الحركة فاشلة رغم أن بعض المراكز لا يزال مزدهراً.

لقد زرت واحداً أو اثنين من تلك المراكز التي توجد فيها ملاجئ دافئة وصفوف نظامية ودورية للنجارة وصنع الأحذية والأعمال الجلدية والنسيج اليدوي وصنع السلال وأعمال الأعشاب البحرية الخ؛ الفكرة أن الرجال يمكنهم صنع أثاث وغيره ليس للبيع وإنما لبيوتهم، يحصلون على الأدوات مجاناً والمواد الأولية بسعر زهيد. لكن أغلب الاشتراكيين

الذين تحدثت معهم شجبوا هذا الحركة كما شجبوا المشروع - دائماً يدور الحديث عنه لكن دون أن يسفر عن أي شيء - بأنه يعطي العاطل عن العمل ملكية صغيرة وقالوا إن المراكز المهنية وسيلة للحفاظ على هدوء العاطلين عن العمل وتضليلهم بأن هناك شيء يتم فعله من اجلهم. لاشك بأن ذلك هو الدافع الخفي.

اشغل رجلاً بتصليح الأحذية فيقل احتمال قراءته للديلي وركر. وتوجد أيضاً منظمة الشباب المسيحي العالمية البغيضة. تشعر بجو هذه الأماكن بمجرد دخولك فيها. إن العاطلين عن العمل الذين يترددون عليها من النموذج المتملق الذي يخبرك مداهنا بأنه لا يعاقر الخمر ويصوت للمحافظين. حتى عند هذا الحد تشعر بأنك ممزق بين اتجاهين فقد يكون من الأفضل للمرء أن يمضي وقته في مثل هذا الهراء كعمل الأعشاب البحرية من يمضي ما تبقى له من سنين على نهايته دون أن يفعل شيئا إطلاقاً.

عموماً أفضل عمل للعاطلين عن العمل قامت به الحركة الوطنية للعمال العاطلين عن العمل. وهي منظمة ثورية هدفت إلى توحيد العاطلين عن العمل معاً ومنع مفسدي الإضرابات وتقديم العون والنصائح القانونية ضد استطلاع الموارد. إنها منظمة بنيت من لاشيء، بمبالغ يسيرة من المال وبجهود العاطلين عن العمل أنفسهم. لقد رأيت كثيراً من أعضاء المنظمة وأعجبت كثيراً بهؤلاء الرجال، بالثياب الرثة والتغذية السيئة كغيرهم، الذين يديرون عمل المنظمة. وأعجبني أكثر الصبر والحكمة اللتين يعملون بهما:

لأنه ليس من السهل نيل اشتراك حتى ولو كان ببنس في الأسبوع من جيوب الذين على لجنة المعونة الشعبية. كما قلت سابقاً لا تبدي الطبقة العاملة الانكليزية مقدرة كبيرة للقيادة لكن موهبتها في التنظيم رائعة. ويثبت ذلك كل النقابات ونوادي العمال ـ وهي فعلاً حانات تعاونية محترمة ومنظمة تنظيما ممتازاً وتتواجد بكثرة في يوركشاير. في بلدات كثيرة وفرت الحركة الوطنية للعمال العاطلين عن العمل ملاجئ ونظمت خطابات للمتحدثين الشيوعيين. لكن حتى في هذه الملاجئ لا يفعل الرجال الذين يرتادونها شيئاً سوى التحلق حول الموقد ولعب الدومينو.

لو استطاعت هذه الحركة الاتحاد مع صفوف المراكز المهنية فستقترب مما تحتاج إليه. من المميت أن ترى حرفياً ماهراً يموت سنة بعد أخرى في بطالة يائسة مفضوحة. يجب أن لا يكون مستحيلاً إعطاءه فرصة لاستخدام يديه وصنع أثاث بيته دون تحويله إلى مدمن على شراب الكاكاو في المنظمة العالمية للشباب المسيحي. قد نواجه أيضاً حقيقة أن ملايين الرجال في بريطانيا لن يحصلوا على وظيفة حقيقية إلا إذا اندلعت حرب. لكن من الممكن القيام بشيء ويجب أن يتم التأكيد عليه كأمر بديهي وهو أن يعطى كل عاطل عن العمل بقعة من الأرض وأدوات مجانية إن اختار استعمالها. من المعيب ألا يكون للرجال الذين يتوقع بأن يعيشوا على معونة اللجنة الشعبية فرصة لزرع خضار لعائلاتهم.

لكي تدرس البطالة وآثارها يجب الذهاب إلى المناطق الصناعية.

توجد في الجنوب بطالة لكنها مبعثرة وغير بارزة بشكل غريب. كثير من المناطق الريفية لم يسمع فيها بالرجل العاطل عن العمل ولا ترى فيها منظر المدن المكونة من الكتل السكنية الكاملة التي تعيش على معونة الحكومة للبطالة أو معونة اللجنة الشعبية . ذلك ممكن فقط حين تستأجر غرفة في شوارع حيث ليس لأحد فيها وظيفة وحيث الحصول على وظيفة أصعب من امتلاك طائرة وأقل احتمالاً بكثير من ربح خمسين جنيها في أسهم كرة القدم، وتبدأ بادراك التغييرات التي حدثت في حضارتنا. ولاشك بأن هذا التغيير مستمر. لقد اختلف وضع الطبقة العاملة الغارقة كثيراً عما كان عليه قبل سبع أو ثمان سنوات.

أول مرة أدركت فيها مشكلة البطالة كان في العام ١٩٢٨. في ذلك الوقت كنت قد عدت تواً من بورما التي كانت البطالة فيها مجرد كلمة وكنت قد ذهبت إلى بورما وأنا لا أزال صبياً ولم يكن ازدهار ما بعد الحرب منتهيا. عندما رأيت العاطلين عن العمل في الأحياء القريبة الشيء الذي أذهلني وأدهشني هو أن كثيراً منهم خجلاً من كونه عاطلاً عن العمل. كنت جاهلاً لكن لست جاهلاً لكي لا أتخيل بأن فقدان الأسواق الأجنبية يسبب خسارة مليوني عامل لوظائفهم وأن لا يقع عليهم اللوم بل على الذين يسحبون الأوراق الرابحة في كالكوتا. لكن لم يرغب أحد بالاعتراف بأن البطالة أمراً محتوما في ذلك الوقت لأن ذلك يعني الاعتراف باستمرارها. لا تزال الطبقة الوسطى تتحدث عن (الكسول المتسكع الذي يعيش على معونة البطالة) وتقول أن (كل هؤلاء الرجال يستطيعون إيجاد أعمال لو أرادوا ذلك) ومن الطبيعي أن ترشح هذه الأفكار إلى الطبقة العاملة نفسها.

أتذكر صدمة الذهول التي سببها لي اختلاطي الأول بالمشردين والمتسولين واكتشفت أن قسماً كبيراً ربما ربع هذه الكائنات الذين تربيت على النظر إليهم كطفيليات حقيرة هم من عمال المناجم الشباب المهذبين وعمال القطن المحدقين بقدرهم بنفس الذهول الأصم لحيوان وقع في مصيدة. إنهم ببساطة لم يدركوا ما كان يحدث لهم. لقد تربوا على العمل وانظر! يبدو أنهم لن يحصلوا على فرصة العمل ثانية. كان الشعور بالانحطاط الشخصي الذي ينتابهم في البداية محتوما في ظروفهم. كان ذلك هو الموقف من البطالة آنذاك: مصيبة حلت عليك كفرد وعليك يقع اللوم.

عندما يكون ربع مليون عامل منجم عاطلاً عن العمل يجب أن يكون ألف سميث لأن هذا جزء من نظام الأشياء، وألف سميث هو عامل منجم يعيش في الشوارع الخلفية في نيو كاسل. وهو مجرد واحد من ربع مليون حسب تقديرات وحدة الإحصاء. مادام بيرت جونز الذي يقطن في الشارع المقابل يعمل فإن ألف سميث ملزم بإحساس نفسه بالذل والفشل. لهذا كان شعور العجز المخيف واليأس أسوأ شرور البطالة ـ أسوأ من أي مشقة أخرى، أسوأ من إضعاف المعنويات الذي يفرضه الكسل وأقل فقط من الانحطاط الجسدي لأولاد ألف سميث الذين ولدوا على معونة اللجنة الشعبية للبطالة. كل من شاهد مسرحية غرينوود الحب على إعانة البطالة يجب أن يتذكر اللحظة المرعبة عندما يدق العامل الفقير الطيب الأحمق على الطاولة ويصيح عاليا (يا الهي، إبعث لي عملاً ما!) لم يكن هذا مبالغة درامية بل لمسة من الحياة. لقد دوّت تلك الصيحة وبنفس الكلمات تقريباً في آلاف بل مئات الآلاف من

البيوت الإنكليزية خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة.

لكن لم أفكر مرة أخرى ـ أو على الأقل ليس كثيراً. تلك هي النقطة الحقيقية: توقف الناس عن الاحتجاج ضد الأشياء غير المرضية. أخيراً حتى الطبقات الوسطى ـ نعم حتى نوادي الجسر في البلدات الريفية ـ بدأت تدرك وجود شيء اسمه البطالة. العبارات مثل لا أصدق يا عزيزي كل هذا الهراء عن البطالة. لماذا، الأسبوع الماضي فقط أردنا رجلاً ليزيل الأعشاب الضارة في الحديقة ولم نجد أحد. لا يريدون أن يعملوا، هذا كل ما في الأمر! التي كنت تسمعها حول كل منضدة شاي محترمة منذ خمس سنوات تتزايد قلة تكرارها بشكل محسوس. لقد اكتسب أفراد الطبقة العاملة بنفسهم معرفة اقتصادية هائلة. اعتقد أن الديلي وركر حققت انجازا عظيما في هذا: تأثيرها من خلال حجم توزيعها. لكنهم على أي حال تعلموا درسهم جيداً وانصقل بداخلهم ليس لأن البطالة انتشرت بنطاق واسع فقط بل لأنها استمرت فترة طويلة أيضاً. عندما يعيش الناس سنوات على معونة البطالة فهم يعتادون عليها مع الزمن ويتوقف سحب حصص المعونة عن كونه عمل معيب رغم انه يظل مزعجا. لهذا تقوض تقليد الخوف القديم من الملاجئ مثلما تقوض الخوف من الدين بنظام شراء التقسيط. رأيت كل أنواع الحرمان في الشوارع الخلفية لويغان وبارنسفيلد لكن ربما رأيت بؤسا مدركا اقل بكثير مما كان يجب أن أراه منذ عشر سنوات. على أي حال لقد أدرك الناس أن البطالة شيء لا يمكنهم تفاديه. ليس الف سميث فقط هو العاطل عن العمل الآن بل بيرت جونز أيضاً وكلاهما على هذا الحال منذ سنوات. إن الفرق كبير عندما تتشابه الأمور مع الجميع.

لـذلك اسـتقر النـاس ـ إذا جـاز التعـبير ـ كلهم علـى العـيش مـدى الحياة على إعانة البطالة الشعبية. وما أظنه رائعا وربما مشجعا أيضاً هو أنهم نجحوا في ذلك دون أن ينهـاروا روحيـاً. العامـل لا يتفسـخ تحـت شـدة الفقـر كمـا يحـدث لفـرد الطبقـة الوسـطى. خـذ مـثلاً أن أفـراد الطبقـة العاملة يعتبرون الزواج وهمم على معونة البطالة أمراً سهلاً وعادياً وهـذا مـا يـزعج سـيدات برايتـون العجـائز لكنـه دليـل علـى إحساسـهم الجيـد والجوهـري؛ فهم يدركـون أن فقدان الوظيفة لا يعني أنك لم تعد كائنـاً بشرياً. لا تزال الحياة عادية تماماً، عادية أكثر مما يتوقع المرء وينتظـر منهـا. لقـد سـلبت وفقـرت العـائلات لكـن نظـام العائلـة لم يتفكـك. بالنتيجة يعيش الناس الآن نسخة مخفضة من حياتهم السـابقة وبـدلاً مـن الهياج ضد قدرهم جعلوا الأشياء محتملة ومقبولة بتخفيض معاييرهم.

لكـنهم لم يخفضـوا بالضـرورة معـاييرهم بالانقطـاع عـن وسـائل الترف والتركيز على الضروريات وإنمـا حـدث العكـس علـى الأغلـب ـ الطريقـة الأكثـر طبيعيـة لـو حـدث وفكـرت فيهـا. بسـبب عقـد مـن الكساد الاقتصادي الذي لا مثيل له ازداد استهلاك كل وسـائل الـترف الرخيصة. إن الشيئين الذين أحدثا أكبر الاختلاف هما الأفلام والإنتـاج الشامل والمتسلسل للثياب الأنيقة منذ الحرب. الشاب الذي يترك المدرسة في الرابعة عشر من العمر يحصل على وظيفة طريقها مسدود ويصبح بلا عمل في العشرين وربما طيلة حياته؛ لكن بجنيهين وعشر شلنات بنظـام شراء التقسيط يستطيع شـراء طقـم ثيـاب لنفسـه الـذي يظـل يبـدو لفـترة قليلة ومسافة قليلة وكأنه فصل في سـافيل رو. كمـا تسـتطيع الفتـاة أن تبدو متأنقة مثل صفحة الموضة بسعر أقل أيضاً. قـد يكـون لـديك ثـلاث

بنسات في جيبك ولا أمل لك في العالم ماعدا زاوية غرفة نوم راشحة تذهب إليها كبيتك؛ لكن تستطيع أن تقف في ثيابك الجديدة في زاوية شارع، تطلق العنان لحلم يقظة خاص بأنك دراك غابل أو غريتا غاربو، مما يعوضك ذلك كثيراً. وحتى في البيت يوجد عادة كوباً من الشاي ـ كوب لذيذ من الشاي ـ وأب عاطل عن العمل منذ عام ١٩٢٩، سعيد مؤقتاً لأنه نال بقشيشا ثابتاً من سيزارويتش.

كان على التجارة منذ الحرب أن تكيف نفسها لتلبي مطالب الناس المنقوصة أجورهم وتغذيتهم، والنتيجة أن الترف أرخص من الحاجة الملحة في الوقت الحاضر دائماً تقريباً. زوج واحد من الأحذية البسيطة الصلبة يكلف بقدر زوجين أنيقين جداً. لأنه بسعر وجبة مشبعة واحدة تستطيع الحصول على باوندين من الحلويات الرخيصة. لا يمكنك الحصول على كثير من اللحم بثلاث بنسات لكنك تستطيع الحصول بها على كثير من السمك ورقائق البطاطس المقلية. يكلف نصف ليتر الحليب ثلاث بنسات والبيرة غير الحادة أربع بنسات لكن كل سبع حبات من الاسبيرين ببنس ويمكنك عصر أربعين كوباً من الشاي من كيس وزنه ربع باوند. وأهم من كل شيء هنالك القمار وهو أرخص من كل أنواع الترف. حتى من هو على حافة المجاعة يستطيع شراء بضعة أيام من الأمل (أحياناً تعيش من أجلها، كما يدعونها) بامتلاك بنس في رهانات الخيل. لقد ارتفعت أهمية القمار المنظم الآن إلى مرتبة الصناعات الرئيسية. تأمل مثلاً، ظاهرة رهانات كرة القدم برأسمال يقارب الستة ملايين جنيه سنوياً التي كلها من جيوب أفراد الطبقة العاملة تقريباً. صدف أن كنت في يوركشاير عندما احتل هتلر

رينلند. لم يثر هتلر ولوكارنو والفاشية وتهديد الحرب أي اهتمام محلي، لكن قرار اتحاد كرة القدم بإيقاف نشر برنامج مهرجاناتهم الرياضية مسبقاً (هذه كانت محاولة لقمع رهانات كرة القدم) دفع كل يوركشاير في عاصفة من الغضب الشديد. وبعد ذلك يوجد العرض الغريب لعلم الكهرباء الحديثة الذي يمطر ذوي البطون الخاوية بالمعجزات. يمكن أن تقضي الليل كله ترتعد من البرد بسبب نقص أغطية السرير، لكن في الصباح يمكنك الذهاب إلى المكتبة العامة وتقرأ الأخبار التي أبرق بها لمنفعتك من سان فرانسيسكو وسنغافورة. يعاني عشرون مليون من سوء التغذية في بريطانية لكن لكل واحد منفذ إلى المذياع فعلياً . ما خسرناه في الطعام ربحناه في الكهرباء. قطاعات كاملة من أفراد الطبقة العاملة الذين سُلبوا من كل ما يحتاجونه فعلياً تم تعويضهم جزئياً بوسائل ترف رخيصة تلطف قشرة الحياة.

هل تعتقد أن كل هذا مرغوب؟ لا، أنا لا أعتقد. لكن ربما هو ذلك التوافق النفسي الذي تبذل الطبقة العاملة أقصى ما يمكنها فعله في الظروف. فهم لم يتحولوا إلى ثوريين ولم يفقدوا احترام ذاتهم وإنما حافظوا على ضبط انفعالاتهم فقط واستقروا على استغلال أفضل ما فيها معيار السمك وشرائح البطاطس المقلية. قد يكون البديل الذي لا يعرفه غير الله آلاماً مستمرة من اليأس أو قد تكون محاولات عصيان مسلح التي لن تؤدي في دولة فيها حكومة قوية مثل انكلترا إلا إلى مذابح عقيمة ونظام قمعي همجي.

بالطبع كان تطور وسائل الترف في فترة ما بعد الحرب لمصلحة من؟. المحتمل جداً أن في ثنايا السمك وشرائح البطاطس المقلية والجوارب الحريرية وسمك السلمون المعلب والشوكولا ذات السعر المخفض والسينما والمذياع والشاي الثقيل ورهانات كرة القدم تكمن ثورة تم تفاديها. لذلك يقال لنا أحياناً أن كل الأمر مناورة ذكية من الطبقة الحاكمة ـ نوع من أعمال الخبز والسيرك ـ لقهر العاطلين عن العمل. ما رأيته من طبقتنا الحاكمة لا يقنعني بأن تملك هذا القدر من الذكاء. لقد حدث ما حدث جراء عملية غير واعية ـ التفاعل الطبيعي بين حاجة المصنع للسوق وحاجة الناس شبه الجائعين للمسكنات الرخيصة.

الفصل السادس

عندما كنت صبياً صغيراً في المدرسة كان يأتينا إليها محاضر مرة في الفصل ويلقي محاضرات رائعة عن معارك الماضي الشهيرة مثل بلينهايم واوسترليتز الخ وكان المحاضر مغرماً بالاستشهاد بحكمة نابليون (الجيوش تزحف على بطونها) وفي نهاية المحاضرة يلتفت إلينا ويسأل (ما هو أهم شيء في العالم؟) ويتوقع منا أن نصرخ ونقول الغذاء! و يخيب ظنه إن لم نتصرف هكذا.

من الواضح أنه كان على حق بصورة ما. إن الكائن البشري في المقام الأول حقيبة يوضع الغذاء في داخلها؛ قد تكون الوظائف الأخرى والقدرات أكثر قدسية لكنها من ناحية الزمن تأتي لاحقاً. يموت الإنسان ويدفن وتنسى كل أفعاله وأقواله لكن الطعام الذي تناوله يظل حياً بعده في صوت أولاده أو عظامهم الفاسدة. أعتقد بأنه يمكن الجدال بشكل مقبول بأن تغييرات النظام الغذائي أهم من السلالة الحاكمة والدين أيضاً. الحرب العظمى مثلاً لم تكن تحدث لو لم يخترع الطعام المعلب. وتاريخ الأربع مئة سنة الماضية في انكلترا كان سيكون مختلف بشكل هائل لو لم يكن من أجل إدخال النباتات

الجذرية وأنواع مختلفة من الخضار في نهاية العصور الوسطى وبعد ذلك بقليل إدخال المشروبات غير الكحولية كالشاي والكوكا والشرابات الكحولية المقطرة أيضاً التي لم يعتد عليها شاربي البيرة الإنكليز. لكن من الغريب ندرة الاعتراف بالأهمية الكلية للغذاء. ترى نصباً في كل مكان لسياسيين وشعراء ومطارنة لكنك لا تجد نصباً لطباخ أو مربي خنازير أو زراع خضروات. قيل بأن الإمبراطور تشارلز الخامس نصب تمثالاً لمخترع سمك الرنجة المدخن والمملح لكن هذه هي الحالة الوحيدة التي أستطيع تذكرها في هذه اللحظة.

لهذا الشيء الحقيقي المهم للعاطلين عن العمل والشيء الأساسي الحقيقي إن نظرت إلى المستقبل، هو النظام الغذائي الذي يعيشون عليه. كما قلت سابقاً، العائلة المتوسطة العاطلة عن العمل تعيش على دخل قدره حوالي الثلاثين شلن في الأسبوع و الذي يذهب ربعه على الأقل للإيجار. إن كيفية صرف النقود المتبقية تستحق الاهتمام وبعض التفصيل. ولدي ميزانية هنا وضعها لي زوج عاطل عن العمل وزوجته. لقد طلبت منهما أن يسجلاً بأدق ما يمكن قائمة تمثل مصاريفهم في أسبوع نموذجي. كان بدل الرجل الممنوح من النقود اثنان وثلاثون شلن أسبوعياً ولديه ولدين بالإضافة إلى زوجته، عمر الولد الأول سنتان وخمسة شهور والثاني عشرة شهور. هذه هي القائمة: إيجار منزل ٩ شلن ونصف بنس، جمعية الثياب ٣ شلن، فحم ٢ شلن، غاز شلن و ٣ بنس، حليب ١٠ بنس ونصف، رسوم نقابة ٣ بنس، تأمين (للاولاد) ٢ بنس، لحم ٢شلن و٦ بنس، دقيق (حجرين) ٣ شلن و٤ بنس، خميرة ٤ بنس، بطاطا (١) شلن واحد، قطر دهن ١٠ بنس، سمنة نباتية ١٠ بنس، سكر شلن و ٩

بنس، مربى ٧ بنس ونصف، بازلاء وكرنب ٦ بنس، جزر وبصل ٦ بنس، شوفان كواكر ٤ بنس ونصف، صابون ومساحيق وصباغ ازرق الخ ١٠ بنس، المجموع جنيه و١٢شلن.

بالإضافة إلى هذه، ثلاثة رزم من الحليب المجفف تقدم للطفل أسبوعياً من مستوصف رفاهية الأطفال. نحتاج هنا إلى تعليق أو اثنين. لنبدأ بما حذفته القائمة كثيراً ـ الدهان الأسود والفلفل والملح والخل وعيدان الكبريت وشفرات الحلاقة واستبدال الأدوات وتآكل وتلف الأثاث وفرش الأسرّة، ذكرنا القلة الأولى التي خطرت على البال. أي مال يصرف على هذه سوف يعني إنقاص العناصر الأخرى. الكلفة الأكثر خطورة هي التبغ. صدف أن كان هذا الجد مدخناً بسيطاً لكن حتى بذلك فإن تبغه يكلف شلن على الأقل أسبوعياً مما يعني تقليص أكبر في حصة الطعام. جمعية الثياب التي يدفع لها كثيراً العاطلون عن العمل أسبوعياً يديرها كبار تجار الأقمشة في كل البلدات الصناعية. بدونها يكون من المستحيل للعاطلين عن العمل أن يشتروا ثياباً جديدة إطلاقاً. لا أعرف إن كانوا يشترون أو لا يشترون لوازم الأسرة من هذه الجمعيات. هذه العائلة الخاصة التي صدف أن عرفتها لا تملك تقريباً أي لوازم للنوم.

في القائمة السابقة، لو سمحت لصرف شلن على التبغ وأنقصت هذا ومواد الأخرى غير الغذائية فلا يبقى سوى ستة عشر شلناً وخمس بنسات ونصف. لنعتبرها ستة عشر شلناً ونخرج الطفل من الحسبة ـ لأن الطفل يحصل على الرزمة الأسبوعية من الحليب من مستوصف الرفاهية. يجب أن توفر هذه الشلنات الستة عشر قوتاً كاملاً، مع

الوقـود لثلاثـة أشـخاص، اثنـان مـنهم بـالغين. السـؤال الأول إن كـان بالإمكان ولو نظرياً أن يتغذى ثلاثة اشخاص بستة عشـر شـلن اسـبوعياً بشكل لائق. حين كان الجدال حول استطلاع الموارد قائماً كان هناك نزاع شعبي يثير الاشمئزاز حول المبلغ الاسـبوعي الأدنـى الـذي يمكـن أن يظل عليه الكائن البشري على قيد الحياة. وبقدر ما أتذكر، إحدى الكليات المختصة بالتغذية حسبتها بخمس شلنات وتسع بنسـات، بينما كليـة أخـرى، كانـت أكثـر كرمـاً، حسـبتها بخمـس شـلنات وتسـع بنسات ونصف. تلت ذلك رسائل للجرائد من عدد من الناس الذين ادعـوا بأنهم يطعمون أنفسهم بأربع شلنات في الأسبوع. هذه ميزانيـة (طبعت في نيو ستيتمان وفي نيوز اف ذا ورلد) اخترتها من بين عدد آخر: خبز لكـل الوجبات بشلن، نصف ليبرة سمن نباتي بنسين ونصف، نصف ليبرة دهن ٣ بنس، ليبرة جبنـة ٧بنس، ليبرة بصل بنس ونصـف، ليبرة جـزر بنس ونصـف، ليبرة بسـكويت مكسـر ٤ بـنس، ٢ ليبرة تمـر٦ بـنس، علبـة حليب مبخـر ٥ بـنس، ١٠ برتقـالات ٥ بـنس، المجمـوع ٣ شـلن و١١بنس ونصف.

أرجـو أن تلاحـظ بـأن الميزانيـة لم تضـع شـيئا للوقـود. في الحقيقـة صـرح الكـاتـب بوضـوح أنـه لا يسـتطيع أن يـدفع ليشـتري الوقـود وأنـه يأكل كل طعامه دون طبخ. إن كانت الرسالة حقيقة أو خدعة فهي لا تهم الآن. ما يجب الاعتراف به كما اعتقد أن هـذه القائمـة تمثل أكثـر إنفـاق عاقل يمكـن للخيـال استنباطه؛ إذ لا يمكنـك اسـتخلاص قيمـة غذائيـة أكثـر مـن تلك لـو كـان عليـك بـأن تعيش بثلاث شـلنات وأحـد عشـر بـنس ونصـف في الاسـبوع . لـذلك مـن الممكـن أن تغـذي نفسـك

بشكل ملائم بالاعتماد على معونة لجنة الإعانة الشعبية للبطالة أن ركزت على المواد الغذائية الأساسية وليس العكس.

والآن قارن هذه القائمة مع ميزانية العاطل عن العمل التي قدمتها من قبل. تصرف عائلة العاطل عن العمل عشرة بنسات فقط على الخضار وعشرة بنسات ونصف على الحليب (تذكر بأن أحدهم طفل عمره أقل من ثلاث سنوات) ولاشيء على الفاكهة؛ لكنهم يدفعون شلن وتسع بنسات على السكر (حوالي ثمانية باوندات من السكر) وشلن على الشاي. نصف الكراون الذي يصرف على اللحم يمكن أن تعادل كتلة صغيرة والمواد الأساسية لليخنة وفي أغلب الأحيان لا تعادل أربع أوخمس علب من لحم البقر المعلب. أساس غذاءهم الخبز الابيض والسمن النباتي ولحم البقر المملح والشاي المحلى والبطاطس، تغذية مرعبة. الن يكون من الاجدى لو صرفوا بعض المال على أشياء مفيدة مثل البرتقال والخبز الأسمر أو حتى لو أنهم مثل كاتب الرسالة إلى نيو ستيتسمان، وفروا النقود وأكلوا الجزر نيئاً؟ نعم يكون، لكن النقطة أن البشر العاديون يفضلون الجوع على العيش على الخبز الأسمر والجزر النيء. والشر الغريب هو أنه كلما كانت نقودك أقل قل ميلك لصرفها على طعام مفيد. قد يستمتع المليونير بالإفطار على كأس من عصير البرتقال وبسكويت ريفيتا أما العاطل عن العمل فلا يميل إلى ذلك. هنا النزعة التي تكلمت عنها في نهاية الفصل الأخير يأتي دورها. حين تكون عاطلاً عن العمل أي تغذيتك سيئة ومتضايق وضجران وتعيس لا ترغب في أكل غذاء مفيد ممل. هناك دائماً أشياء مرضية رخيصة تغريك. دعنا نأخذ ثلاثة أكياس من رقائق البطاطس ببنس! اركض

واحضر لنا بوظة ببسنين! هكذا يعمل عقلك عندما تكون على إعانة البطالة. خبز أبيض بالسمنة والشاي المحلى لا تغذيك بأي شكل لكنها أجمل (هذا ما يعتقد به أغلب الناس على الأقل) من الخبز الأسمر أو حتى أن الإسبيرين أفضل بكثير كمثير مؤقت من الخبز الأسمر. تظهر نتائج كل هذا في الانحلال البدني الذي يمكن دراسته مباشرة بالعين المجردة أو بشكل استنتاجي بإلقاء نظرة على الإحصائيات الحيوية. المعدل البدني منخفض بشكل مفزع في البلدات الصناعية وأدنى من لندن أيضاً. في شيفيلد يغامرك الإحساس بأنك تمشي بين سكان الكهوف. عمال المناجم رجال ممتازون لكنهم عادة صغار الحجم وحقيقة أن عضلاتهم صلبة جراء العمل المستمر لا يعني أن أولادهم سيبدؤون الحياة ببنية بدنية أفضل. بأي حال عمال المناجم بدنيا هم صفوة السكان. رداءة الأسنان هي أكثر علامة لسوء التغذية عند الجميع. في لانكشاير يلزمك وقتاً طويلاً من البحث لتجد شخصاً بأسنان طبيعية جيدة، لن ترى سوى قلة قليلة من الناس بأسنان طبيعية تماماً إذا استثنينا الأطفال وحتى الأطفال ترى مظهر زرقة خفيفة مما يعني نقص الكالسيوم كما أعتقد. اخبرني عدد كبير من أطباء الأسنان أن الشخص الذي تجاوز الثلاثين من عمره يحتفظ بأسنان ظاهرة شاذة في المناطق الصناعية. في ويغان اعترف لي أشخاص مختلفون بآرائهم بأنهم يفضلون التخلص من أسنانهم بوقت مبكر قدر الإمكان. (الأسنان مجرد بؤس) كما قالت لي إحدى النساء. في بيت واحد كنت أقيم فيه مع خمسة أشخاص كبيرهم في الثالثة والأربعين وصغيرهم في الخامسة عشر، طبعاً كان الصبي هو الوحيد الذي له أسنان طبيعية ومن الواضح أنها لن تعمر طويلاً. بالنسبة للإحصائيات

الحيوية في أي بلدة صناعية نسبة الوفيات ووفيات الأطفال في أفقر الأحياء تبلغ ضعف النسبة في الأحياء السكنية الثرية وفي بعض الحالات أكثر من ذلك بكثير- لا يحتاج هذا إلى تعليق.

طبعاً لا ينبغي أن نتخيل أن سبب البنية البدنية الرديئة السائدة هو البطالة فمن المحتمل أن البنية البدنية في كل انكلترا وليس في المناطق الصناعية فقط، قد انحدرت منذ وقت طويل. لا يمكن إثبات ذلك إحصائياً لكنه استنتاج يفرض نفسه لمجرد النظر في المناطق الراقية والبلدات المزدهرة على السواء. في اليوم الذي مر فيه جثمان الملك جورج الخامس في لندن في طريقها إلى ويستمنستر صدف أن احتجزت هناك ساعة أو ساعتين بسبب الازدحام في ساحة ترافيلغار. كان من المستحيل أن ينظر المرء حول نفسه دون أن يدهشه الانحلال البدني لانكلترا الحديثة. لم يكن أغلب الناس المحيطين بي من الطبقة العاملة وإنما كانوا أصحاب الحوانيت والتجار المتنقلين مع أثر من الثراء. لكن يا لهم من طقم! أطراف ضئيلة ووجوه مريضة تحت سماء لندن الباكية! يندر وجود رجل ذو بنية جيدة أو امرأة محترمة المظهر ولا أي بشرة نَظرة في أي مكان. حين مر تابوت الملك رفع الرجال قبعاتهم وقال صديق لي فيما بعد كان في الطرف الآخر من ستراند، أثر اللون الوحيد الذي تراه في كل مكان هو الرؤوس الصلعاء. حتى الحراس كما بدا لي – كانت فرقة من الحرس تستعرض بجانب الكفن – لم يكونوا كما اعتادوا عليه في السابق. أين الرجال الضخمين بصدورهم التي تشبه البراميل وشواربهم التي تشبه أجنحة النسور الذين يخطون خطوات واسعة، كنت أحدق بهم في الطفولة منذ عشرين أو ثلاثين سنة؟ لقد

دفنوا في أوحال فلاندر وبدلاً منهم وجد هؤلاء الصبية بوجوههم الشاحبة الذين اختيروا بسبب طولهم وبالتالي بدوا مثل سيقان حشيشة الدينار في معاطف - أصبح الواقع في انكلترا الحديثة، أن الرجل الذي طوله ستة أقدام عادة ما يكون هزيلاً ونحيلاً. لهذا إن انحدار البنية البدنية الإنكليزية يعود بلا شك إلى الحرب الكبرى التي انتقت بعناية أفضل مليون رجل في انكلترا وذبحتهم قبل أن يتوفر لهم الوقت للتناسل. لكن العملية بدأت قبل ذلك وسببها طريقة العيش غير الصحية أي التصنيع. لا أقصد عادة السكن في المدن فقد تكون المدن صحية أكثر من الريف، بأشكال كثيرة - بل التقنية الصناعية الحديثة التي توفر لك بدائل رخيصة لكل شيء. وقد نجد على المدى الطويل بأن الطعام المعلب أشد فتكا من البندقية الآلية.

من المزعج أن الطبقة العاملة الإنكليزية أو بالأحرى الأمة كلها عموماً جاهلة بشكل استثنائي بمسألة الغذاء ومبذرة. لقد أشرت سابقاً إلى فكرة العامل غير المؤهل، فلو قارناً بين العامل الفرنسي مع الانكليزي من حيث وجبة الطعام، لا أعتقد أنك سترى في البيت الفرنسي مثل هذا الهدر الذي تراه عادة في البيوت الإنكليزية. طبعاً لن ترى في أفقر البيوت التي كل أفرادها عاطلين عن العمل من الهدر الفعلي، لكن من يقدرون على ذلك يهدرون الكثير. ويمكنني أن أقدم مثالاً مروعاً على ذلك. هناك قليل من الهدر، عادة ما يخبز المرء خبزه الخاص في الشمال لأن المرأة المجهدة لا تستطيع أن تخبز إلا مرة أو مرتين في الأسبوع ومن المستحيل القول مسبقاً كم سيهدر من الخبز، لذلك ترمى كمية معينة بالعادة. إذ تخبز ستة أرغفة كبيرة واثنا

عشر رغيفاً صغيراً في المرة الواحدة. هذا كله جزء من موقف الانكليزي الكريم من الحياة وهي صفة جيدة لكنها كارثية في الزمن الراهن. يرفض الشغيلة الإنكليز في كل مكان وبحدود معرفتي شراء الخبز الأسمر؛ من المستحيل شراء خبز أسمر في منطقة عمالية. ويعللون ذلك بأن الخبز الأسمر قد يكون قذراً أحياناً. أشك بأن هذا هو السبب، في الماضي كان الخبز الأسمر يخلط مع الخبز الأسود الذي ترافق تقليدياً مع البابوية والأحذية الخشبية. لديهم الكثير من البابوية والأحذية الخشبية في لانكشاير ومن المؤسف عدم وجود خبز أسود لديهم بالمثل. لكن حاسة الذوق وخصوصاً ذوق الطبقة العاملة ترفض الطعام الجيد آلياً. ويزداد عدد الذين يفضلون البازلاء المعلبة والسمك المعلب على البازلاء والسمك الطازج ويشتري كثير من الناس القادرين حليباً معلباً بدلاً من الطازج حتى ذلك الحليب المخيف المكون من السكر وطحين الذرة المكتوب على علبته بأحرف كبيرة غير مناسب للأطفال. تجري في بعض المناطق الآن محاولات أكثر لتعليم العاطلين عن العمل عن الفوائد الغذائية وعن الإنفاق الذكي للنقود. عندما تسمع بهذا تشعر بالتناقض. وسمعت خطيباً شيوعياً على المنبر استحوذ عليه غضب شديد بسبب ذلك، وقال بأن سيدات المجتمع في الحزب الآن لديهن الجرأة لدخول بيوت ايست إند في لندن وإعطاء دروس في التسوق لزوجات العاطلين عن العمل. لقد قدم هذا كمثال عن عقلية الطبقة الحاكمة الانكليزية. أولاً أنت تشجب أن تعيش عائلة بثلاثين شلن في الأسبوع ثم لديك الوقاحة الكافية لتملي عليهم كيف يجب أن ينفقوا نقودهم. كان على حق وأنا معه من أعماق قلبي. ومع ذلك فإن الأمر محزن أن يتوجب على الناس التهام القذارة كالحليب

المعلب دون حتى أن يعرفوا بأنه أدنى مما تنتجه البقرة لمجرد غياب العرف الصحيح.

وأشك إن كان العاطلين عن العمل سيستفيدون أخيراً من تعلم صرف نقودهم بطريقة أكثر اقتصادية. لأن حقيقة كونهم غير اقتصاديين هي وحدها التي تبقي حصصهم عالية جداً. يحصل الرجل الانكليزي على إعانة البطالة الشعبية خمسة عشر شلناً أسبوعياً لأنه الحد الأدنى للمبلغ الذي يمكن تصوره للبقاء على قيد الحياة. لو كان حمالاً هندياً أو يابانياً يمكنه العيش على الأرز والبصل ولهذا فلن يحصل على خمسة عشر شلن أسبوعياً ويكون محظوظاً لو حصل على ذلك المبلغ شهرياً. صممت حصص البطالة عندنا رغم عدم كفايتها لتناسب السكان ذوي المستوى العالي جداً دون أي فكرة عن الاقتصاد. لو تعلم العاطلون عن العمل أن يكونوا مدراء أفضل فمن الواضح بأن حالهم سيكون أفضل وأتخيل بأنه لن يمر وقت طويل قبل أن تقلل حصة الإعانة الحكومية بالتماثل.

رخص الوقود هو التخفيف العظيم الوحيد للبطالة في الشمال. في أي مكان في مناطق الفحم سعر التجزئة للفحم حوالي شلن وستة بنسات للمئة كيلوغرام أما في جنوب انكلترا فهو بحوالي نصف كراون. إضافة أن عمال المناجم العاملين عادة ما يستطيعون شراءه من الحفرة بثمان أو تسع شلنات للطن الواحد ويبيعونه (كما أعتقد) لمن لا يعملون. لكن بالإضافة إلى هذا هناك سرقة منظمة للفحم من قبل العاطلين عن العمل. أدعوها بسرقة لأنها فنياً هي كذلك، رغم أنها لا تضر بأحد. توجد كمية محددة من الفحم المهشم في (القذارة) التي

ترسل من الحفر للأعلى ويصرف العاطلون جزء كبير من وقت العمل لإخراجه من أكوام المخلفات. كل اليوم ترى على تلك الجبال الرمادية الغريبة أشخاصاً يتجولون ذهاباً وإياباً بالأكياس والسلال عبر الدخان الكبريتي (كثير من أكوام المخلفات تحترق من الداخل) يخرجون كتل صغيرة من الفحم المطور. جاء بعضهم يقود دراجات مصنوعة منزلياً ـ دراجات مصنوعة من أجزاء صدئة من مكبات القمامة بدون سروج ودون سلاسل وبدون إطارات تقريباً ـ معلق بها أكياس فيها بقيمة خمسين باوند من الفحم ثمرة نصف يوم عمل من البحث. أوقات الإضرابات حين يكون الكل في حاجة للوقود، ينتقل عمال المناجم إلى المعول والمجرفة لينقبوا داخل أكوام المخلفات وفي قشرتها التي تشبه الربوة التي تتواجد في كل الأكوام. أثناء الإضرابات الطويلة، في الأماكن التي يوجد فيها طبقات بارزة من الفحم، يغرقون على السطح وينقلون قطع الفحم عشرات الياردات تحت الأرض.

في ويغان أصبح التنافس بين العاطلين عن العمل حول فضلات الفحم عنيف جداً وأدى إلى عادة غريبة سميت (التسلق من أجل الفحم) التي تستحق المشاهدة. وأتعجب لماذا لم تصور في فيلم بعد. أخذني أحد العاطلين عن العمل لأراها بعد ظهر أحد الأيام، وصلنا إلى المكان وهو سلسلة جبلية من أكوام النفايات القديمة مع سكة حديدية تخترق الوادي بالأسفل. رأيت مئات الرجال بأسمال بالية يحمل كل واحد كيساً ومطرقة فحم مربوطة تحت حواف معطفه وهم ينتظرون. عندما تأتي القذارة من الحفرة تعبأ في عربات تجرها قاطرة إلى قمة كوم نفاية آخر يبعد ربع ميل عن المكان وتتركه هناك. عملية تسلق الفحم

تتألف من الوصول إلى القطار وهو يتحرك؛ أي شاحنة تنجح في الركوب عليها وهي تتحرك تعتبر شاحنتك. حين يقترب القطار عالية يندفع مئة رجل بصرخة حماسية نحو المنحدر للامساك به وهو يلف المنعطف. حتى في العقدة يسير القطار بسرعة عشرين ميل في الساعة. يرمي الرجال أنفسهم على القطار ويمسكون بالحلقات التي في مؤخرة الشاحنات ويرفعون أنفسهم عالياً بواسطة المصدات، خمسة أو عشرة رجال في كل عربة. لا يلاحظهم السائق ويتابع القيادة إلى قمة كوم النفاية ويفصل العربة ويعيد المحرك إلى الحفرة ليعود في الحال بقافلة جديدة من العربات. ويكون هناك نفس الاندفاع العنيف للأشكال البالية كما حدث سابقاً.

مشينا إلى قمة كوم النفايات. كان الرجال يجرفون القذارة من الشاحنة بينما زوجاتهم في الأسفل وأولادهم جاثين يخربشون بأيديهم بسرعة في القذارة الرطبة وينتزعون كتل الفحم التي لا يزيد حجم واحدتها على البيضة. وترى امرأة تهجم على كسرة صغيرة من المادة تمسحها بمئزرها وتنعم النظر بها لتتأكد بأنها فحم وتدسها بحذر في كيسها. طبعاً عندما تركب على عربة لاتعرف مسبقاً ماذا فيها، فقد تكون وحلاً من الطرقات أو قد تكون صلصالاً من التسقيف. إن كانت عربة صلصال فلا يوجد فيها فحم لكن يوجد بين الصلصال حجر قابل للاشتعال يدعى كانيل ويبدو كالصلصال العادي لكن لونه أغمق وتعرف بانقسامها بخطوط متوازية، مثل الاردواز. ينتج عنها وقود مقبول، ليس جيداً لدرجة مفيدة تجارياً لكنه جيد لسعي متحمس عاطل عن العمل. يختار عمال المناجم الذين في عربات الصلصال

الكانيل ويقسمونه بمطارقهم. أما الناس الذين فشلوا في الصعود إلى أي من القطارين فكانوا في الأسفل يجمعون الكسر اللماعة الصغيرة من الفحم التي تتدحرج من الأعلى ـ كسر ليست أكبر من جوزة البندق لكن التقاطها كان يسعدهم.

انتظرنا هناك حتى افرغوا القطار. في غضون ساعتين نقى الناس القذارة حتى الحبة الأخيرة. علقوا أكياسهم فوق أكتافهم أو على دراجة وبدءوا برحلة مشي مجهدة طولها ميلين نحو ميغان. أغلب العائلات تجمع حوالي خمسين باوند من الفحم أو الكارميل لهذا يكون ما سرقوه خمسة أو عشرة أطنان من الوقود. تحدث سرقة عربات قطار القذارة يومياً في ويغان في أي ظرف في الشتاء وفي أكثر من منجم. طبعاً خطرة جداً. لم يصب أحداً عندما كنت هناك لكن قبل أسابيع قليلة من ذلك قطعت ساقي رجل وفقد آخر غيره عدة أصابع بعد أسبوع. من الناحية النظرية هي سرقة لكن الكل يعرف أن الفحم سيضيع إن لم يسرق . بين الفينة والأخرى تقاضي شكلياً شركات المناجم أحد الأشخاص لالتقاطه الفحم و تجد في الإصدار الصباحي للصحيفة المحلية فقرة تقول بأن رجلين غرماً بعشرة شلنات لكن دون ذكر للمحاكمات ـ وفي الحقيقة كان أحد الرجلين الذين سمتهما الصحيفة معنا عند الأكوام في اليوم الذي كنت فيه هناك ـ وتعهد ملتقطي الفحم بدفع غراماتهم. لقد اعتبر الأمر بديهياً. الكل يعرف بأن العاطلين عن العمل يجب أن يحصلوا على بعض الوقود. لهذا كل يوم مئات من الرجال يعرضون حياتهم للخطر وتمضي مئات النساء أيضاً ساعات طويلة في التفتيش في الوحل من أجل خمسين باوند من الوقود لا

تساوي قيمته تسع بنسات.

يبقى المشهد في ذهني إحدى صوري عن لانكشاير: نساء قصيرات بدينات مغطيات بشال جاثيات في الوحل الرمادي والريح القاسية بمآزرهن القماشية وقباقيبهن السود الثقيلة يفتشن بحماس عن قطع الفحم الصغيرة وهن سعيدات بذلك. في الشتاء يكن في أمس الحاجة للوقود ويعتبر أهم من الطعام تقريباً. في هذه الأثناء وفي كل مكان وعلى مدى النظر أكوام المخلفات وروافع الأجهزة الناقلة للمناجم ولا يستطيع أي منجم منها أن يبيع كل الفحم القادر على إنتاجه. هذا ينبغي أن يناشد ميجور دوغلاس.

الفصل السابع

حين تسافر إلى الشمال الشرقي لا تلاحظ عيناك اللتان الفتا الجنوب أو الشرق أي اختلاف كبير حتى تتجاوز بيرمينغهام. في كوفنتري و فينسبيري بارك أيضاً وبول رينغ في بيرمنغهام التي لا تختلف عن نورويتش ماركت وبين كل مدن الأراضي الوسطى تنتشر هناك حضارة الفيلات التي لا تتميز عن الجنوب. لا تبدأ بملاقاة قبح التصنيع قبل أن تبتعد أكثر نحو الشمال وتصل إلى مدن الفخار وتتجاوزها، ذلك القبح المخيف والآسر للنظر لدرجة يجبرك على قبوله .

كوم النفايات شيء شنيع في أفضل حالاته لأنه بلا هدف أو وظيفة. شيء مكوّم على الأرض مثل تفريغ حاوية قمامة عملاقة. هناك مناظر طبيعية ريفية مرعبة في ضواحي مدن التعدين حيث تطوق جبال رمادية مثلمة أفقك تماماً وتحت أقدامك الوحل والرماد وفوق رأسك الأسلاك الفولاذية التي تنتقل عليها أحواض الوحل ببطء وهي تعبر مسافات طويلة في قلب الريف. غالباً ما تكون أكوام النفايات مشتعلة، فترى في الليل أنهراً حمراً من النار تتعرج بهذا الدرب أو ذاك واللهب الكبريتي الأزرق

المتحرك ببطء الذي يبدو دائماً على وشك لفظ أنفاسه الأخيرة لكنه يثب فجأة دائماً. حتى عندما يغور كوم النفايات كما يحصل أخيراً لا ينمو عليه سوى عشب بني كريه ويحتفظ بسطحه الناتئ. وقد استخدم في أحد شوارع ويغان القذرة كملعب لكنه بدا مثل بحر متلاطم الأمواج تجمد فجأة؛ (حشوة الفراش) كما سموه محلياً. بعد قرون من الآن عندما يمر المحراث فوق الأماكن التي نجم فيها عن الفحم سابقاً ستظل مواقع أكوام النفايات مميزة من الطائرة.

أتذكر عصر يوم شتوي في ضواحي ويغان البغيضة. كل ما يحيط بك المنظر القمري لأكوام النفايات والى الشمال عبر الحواجز كما لو كانت بين جبال من مخلفات البراكين ترى مداخن المعامل وهي تنشر غيوم الدخان. ممر القناة كان خليطاً من الجمر المطفأ والوحل المتجمد الذي قطعته آثار القباقيب التي لا تحصى، وتمتد في كل المحيط وصولاً إلى أكوام النفايات البعيدة الومضات ـ وهي برك من المياه الراكدة التي تسربت إلى التجاويف التي سببها انخساف الحفر القديمة. كان الجو بارداً بشكل رهيب وغطى الومضات جليد بلون بني مصفر وحجبت أكياس رجال المراكب عن النظر والتحت البوابات المقفلة بالجليد. بدا عالماً طردت منه الحياة النباتية وليس فيه سوى الدخان والصلصال والوحل والمياه القذرة. لكن حتى ويغان تبدو جميلة مقارنة بشيفيلد. شيفيلد اعتقد بأنني أستطيع أن أطلق عليها أبشع بلدة في العالم القديم: سكانها الذين أرادوا أن تتفوق قدموا هذا الطلب من أجلها. يبلغ سكانها نصف مليون وفيها عدد من الأبنية المقبولة أقل مما هو موجود في أي قرية انكليزية في الشرق تعدادها خمس مئة شخص.

والرائحة الكريهة! لو حدث في لحظات أنك لم تعد تشم فيها رائحة الكبريت فإنك ستبدأ بشم رائحة الغاز بدلاً منها. حتى لون النهر الضحل الذي يجري في البلدة فهو اصفر ساطع بسبب مادة كيمائية أو أخرى. توقفت مرة وأحصيت عدد مداخن المعامل التي استطعت أن أراها، فكانت ثلاث وثلاثون مدخنة ولولا الظلام الذي شكله الدخان لكان هناك عدد أكثر بكثير من ذلك. لقد احتفظت ذاكرتي بأحد تلك المناظر بشكل خاص. بقعة مخيفة من أرض خالية (بطريقة أو بأخرى، توجد هناك بقعة ارض خالية تصل إلى درجة من القذارة يستحيل مثيلها حتى في لندن) خلت من العشب ولوثت بالجرائد وقدور الطبخ القديمة. إلى اليمين صف معزول من البيوت بلونها الأحمر الغامق التي اسودت من الدخان. على اليسار منظر لمداخن المصانع الواحدة تلو الأخرى التي تتلاشى في ضباب مسود مبهم. وورائي جسر لسكة الحديد مصنوع من بقايا الأفران. أمامي، عبر بقعة الأرض الخالية بناء مكعب الشكل من الآجر الأحمر والأصفر، بعلامة (توماس غروكوك، متعهد نقل العربات).

في الليل حين لا يمكن رؤية الأشكال الشنيعة للبيوت ويغطي اللون الأسود كل شيء، تبدو مدينة مثل شيفيلد كنوع من الجلال المنحوس. أحياناً تضغط تيارات من الدخان الكبريتي الوردي والسنة اللهب المتفرقة مثل مناشير دائرية نفسها لتخرج من تحت أغطية مداخن صهر المعادن. من خلال أبواب معامل سبك المعادن المفتوحة ترى أفاع مشتعلة من الحديد يحملها ذهاباً وإياباً صبية مضاعين بلون احمر وتسمع صوت ضربات المطارق البخارية وأزيزها وصرخات الحديد تحت الضربة. مدن

الفخـار متسـاوية في القـبح تقريبـاً بطريقـة تافهـة. بـين صـفوف البيـوت المسـودة الصـغيرة وعلـى استقامتها في جـزء مـن الشـارع هنالـك مـداخن قرميـد مخروطيـة مثـل قنـاني خمـر فرنسـية عملاقـة مدفونـة في الـتراب تنفـث دخانهـا في وجهـك. ثم تواجـه فجـوات هائلـة مـن الصلصـال طـول واحدتها مئات الأقدام ولا يقل عمقها عن ذلك أيضـاً مـع أحـواض صـدئة صغيرة تتسلق ببطء سلسلة سكة حديدية من جانب وعلى الجانب الآخر عمال معلقين مثل جامعي الياقوت يحفرون بمعاولهم وجه الجرف. مـررت بذلك الطريق في جو مثلج وكـان الثلج أسـوداً أيضـاً. أفضـل شـيء يـراه المرء في مدن الفخار صغر حجمها النسبي وتوقفها المفاجئ. علـى مسـافة أقل من عشرة أميال يمكنك أن تقف في ريف غير ملوث على تلاله شبه الجرداء تبدو منها بلدات الفخار مجرد لطخة بعيدة.

حـين تفكـر في قـبح كهـذا يخـامرك سـؤالان، الأول: هـل هـذا محتوم؟ الثاني: هل هذا مهم؟

لا أعتقـد أن في التصـنيع شـيء مـوروث وقـبح لا يمكـن تجنبـه. المصـانع وحتـى معامل الغـاز ليسـت ملزمـة بطبيعتهـا بـأن تكـون قبيحـة أكثر من القصر أو وجر الكـلاب أو الكـاتدرائيـة. ويعتمـد كـل شـيء على التقليد المعمـاري للفـترة. البلـدات الصـناعية في الشـمال قبيحـة لأنهـا صـدف أنهـا بنيـت في زمـن عرفـت فيـه الوسـائل الحديثـة للبنـاء الفـولاذي ومخففـات الـدخان وعنـدما شـغل جمـع المـال كـل النـاس وصـرفهم عـن الاهتمام بأي شيء آخر. استمرت بالقبح لأن الشماليين اعتادوا على ذلك النوع من الشيء ولم يلاحظوه. لو استنشق كثير من الناس في شيفيلد أو

مانشستر الهواء على طول كورنيش كليفز سيؤكدون بأنهم لا يشمون أي رائحة فيه. لكن منذ الحرب اتجهت الصناعة للانتقال جنوبا وبفعل هذا أصبحت أكثر وسامة. المصنع النموذجي لفترة ما بعد الحرب ليس عبارة عن بناء ضخم كئيب أو فوضى مرعبة من السواد والمداخن المتجشئة وإنما بناء أبيض بهي من الاسمنت المسلح والفولاذ والزجاج محاطاً بمروج خضراء ومسابك أزهار الخزامى. انظر إلى المصانع التي تمر بها حين تسافر من لندن بسكة الحديد الغربية الكبرى؛ قد لا تكون انجازات جمالية ناجحة لكنها بالتأكيد ليست بقبح مصانع الغاز في شيفيلد. على أي حال، يظل القبح هو أوضح شيء في التصنيع وأي قادم جديد يحتج ضده، وأشك إن كان مهم جدا. وربما غير مرغوب، التصنيع كما هو عليه، يجب أن يتعلم إخفاء نفسه بشيء آخر. كما لاحظ السيد ادولس هاكسلي بصدق، مصنع شيطاني مظلم ينبغي أن يبدو مثل مصنع شيطاني مظلم وليس كمعبد آلهة غريبة وغامضة. علاوة على ذلك حتى في أسوأ المدن الصناعية يمكن أن يرى المرء الكثير مما هو ليس قبيحا بالمعنى الجمالي الضيق. المدخنة التي تقذف الدخان أو الأحياء الفقيرة النتنة منفرة أساسا لأن فيها أرواح بائسة وأطفال مرضى. انظر إليها من وجهة نظر جمالية بحتة فقد تجدها ذات جاذبية رهيبة معينة. العادة أن كل ما هو غريب بشكل مفرط يسحرني في النهاية حتى وان كنت اكرهه بقوة. ظلت مناظر بورما الطبيعية وغيرها ترعبني كما لو كانت كابوسا، وتنتاب أفكاري حتى أجبرت بأن أكتب رواية عنها لأتخلص منها. (في كل الروايات التي عن الشرق المنظر الجميل هو الموضوع الحقيقي المهم). قد

يكون من السهل استخراج نوع من الجمال كما فعل أرنولد بينيت من سواد المدن الصناعية ويمكن للمرء تخيل بودلير بسهولة مثلاً وهو يكتب قصيدة عن كوم مخلفات. لكن جمال وقبح التصنيع قلما كان مهما. يكمن شره على عمق كبير ولا يمكن استئصاله. من المهم أن نتذكر هذا، بسبب وجود إغراءات دائمة للتفكير بأن التصنيع غير ضار طالما انه نظيف ومرتب.

لكن عندما تذهب إلى الشمال الصناعي تشعر، بمعزل تام عن المنظر غير المألوف وبأنك تدخل دولة غريبة. هذا جزئياً بسبب وجود اختلافات حقيقية معينة لكن الأهم بسبب تناقض الشمال والجنوب الذي انصقل داخلنا منذ زمن طويل في الماضي. توجد في انكلترا عبادة غريبة للشمال ونوع من الغطرسة الشمالية. الشخص الذي من يوركشاير حين يكون في الجنوب يحرص دائماً أن يدعك تعرف بأنه يعتبرك شخصاً أدنى ولو سألته لماذا سيعلل ذلك أنه لا توجد حياة حقيقة إلا في الشمال وأن العمل الصناعي في الشمال هو العمل الحقيقي الوحيد وان الشمال لا يقطنه إلا الناس الحقيقيين وأن الجنوب ليس فيه سوى أصحاب الدخول وطفيلييهم. الشمالي لديه (العزم) وهو صلب وصارم ومقدام وطيب القلب وديمقراطي أما الجنوبي فهو متكبر ومخنث وكسول ـ هي نظرية على أي حال. لهذا يذهب الجنوبي إلى الشمال للمرة الأولى بعقدة نقص غامضة لرجل متحضر يغامر وسط همجيين بينما يأتي ابن يوركشاير إلى لندن كالاسكتلندي بروح البربري الخارج إلى النهب. هذه المشاعر هي نتيجة للتقاليد ولا تتأثر بالوقائع المرئية. كالانكليزي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام وأربع بوصات

ومحـيط صـدره تسـع وعشـرين بوصـة ويظـن بأنـه متفـوق بـدنياً علـى البلطيقـي ـ كـاميرا (كـاميرا كونـه داغـو)، وهـكـذا مـع الشـمالي والشرقي. أتذكر أن رجلاً صغير الحجم وشديد الهزال من يوركشاير، الـذي يهـرب لـو نـبح عليـه كلـب صـغير، أخبرنـي بأنـه شـعر في الجنـوب كغازي متوحش. لكن الإعجاب تبنوه أشخاص أكثرهم غير شماليين بالمولد. منذ سنة أو سنتين أخذني أحد أصدقائي الذي تربى في الجنـوب ويعيش الآن في الشمال بسيارته عبر سـوفوك ومررنـا بقرية جميلة نوعـاً ما. نظر باستهجان إلى البيوت الصغيرة وقال:

طبعاً أغلب القرى في يوركشاير بشعة لكن أهلها رجـال ممتـازون. أما هنا فعلى العكس تماماً ترى قرىً جميلة وناساً فاسدين. كل الناس الذين في تلك البيوت تافهون تماماً.

لم أستطع أن أمنع نفسي من السـؤال إن كـان قـد عـرف أحداً مـن تلك القرية فأجاب لا، لكن بما أن هـذا هـو الشـرق الانكليـزي فكـل من فيـه تافـه. صـديق آخـر لـي أيضـاً جنـوبي بـالولادة لا يضـيع أي فرصـة لمدح الشمال لذم الجنوب. هـذا مقتطف من إحدى رسـائله لي:

أنا في كاليثيرو، لينز...اعتقد أن المياه الجارية جذابة أكثر في بلاد الجبـال والمسـتنقعات مـن الجنـوب المترهـل والكسـول. (ترنـت الفضـي المتعجـرف)، كمـا قـال شـكسـبير؛ وأنـا أقـول الجنـوبي الأشـد تعجرفـا. (ترنت نهر في وسط إنكلترة ـ المترجم)

هذا مثال عن إعجاب الشـماليين الشـديد بأنفسـهم. لم يصـفك أنت أو أنا ولا حتى كل جنوبي أيضاً بالبدين والكسول بل حتى الماء عنـدما

يتجاوز شمال خط عرض معين لا يظل ذرتان من الهيدروجين وذرة من الأكسجين وإنما يصبح شيئاً أرفع على نحو غامض. لكن أهمية هذا المقطع لكون الكاتب رجل ذكي جداً وذو أراء تقدمية وليس لديه سوى احتقار القومية في شكلها العادي. لو سلمنا بصحة هذا الافتراض: (بريطاني واحد أفضل من ثلاثة أجانب) لرفض ذلك برعب. لكن عندما يتعلق الأمر بالشمال مقابل الجنوب هو على استعداد تام للتعميم. كل الامتيازات القومية ـ كل الادعاءات بالتفوق على الآخر بفضل اختلاف شكل الجمجمة أو للهجة هي زائفة تماماً لكنها مهمة طالما يعتقد بها الناس. لا يوجد شك حول قناعة الرجل الإنكليزي الفطرية بأن الذين يعيشون على جنوبه أدنى منزلة حتى أن ذلك يتحكم بسياستنا الخارجية إلى حد ما. لذلك أعتقد أن الإشارة إلى زمن ظهور هذه الظاهرة وأسبابها يستحق العناء.

حين أصبحت القومية ديناً لأول مرة حين نظر الإنكليز إلى الخريطة ورأوا بأن جزيرتهم تقع في مكان عالي جداً في نصف الكرة الشمالي، استنبطوا نظرية ترضيهم وتقول كلما ابتعدت في العيش شمالاً كلما زادت فضائلك. تبدأ عادة علوم التاريخ التي تعلمتها في الصغر بأغبى تعليل بأن الطقس البارد يجعل الناس نشيطين وأن الحار يجعلهم كسالى ولهذا انهزم الأسطول البحري الإسباني. هذا الهراء عن تفوق طاقة الانكليز (فعلياً أكسل أمة في أوروبا) ظل سائداً مئة عام على الأقل. وكتبت مجلة ربعية في العام ١٨٢٧ بعنوان (أن يحكم عليك بالعمل لصالح بلادنا أفضل لك من حياة مترفة بين الزيتون والعنب والرذائل.) الزيتون والعنب والرذائل تلخص الموقف الانكليزي

العــادي اتجــاه الســلالات اللاتينيــة. ﬂ أســاطير غارليــل وكــريســي وغيرهـم، يصـور الشـمالي (التيوتـوني والنـوردي لاحقـاً) علـى أنـه رجـل جبـار ضـخم الجثـة بشـاربين أشـقرين وأخـلاق طـاهرة بينمـا الجنـوبي ماكر وجبان وفاسق. هذه النظرية لم تستكمل نهايتها المنطقيـة الـتي ستؤدي إلى أن أروع شعب ﬂ العالم هم الاسكيمو لكنها لم تشر إلى أن الشعوب التي تعيش ﬂ شمالنا متفوقون علينا. لهذا وسم جزئيـاً حـب اسـكتلندا والأشياء الاسـكتلندية الشـديد الحيـاة الانكليزيـة بعمـق خـلال الخمسـين سـنة الماضية. لكـن التصنيع هـو الـذي أعطـى تضـاد الشـمال والجنـوب انحرافـه الغريـب. حتـى وقـت حـديث نسـبياً كـان القسم الشمالي ﬂ انكلترا متخلفاً وإقطاعياً لهذا تركـزت الصناعة ﬂ لندن وﬂ الجنوب الشرقي. ﬂ الحرب الأهلية مثلاً، التي هـي حـرب بين المال والإقطاعية صراحة كان الشمال والغرب مـع الملك والجنـوب والشرق مع البرلمان لكن مع زيادة استخدام الفحم عبرت الصناعة إلى الشمال وربت نموذجاً جديداً من البشر هناك، رجل الأعمـال الشـمالي العصـامي ـ السـيد راونسـويل والسـيد باونـدرباي عنـد ديكنـز. رجـل الأعمـال الشـمالي بفلسـفته البغيضـة (تقـدم أو اخـرج) كـان المظهـر المهيمن ﬂ القرن التاسـع عشـر ونـوع مـن الكيـان الاسـتبدادي الـذي لا يزال يحكمنا. هذا هو النموذج الذي ثقفه ارنولد بينيت ـ النموذج الذي يبدأ بنصف كراون وينتهي بخمسين ألف جنيه ومفخرته الرئيسية بأنه ظل فلاحاً أكثر سذاجة بعد أن كسب نقوده. بتحليل حسنته الوحيدة يتبين أنه موهوب ﬂ جمع المال. نحن احترمناه رغم أنه قد يكون ضيق الأفق ومثير للقرف وجاهل وجشع وأخرق لكن لديه (العـزم) و(يتقـدم)

أي أنه يعرف كيف يجمع المال.

هـذا النـوع مـن الانحـراف هـو مفارقـة تاريخيـة صـرفة في الوقـت الحاضر لأن رجل الأعمال الشمالي لم يعد ناجحاً وثرياً. لكـن التقاليـد لا تتلفها الحقائق وظل تقليد عزم الشمالي موجوداً. لا يزال هناك شـعور غامض بأن الشمالي يتقدم أي يجمع المال والجنوبي يفشل. في باطن عقل كل يوركي أو اسكتلندي قادم إلى لندن صورة من نوع ديك وتينغتون الصبي الذي بدأ ببيع الصحف وانتهى عمدة للمدينة. وذلك حقيقة منتهى غـروره واسـتهجانه. لكـن يمكـن للمـرء ارتكـاب خطـأ جسيم عنـدما يتخيل أن هذا الشعور يمتد ليشمل الطبقة العاملة. في المرة الأولى التي ذهبـت فيهـا إلى يوركشـاير منـذ سـنين تخيلـت بـأنني ذاهـب إلى بـلاد الفلاحين. اعتدت على اليوركي الذي يعيش في لندن بخطاباته التي لا تنتهي وافتخاره بلهجته اللاذعة (قطبة في وقتها تنجيك مـن تسـع) كمـا نقول في الدوائر الغربيـة وتوقعت أن استقبل بفظاظة كبيرة لكني لم أجد ذلك بين كل عمال الفحم على الأقل . في الحقيقة لقد عـاملني عمال يوركشاير ولانكشاير بلطف واحترام مربكين. ولو كان هنـاك شخص اشعر بأنني أدنى مرتبة منه فسيكن عامل منجم الفحم. طبعـا لم يبد أي شخص أي علامة احتقار لي لأنني قادم مـن قسم مختلف مـن الـبلاد. هـذا لـه أهميتـه عنـدما يتـذكر المـرء بـأن التكـبر الإقليمـي الانكليزي هو قومية مصغرة ولأنه يوحي بأن الافتخار بالمكان هو ليس صفة للطبقة العاملة.

رغم ذلك يوجد اختلاف حقيقي بين الشـمال والجنـوب كمـا يوجـد

اثر من الحقيقة على الأقل بأن صورة جنوب انكلترا كشكل مكبر لمدينة برايتون التي يقطنها المتكئون على الأرائك الكسالى - برايتون مدينة اصطياف في جنوب شرق انكلترا.لأسباب مناخية تميل الطبقة الطفيلية التي تسحب أرباح أسهها إلى الاستقرار في الجنوب.

في لانكشاير مدينة القطن يمكن أن تمضي أشهراً دون سماع لهجة (مثقفة) بينما يندر وجود بلدة في الجنوب ترمي فيها قرميدة دون أن تصيب ابنة أخ أسقف. بناء على ذلك دون الطبقة الارستقراطية التافهة التي تحدد المسار فإن تبرجز الطبقة العاملة يتم ببطء رغم أنه يحدث في الشمال. كل اللهجات الشمالية مثلاً تثابر بقوة بينما انهارت لهجات الجنوب قبل زمن السينما ومحطة البي بي سي. لذلك تسمك لهجتك المتعلمة كأجنبي أكثر من كونك قرمة من الطبقة الارستقراطية الصغيرة وهذه فائدة هائلة لأنها تسهل تواصلك مع الطبقة العاملة.

لكن هل من الممكن حقيقة أن تكون حميماً مع الطبقة العاملة؟ سأناقش ذلك لاحقاً؛ ولن أقول هنا سوى أنني لا أعتقد أن هذا ممكن. لكن بلا شك أن تلتقي بأفراد من الطبقة العاملة بشروط مساوية تقريباً في الشمال أسهل من الجنوب. العيش في بيت عامل منجم وقبول أهله بك كفرد من العائلة أسهل كثيراً من العيش مع عامل مزرعة في الأقاليم الجنوبية التي قد يكون ذلك فيها مستحيلاً. رأيت ما يكفي من أفراد الطبقة العاملة ليجنبني تصويرهم بالمثاليين لكنني أعرف تماماً بأنك ستتعلم الكثير لو استطعت الوصول إلى هناك. النقطة الجوهرية أن مفاهيم الطبقة الوسطى وميولها توضع على المحك بالتواصل مع الآخرين

الذين هم ليسوا أفضل بالضرورة لكنهم مختلفون بالتأكيد.

خذ مثلاً الموقف المختلف تجاه العائلة. تتماسك عائلة العامل معا كعائلة الطبقة الوسطى لكن العلاقة فيها أقل استبدادية بكثير. لا يرزح العامل تحت عبء هيبة العائلة القاتل الملتف حول عنقه كحجر الرحى. أشرت سابقاً أن الفرد من الطبقة الوسطى يدمره تأثير الفقر تماماً؛ وعموماً هذا بسبب سلوك عائلته ـ بسبب علاقاته الكثيرة التي تضايقه وتزعجه ليلاً ونهاراً لفشله بتحقيق (التقدم). كما أن حقيقة أن الطبقة العاملة تعرف كيف تتحد والطبقة الوسطى لا تعرف قد يكون بسبب مفاهيمهما المختلفة للولاء العائلي. لا يمكنك الحصول على نقابة فعالة من عمال الطبقة الوسطى لأن زوجة كل واحد منهم تقريباً ستحث زوجها للحلول محل عامل مضرب أثناء الإضرابات والحصول على وظيفة زميله الآخر. صفة أخرى مقلقة في البداية من صفات الطبقة العاملة، خطابهم البسيط نحو أي كل من يعتبرونه ندا لهم. لو قدمت شيئا لعامل لا يريده فهو يقول لك بأنه لا يريده؛ أما فرد الطبقة الوسطى سيقبله كي يتجنب الإساءة. وخذ أيضاً موقف العامل من (التعليم) كم هو مختلف عن موقفنا وكم هو سليم! يكن العمال تبجيلاً غامضاً للتعلم من الآخرين في أكثر الأحيان لكنه حين يؤثر التعليم على حياتهم الخاصة يتحققون منه ويرفضونه بغريزة سليمة. في الوقت الذي كنت أرثي فيه صورة خيالية مستقبلية لصبية في الرابعة عشر تخلفوا عن رفاقهم محتجين على دروسهم وبدؤوا بالعمل في وظائف كئيبة وبدا لي مرعبا أن يقع قدر الوظيفة على صبي في الرابعة عشر. طبعاً أعرف أنه لا يوجد ولا صبي واحد في الألف من أولاد الطبقة العاملة لا يتوق إلى

اليوم الذي سيترك فيه المدرسة. فهو يريد أن يعمل عملاً حقيقياً وليس تضييع وقته في ترهات سخيفة كالتاريخ والجغرافية. تعتبر الطبقة العاملة فكرة البقاء في المدرسة حتى يصبح الصبي بالغاً خسيسة وغير رجولية. فكرة الصبي الكبير ابن الثامنة عشر الذي يجب أن يجلب جنيه إلى البيت أسبوعياً ويعطيه لأهله، الذهاب إلى المدارس بالزي الرسمي السخيف والتعرض للضرب بالعصا لعدم القيام بدروسه أيضاً! تخيل فقط صبي من العمال في الثامنة عشر يسمح لنفسه بأن يضرب بعصا! هو رجل بينما الآخر لا يزال طفلاً. ايرنست بونتيفكس في طريق كل البشر لصاموئيل بتلر، بعد أن حصل على لمحات قليلة من الحياة الواقعية، نظر إلى تعليمه في المدرسة الخاصة والجامعة ووجده (فسوق موهن وسقيم). يوجد كثير من حياة الطبقة الوسطى الذي يبدو سقيماً وواهناً عند النظر إليه من وجهة نظر الطبقة العاملة.

تتنفس في بيت العامل ـ أنا لا أفكر في هذه اللحظة بالعاطل عن العمل بل بالبيوت المزدهرة بالمقارنة ـ هواء إنسانياً مليء بالدفء والاحترام الذي لا تجده في أي مكان آخر. يجب أن أقول أن العامل اليدوي إن كان في عمل ثابت وينال أجراً جيداً ـ ولو كان في ازدياد دائم ـ ستتوفر له فرصة أفضل من الرجل المثقف. ويبدو بأن حياته المزرية تأخذ شكلاً سليماً ولائقاً بشكل طبيعي. لقد اندهشت مرات كثيرة بالكمال السهل والمتميز، كما لو كان تناسقاً مثالياً، للشؤون الداخلية للطبقة العاملة في أفضل حالاتها. خصوصاً في أمسيات الشتاء بعد الشاي حين تتوهج النار في الموقد المفتوح وتتراقص ظلالها على الحاجز الحديدي وعندما يجلس الأب بأكمام قميصه في كرسيه الهزاز بجانب أحد أطراف

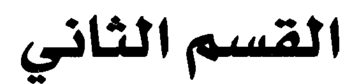
الموقد وهو يقرأ نهائيات السباق وتجلس الأم على الطرف الآخر مع معدات الحياكة والأولاد سعداء بحلوى النعناع الرخيص ويتراخى الكلب وهو يدفئ نفسه على ممسحة الأرجل ـ إنه مكان جيد لتكون فيه شرط أن لا تستطيع أن تكون داخله فقط بل ومكتفياً منه أيضاً كأمر بديهي.

يتكرر هذا المشهد في اغلب البيوت الانكليزية، لكنه ليس بكثرة فترة ما قبل الحرب. تعتمد سعادته أساساً على مسألة وحيدة ـ إن كان الأب على رأس عمله. لكن لاحظ الصورة التي استدعيتها لعائلة فرد من الطبقة العاملة تجلس حول نار الفحم بعد وجبة سمك وبعد الشاي الثقيل وتنتمي إلى زمننا فقط ولا تنتمي إلى المستقبل ولا الماضي. اقفز مائتي عام داخل المستقبل إلى المستقبل الطوباوي وسيختلف المشهد تماماً ويصعب استمرار وجود أي شيء مما تخيلته هناك. في ذلك العصر عندما لن يظل أي عامل يدوي ويكون الكل (متعلماً)، من غير المحتمل أن يظل الأب رجلاً خشناً بيدين كبيرتين ويحب الجلوس بأكمام قميص ويقول (آه وصلت الحرب إلى شارعنا) . ولن يكون هناك نار فحم في الموقد بل شيء ما من التدفئة المخفية. سيكون الأثاث مصنوعاً من المطاط والزجاج والحديد. وان ظلت أشياء مثل صحف المساء فلن تظل فيها أخبار السباقات بالتأكيد لأن القمار لن يظل له أي معنى في عالم ليس فيه فقر وسيختفي الحصان عن وجه الأرض وستقمع الكلاب أيضاً لأسباب صحية ولن يكون هناك الكثير جداً من الأطفال إن فعل المسيطرون على الولادات ما يريدون. لكن لو انتقلنا عائدين إلى العصور الوسطى فسنكون وسط عالم غريب مشابه.

البيوت الصغيرة التي لا نوافذ لها ونار الحطب التي تدخن في وجهك لعدم وجود مدخنة والخبز المتعفن، بورجون والقمل والإسقربوط وولادات الأطفال السنوية ووفياتهم والقس الذي يرعبك بقصصه عن الجحيم.

ليست الغرابة في انتصارات الهندسة الحديثة ولا المذياع ولا الفن السينمائي ولا الخمسة آلاف رواية التي تنشر سنوياً ولا الحشود في اسكوت وايتون ومباراة هارو بل بذكرى الشؤون الداخلية للطبقة العاملة التي تذكرني بأن عصرنا لم يكن كله عصراً سيئاً للعيش خصوصاً كما كنت أراها أحياناً في طفولتي قبل الحرب حين كانت انكلترا مزدهرة.




القسم الثاني



الفصل الأول

الطريق من ماندالي إلى ويغان طويل وأسباب طرقه ليست واضحة بعد.

في الفصول السابقة من الكتاب قدمت وصفاً بسيطاً ومجزئاً لأشياء متنوعة رأيتها في مناطق الفحم في لانكشاير ويوركشاير. ذهبت هناك لأرى البطالة الجماعية في أسوأ ظروفها وأرى الفئة النموذجية من الطبقة العاملة الانكليزية عن قرب أيضاً. هذا ضروري كجزء من مقاربتي للاشتراكية فقبل التأكد من كونك مؤيداً حقيقياً للاشتراكية يجب أن تقرر إن كانت الأشياء في الزمن الحاضر تطاق أم لا تطاق وأن تتخذ موقفاً محدداً من المسألة الطبقية الصعبة. هنا سوف استطرد واشرح كيف تطور موقفي نحو المسألة الطبقية. من الواضح أن هذا يتطلب كتابة بعض السرد لسيرتي الذاتية ولن أفعل ذلك إن لم اقتنع بأني نموذج كاف لطبقتي أو طبقة ثانوية ليكون للأمر بعض الأهمية العرضية.

ولدت في ما يمكن وصفه بأدنى مستوى من أعلى فئة من الطبقة الوسطى. كانت الطبقة الوسطى العليا التي شهدت مجدها في الثمانينيات والتسعينيات (من القرن التاسع عشر) حين كان كيبلينغ شاعرها المكلل بالغار، كوم ركام وخراب خلفه تراجع مد الازدهار الفيكتوري وراءه. أو ربما من الأفضل تبديل الاستعارة ووصفها ليس ككومة بل كطبقة ـ الطبقة الاجتماعية الواقعة بين ٢٠٠٠جنيه و٣٠٠جنيه سنوياً: عائلتي لم تكن بعيدة عن ذلك الحد الأدنى. لاحظ بأنني أعرفها على أساس النقود لأنها أسرع طريقة للإفهام. لكن النقطة الأساسية في نظام الطبقات الإنكليزية أنه غير مفسر كله على ضوء المال. بصراحة هو فصل طبقي مالي، لكنه مخترق بنوع من نظام طوائف مبهم؛ مثل كوخ صغير سيء تسكنه أشباح القرون الوسطى. لذلك تمتد الطبقة الوسطى من دخول قليلة مثل ٣٠٠ جنيه سنوياً أو أقل من ذلك بكثير في دخول أفراد الطبقة الوسطى الذين ليست لديهم أي ذرائع اجتماعية. هناك دول يمكنك تكهن رأي الرجل فيها من خلال دخله، لكن ليس من الآمن القيام بهذا في انكلترا؛ يجب أن تُأخذ هذه التقاليد بعين الاعتبار دائماً. موظف البحرية والبقال لهما نفس الدخل غير متكافئين ولا يقفان بنفس الجانب إلا في الحرب أو الإضراب العام وربما ليس في ذلك أيضاً.

من الواضح طبعاً الآن أن الطبقة الوسطى العليا هالكة. في كل بلدة ريفية من جنوب انكلترا ودون ذكر الخرائب الكئيبة في كينسينغتون وايرل كورت الذين عرفوها أيام مجدها ماتوا غيظاً بمرارة غامضة من عالم لم يسلك ما وجب عليه فعله. لم أفتح أبداً أي

كتاب لكيبلينغ أو ادخل إلى أي واحد من المتاجر الضخمة التي كانت ترتادها الطبقة الوسطى العليا سابقاً دون التفكير (بالتغيير والانحلال لكل ما أراه من حولي). لكن قبل الحرب ظلت الطبقة الوسطى العليا واثقة من نفسها رغم أنها لم تكن مزدهرة جداً. قبل الحرب إما أن تكون جنتلمان (سيداً محترماً) أو لست كذلك، وإن كنت جنتلمان فإنك تكافح لتتصرف كذلك مهما كان دخلك. فبين الشخص الذي دخله السنوي ٤٠٠جنيه والآخر الذي دخله ٢٠٠٠ جنيه هوة ثابتة كبيرة حاول صاحب الأربع مائة قدر وسعه تجاهلها. ربما العلامة التصنيفية للطبقة الوسطى العليا بأن تقاليدها لم تكن تجارية إلى حد ما، بل من فئة الجيش والموظفين والمهنيين المحترفين. أفراد هذه الطبقة لم يملكوا شبر أرض لكنهم شعروا بأنهم ملاكين بنظر الرب واستمروا في موقفهم شبه الارستقراطي بالدخول في مهن وخدمات قتالية بدلاً من التجارة. اعتاد الأولاد الصغار على عد نوى ثمر الخوخ في أطباقهم والتكهن بقدرهم بالهتاف، الجيش، البحرية، الكنيسة، الطب، القانون حتى أنهم يضعون الطب وهو الأدنى منزلة بينها للتناظر. الانتماء إلى هذه الطبقة حين يكون دخلك السنوي ٤٠٠جنيه كان شأناً غريباً لأنه يعني أن ارستقراطيتك نظرية تقريباً وتعيش بمستويين بنفس الوقت. نظرياً تعرف كل شيء عن الخدم والبقشيش لكن عملياً ليس لديك سوى خادم مقيم أو اثنين. تعرف نظرياً كيف تلبس ثيابك وكيف تطلب الغداء رغم أنك لم تقدر أبداً على توفير المال للذهاب إلى خياط محترم أو مطعم جيد. كما تعرف كيف ترمي وكيف تركب نظرياً لكن في الواقع ليس لديك حصان تركبه ولا بوصة من الأرض تمارس الرماية

فوقها. هذا يفسر جذب الهند (وكينيا ونيجيريا الخ مؤخرا) للطبقة الوسطى الدنيا. الأشخاص الذين يذهبون إليها كجنود أو موظفين لا يذهبون ليوفروا النقود لأن الجندي أو الموظف لا يريد المال، يذهبون لأن الهند بخيولها الرخيصة والرمي المجاني فيها والأعداد الكبيرة من العبيد السود تسهل عملية لعب دور السيد فيها.

في هذا النوع من العائلة الارستقراطية الرثة التي أتكلم عنها هناك إحساس أعمق بالفقر مما هو موجود عند أي عائلة من الطبقة العاملة التي بمستوى أعلى من معونة البطالة. الإيجار والثياب وأقساط المدارس كوابيس لا تنتهي وكل ترف حتى ولو كان كأس من الجعة يعتبر تبذيراً غير مشروع. عملياً ينفق كل دخل العائلة على المظاهر. من الواضح أن الناس من هذا الصنف يكونون في وضع شاذ، وقد يغري المرء بأن لا يكتب عنهم لأنهم حالات شاذة وبذلك لا أهمية لهم لكن فعلياً أعدادهم كثيرة نوعاً ما. وأغلبهم من رجال الدين والمدرسين والموظفين الإنكليز ـ الهنود وقدر قليل من الجنود والبحارة وعدد مقبول من الرجال المهنيين والفنانين الذين ينضوون تحت هذا الصنف. لكن أهمية هذه الطبقة أنها تمتص الصدمات للبرجوازية. البورجوازيون الحقيقيون الذين لا يقل دخل أحدهم عن ٢٠٠٠جنيه سنوياً، وتشكل نقودهم طبقة سميكة من البطانة العازلة بينهم وبين الطبقة التي يسلبونها؛ وإن اهتموا بالجماعات الدنيا فإن اهتمامهم بهم كمستخدمين وخدم وحرفيين فقط. لكن الأمر مختلف بالنسبة للفقراء المعذبين البائسين الذي يكافحون لعيش حياة الارستقراطيين بدخول الطبقة العاملة. هؤلاء مجبرون على التواصل القريب والحميم مع

الطبقة العاملة وأظن أن موقف الطبقة العليا التقليدية من العوام مستمد منهم.

لكن ما هو هذا الموقف؟ إنه موقف متعال ازدرائي تدعمه نوبات من الكره الوحشي. انظر إلى أي عدد من بنش خلال الثلاثين سنة الماضية. ستجد أن أي فرد من الطبقة العاملة يؤخذ بشكل بديهي كشخص للسخرية في كل مكان ماعدا في الأوقات القليلة التي يبدي فيها علامات بأنه أصبح مزدهراً جداً، عندئذ يتوقف عن كونه شخص للسخرية ليتحول إلى شيطان. لا فائدة ترجى من شجب هذا الموقف. من الأفضل أن نفكر كيف نشأ ولكي نقوم بذلك يجب أن ندرك كيف تبدو الطبقة العاملة للذين عاشوا مع أفرادها لكنهم يختلفون عنهم في العادات والتقاليد.

وضع العائلة الارستقراطية الرثة كوضع عائلة الفقير الأبيض التي تسكن في حي كله زنوج. في هذه الظروف تضطر إلى التمسك بارستقراطيتك لأنها الشيء الوحيد الذي تملكه وتصبح عندها مكروهاً نظراً لترفعك وسلوكك ولهجتك المتعالية التي تتمسك بها كواحد من الطبقة الرئيسية. كنت صغيراً جداً لا أتجاوز السادسة من عمري عندما أصبحت مدركاً للتمييز الطبقي. قبل ذلك العمر كان أبطالي الرئيسيين من أفراد الطبقة العاملة لأنهم يبدون دائماً بأنهم يفعلون أشياء ممتعة كونهم صيادي سمك وحدادين وبناة آجر. أتذكر عمال مزرعة في إحدى مزارع كورنول كانوا يدعوني أركب على آلة زراعية بينما كانوا يزرعون اللفت ويمسكون أحياناً بالنعاج ويحلبونها

ويعطوني شراباً وعندما يبني العمال بيتاً جديداً بجوارنا يدعوني للعب بالملاط الرطب ومنهم تعلمت كلمة (ل.....) والسمكري الذي على الطريق الذي كنت أخرج مع أولاده لسرقة الأعشاش لكن لم يمر وقت طويل حتى منعت من اللعب معهم لأنهم كانوا (عوام) وأُمرت بأن ابتعد عنهم. كان هذا تكبر، إن أحببت، لكنه كان ضرورياً أيضاً، لأفراد الطبقة الوسطى الذين لا يستطيعون أن يتحملوا أن يكبر أولادهم مع اللهجات السوقية. لهذا تعلمت في وقت مبكر جداً من تحول الطبقة العاملة من كونها سلالة من الكائنات الرائعة إلى سلالة من الأعداء. أدركنا بأنهم يكرهوننا لكننا لم نقدر أن نعرف لماذا وطبعاً أرجعنا ذلك إلى طبيعتهم الشريرة المحضة. بالنسبة لي في صباي المبكر وبالنسبة لكل الأطفال الذين هم مثلي كان الناس (العوام) دون مستوى البشر. وجوههم قاسية ولهجاتهم بشعة وسلوكهم فظ، يكرهون كل واحد ليس مثلهم وإن واتتهم أدنى فرصة سيهينونك بطرق وحشية. هذا هو موقفنا منهم مفهوم رغم أنه مزيف. ويجب أن يتذكر المرء أن هناك كره طبقي صريح أكثر بكثير في انكلترا قبل الحرب مما هو عليه الآن. في تلك الأيام يمكن أن تهان لمجرد أنك تبدو فرد من الطبقات العليا؛ في الوقت الحالي، بالمقابل، من المحتمل أكثر أن تداهن. أي شخص عمره فوق الثلاثين يتذكر الوقت الذي كان من المستحيل فيه لشخص حسن الملبس المشي في شارع حي فقير دون أن تلاحقه صيحات الاستهجان. أحياء كاملة اعتبرت غير آمنة بسبب المشاغبين (النموذج الذي انقرض الآن تقريباً)، وولد بالوعة لندن في كل مكان وبصوته العالي وافتقاره إلى أي نوع من المبادئ الفكرية يمكنه أن يحول حياة

الناس الذين يعتبرون الرد عليه دون منزلتهم إلى بؤس. كان الرعب المتكرر في إجازاتي حين كنت ولدا صغيرا عصابات (الأوغاد) الذين يهاجمونك فجأة بمعدل خمسة أو عشرة إلى واحد. وبالمقابل في أوقات الدراسة، كنا نحن الأغلبية وكان (الأوغاد) هم المضطهدون؛ أتذكر اثنتين من المعارك الجماعية في الشتاء البارد في العام ١٩١٦ ـ ١٧. وهذا التقليد من العداء الصريح بين الطبقة العليا والدنيا ظل نفسه في القرن الماضي على الأقل. نكتة نموذجية في بنش في الستينيات وهي صورة لسيد صغير عصبي المظهر يركب حصانه في شارع حي فقير وحشد من أولاد الشوارع يطبقون عليه بصيحاتهم (لقد وصل المنتفخ دعنا نخيف حصانه) تخيل أولاد الشوارع يخيفون حصانه الآن! الاحتمال الأكبر أنهم سيتجمعون حوله بآمال غامضة ببقشيش. خلال السنوات العشر التالية ازداد تملق الطبقة العاملة كثيرا وكان ذلك محتوماً لأن سلاح البطالة المخيف روعهم كثيراً. قبل الحرب كان وضعهم الاقتصادي أقوى نسبياً رغم عدم وجود معونة البطالة الحكومية للاعتماد عليها، لم تكن هناك بطالة كبيرة وسلطة الطبقة الرئيسة لم تكن واضحة كما هو الآن. لم يكن المرء يرى الإفلاس يحدق بوجهه في كل مرة يخاطب فيها مع فرد من أفراد الطبقة العليا (متأنق) بطريقة فظة وبشكل طبيعي يفعل ذلك كلما بدا له الأمر آمناً. لقد أشار جي ار رينير في كتابه عن اوسكار وايلد بأن انفجار الغضب الشعبي الغريب والفاحش الذي تلا محاكمة وايلد كان اجتماعياً في جوهره ونموذجياً. (غوغاء لندن) امسكوا بفرد من الطبقة العليا دون توقع وحرصوا أن يستمر في القفز على قدم واحدة. هذا كله كان طبيعياً ومناسباً أيضاً.

لو تعامل الناس بالطريقة التي عوملت بها الطبقة العاملة خلال القرنين الماضيين فعليك توقع امتعاضهم. ومن جانب آخر لا يمكن إلقاء اللوم على أطفال عائلات الطبقة الارستقراطية البالية إن تربوا على كره الطبقة العاملة التي ترمز لهم كعصابة من (الأوغاد) يجوسون بحثاً عن فرائسهم.

لكن هناك مهمة أخرى وغاية في الصعوبة. هنا نأتي إلى سر التمييز الطبقي في الغرب ـ السبب الحقيقي هو أن برجوازي الطبقة والمنشأ حتى لو ادعى بأنه شيوعي، لا يستطيع دون جهد يذكر أن يعتبر العامل مساوياً ونداً له. تتلخص بأربع كلمات مرعبة يخجل الناس من نطقها في الوقت الحاضر لكنها وردت بحرية تامة في طفولتي. الكلمات هي: رائحة الطبقات الدنيا كريهة.

هذا ما تعلمناه ـ الطبقات الدنيا رائحتها كريهة. وهنا يأتي بوضوح العائق الصعب. ليس هناك شعور بالحب أو الكره الحقيقي كالشعور البدني. يمكن التغلب على الكره العرقي والديني واختلاف الثقافة والطبع والفكر وحتى اختلاف منظومة الأخلاق لكن يصعب ذلك في التنافر البدني. يمكن أن يكون لديك ميل للمجرم أو اللوطي لكن لا يمكنك الميل إلى إنسان له رائحة كريهة ـ أقصد كريهة بالعادة. مهما رغبناه ومهما أعجبنا بأفكاره وشخصيته فإننا سنكرهه من أعماق قلوبنا إن كانت له رائحة نتنة. قد لا يهم الأمر كثيراً لو تربى فرد الطبقة الوسطى العادي على الاعتقاد بأن الطبقات العاملة جاهلة وكسولة وجلفة ومخادعة؛ لأنه عندما يتربى على الاعتقاد بأنهم قذرون

فإن الضرر وقع وانتهى الأمر. في طفولتي تربينا على الاعتقاد بأنهم قذرين. وتكتسب بوقت مبكر في الحياة أن هناك شيء منفر جداً بأجسام أفراد الطبقة العاملة؛ ولا يمكنك الاقتراب منهم أكثر مما هو إجباري. ترى عاملاً كبيراً يبلله العرق يمشي في الطريق ومعوله فوق كتفه وتنظر إلى قميصه الذي زال لونه وسرواله القطني المضلع متصلباً بقذارة سنين؛ وتفكر بتلك الطبقات المتداخلة من الأسمال الملوثة فوقه و تحتها الجسد غير المغسول المسمر كله (هذا ما كنت أتخيله)، ورائحته القوية الكريهة التي تشبه رائحة لحم الخنزير. تشاهد المتشرد يرمي حذائه في مصرف ماء ـ يا للقرف! لم يخطر جدياً ببالك بأن المتشرد لا يستمتع بقدميه المسودتين. وحتى أفراد الطبقات الدنيا الذين تعرف بأنهم نظيفين جداً ـ الخدم مثلاً كانوا لا يفتحون الشهية. كانت رائحة عرق جلودهم تختلف عن رائحة جلودنا بشكل غريب.

كل من كبر وهو ينطق حروف الهاء وفي بيت فيه حمام وخادم تربى على هذه المشاعر؛ هذا هو سبب هوة التمييز الطبقي التي لا يمكن تجاوزها في الغرب. والغريب ندرة هذا الاعتراف. في هذه اللحظة يمكنني أن أفكر بكتاب واحد وهو فيلم صيني لسومرست موم يعرض دون خداع وصفاً لموظف صيني كبير يصل إلى نزل بجانب الطريق، يتوعد ويهدد منادياً كل واحد باسمه لكي يترك الأثر في نفوسهم بأنه صاحب مقام رفيع جداً وهم مجرد حشرات. بعد خمس دقائق من تأكيد منزلته بالطريقة التي رأى بأنها مناسبة يتناول غداءه بود تام مع حمالي الأمتعة. كموظف شعر بأن عليه أن يشعر الآخرين بحضوره لكن دون أن يكون لديه شعور بأن الحمالين من طينة مختلفة

عنه. شاهدت مناظراً لا تحصى حين كنت في بورما. بين كل الأسيويين الذين عرفتهم هناك نوع من المساواة الطبيعية وألفة سهلة بين الإنسان وأخيه الإنسان يندر وجودها في الغرب. ويضيف السيد موم:

نحن فصلنا عن زملائنا بإحساسنا بالرائحة. العامل هو سيدنا، وميال إلى حكمنا بيد حديدية لكن لا يمكن نكران رائحته النتنة : لا أحد يستطيع الشك بها، لأن الاستحمام في الفجر حين يجب عليك أن تعجل إلى العمل قبل أن تقرع أجراس المصنع ليس شيئا يبعث السرور ولا يميل العمل الشاق إلى الحلاوة والجمال، كما أنك لا تبدل ثيابك الداخلية أكثر مما هو إجباري عندما تقوم بالغسيل الأسبوعي زوجة سليطة. أنا لا ألوم العامل بسبب رائحته النتنة التي يصدرها فعلاً والتي تجعل التعامل الاجتماعي صعباً للأشخاص ذوي الأنوف الحساسة. الحمام الصباحي المبكر يقسم الطبقات بفعالية أكبر من المولد أو الثروة أو التعليم.

لكن هل للطبقات الدنيا رائحة في هذا الوقت؟ طبعاً، وهي إجمالا أقذر من الطبقات العليا. أفرادها مجبرون على ذلك بسبب الظروف التي يعيشونها، حتى في هذه الأيام الأخيرة لا تزال البيوت التي فيها حمامات في انكلترا أقل من النصف. إضافة إلى أن عادة الاستحمام اليومية حديثة جداً في أوروبا والطبقة العاملة محافظة أكثر من الطبقة البورجوازية. لكن من الواضح أن الانكليز يزدادون نظافة ونأمل بأن يكونوا بنظافة اليابانيين بعد مئة عام . من المحزن أن الذين يجعلون الطبقة العاملة مثالية يظنون أنه من الضروري أن نثني على كل صفاتها

ولذلك نتظاهر بأن القذارة تستحق التقدير بحد ذاتها. ومن الغريب جداً أن يتشارك الاشتراكي والديمقراطي الكاثوليكي الحساس من نموذج تشيسترتون في العمل أحياناً، كلاهما يخبراك بأن القذارة صحية وطبيعية وأن النظافة مجرد بدعة وترف في أحسن حال. (٣) يبدو أنهما لا يريان بأنهما يدعمان الفكرة القائلة بأن أفراد الطبقة العاملة قذرون بسبب خيارهم وليس بسبب الضرورة. فعلياً الناس الذين لهم منافذ إلى الحمامات سوف يستخدمونها عموماً. لكن الشيء الجوهري أن أفراد الطبقة الوسطى يعتقدون بأن أفراد الطبقة العاملة قذرين ـ ترى من المقطع المقتبس في الأعلى أن السيد موم نفسه يعتقد بهذا ـ وما هو أسوأ أنهم يرثون القذارة بطريقة ما. كطفل كان أحد أكثر الأشياء المرعبة التي استطعت تخيلها هو الشرب من قارورة من بعد حمال. مرة عندما كنت في الثالثة عشر من عمري كنت عائداً في القطار من السوق إلى البيت وكانت عربة الدرجة الثالثة مملوءة بالرعاة ومربي الخنازير الذين كانوا يبيعون دوابهم. صب أحدهم ربع قارورة من البيرة ومررها حوله؛ انتقلت من فم إلى آخر، كل واحد أخذ جرعة. لا أستطيع وصف الرعب الذي شعرت به عندما اتجهت القارورة نحوي. لو شربت منها بعد كل أفواه أفراد الطبقة الدنيا هؤلاء فأنا متأكد بأنني سأتقيأ، ومن جهة أخرى لو قدموها لي فلن أجرؤ على رفضها خشية

---

(٣) حسب تشيستيرتون القذارة مجرد نوع من الإزعاج لذلك تصنف إهانة ذاتية. لسوء الحظ أن إزعاج القذارة يعاني منه الآخرين. أن تكون قذراً ليس مضايقاً مزعجاً جداً هذه حقيقة – لكن ليس مزعجاً مثل الاستحمام بماء بارد في صباح شتوي.

الإهانة ـ ترى هنا تناقض الاحتشام المفرط عند الطبقة الوسطى. الآن والحمد لله ليس لدي شعور من هذا النوع. جسد العامل بحد ذاته ليس منفراً لي أكثر من جسد مليونير. لا أزال لا أحب أن أشرب من فنجان أو قارورة بعد شخص آخر ـ أقصد إنسان أخر ؛ لكن مع النساء ليس لي اعتراض وهنا لا دخل للمسألة الطبقية في الأمر. لقد شفاني الاحتكاك بالمشردين والتعامل معهم من ذلك. المشردون ليسوا قذرين كما يرى الإنكليز لكنهم حملوا صيت ذلك وعندما تقتسم سريراً مع مشرد وتشرب معه الشاي من نفس علبة السعوط نفسها، تشعر بأنك كنت الأسوأ وليس لدى الأسوأ ما يرهبك. لقد عملت على هذه المواضيع لأنها هامة وحيوية. لنتخلص من التمييز الطبقي يجب أن نبدأ بفهم كيف تبدو طبقة اجتماعية بنظر الطبقة الأخرى. من العبث القول أن الطبقات الوسطى متكبرة وترك ذلك عند هذا الحد. لن تصل بعيداً إن لم تتحقق بأن التكبر محكوم بنوع من المثالية وناتج عن التدريب المبكر لطفل الطبقة الوسطى الذي يتعلمه بنفس الوقت مع غسل رقبته واستعداده للموت من أجل بلاده واحتقار الطبقات العاملة.

هنا سأتُهم بأنني متخلف وقد تجاوزني العصر لأنني كنت طفلاً قبل الحرب وأثناءها وقد يدعي أحد بأن أولاد العصر الحالي تربوا على أفكار أكثر تنويراً. قد يكون من الصحيح أن الشعور الطبقي الآن أقل مرارة مما كان عليه. الطبقة العاملة خاضعة بينما كانت عدوانية علنا في الماضي والثياب المصنوعة الرخيصة بعد الحرب وآداب السلوك اللينة خففت حدة الاختلافات السطحية بين طبقة وأخرى. لكن مما لا شك فيه بأن الشعور الجوهري بحد ذاته لا زال قائماً هناك. كل فرد

من الطبقة الوسطى لديه تحامل طبقي هاجع لا تحتاج إثارته إلا لشيء صغير. وإن كان فوق الأربعين فإن قناعته ثابتة بأن طبقته قد ضحي بها لمصلحة الطبقة الدنيا. لو ظننت بأن شخصاً عادياً غير مفكر ذو منشأ ارستقراطي يكافح للحفاظ على المظاهر بأربع أو بخمس مئة جنيه في السنة عضواً من طبقة طفيلية مستغلة لاعتقد بأنك مجنون. بصدق تام سيثبت لك بعشرات الطرق بأنه أسوأ حالا من العامل. بنظره العمال ليسوا سلالة من العبيد غارقة بالفقر، هم فيض فاسد يزحف للأعلى ليبلعه ويبلع أصدقاءه وعائلته ويمحو كل الثقافة وآداب السلوك من الوجود. لهذا هناك قلق غريب ومؤرق خشية أن ينمو ازدهار الطبقة العاملة كثيراً. في عدد من بنتش بعد الحرب بفترة قصيرة حين كانت أسعار الفحم لا تزال باهظة، هناك صورة لأربعة أو خمسة من عمال المناجم بوجوههم المتجهمة الشريرة يركبون في سيارة رخيصة. يمرون بصديق، يصيح ويسألهم من أين استعاروها فيجيبوه (لقد اشتريناها!) هذا شيء مفيد لبنتش، فظاعة وجريمة ضد الطبيعة أن يشتري عمال منجم سيارة حتى لو كانت واحدة تشارك فيها أربعة منهم آو خمسة. كان هذا هو الموقف منذ عشر سنوات ولا أرى أي دليل لأي تغيير جوهري. لا تزال الفكرة التي ترى بأن معونات البطالة الحكومية ومعاشات تقاعد العمر والتعليم المجاني، الخ... قد دللت الطبقة العاملة دللت بشكل سخيف وأفسدت أخلاقها سائدة على نطاق واسع وربما اهتزت قليلاً بعد الاعتراف الحديث بوجود البطالة. بالنسبة لكثير من أفراد الطبقة الوسطى وربما الأكثرية التي تجاوزت الخمسين، لا يزال العامل النموذجي يركب دراجته النارية إلى دائرة العمل ويحفظ الفحم

في حوض الحمام ولو تصدق يا عزيزي فهم يتزوجون على معونة البطالة!

لماذا يبدو بأن الكره الطبقي يتناقص لأنه لا يميل في الوقت الحاضر إلى أن ينشر بسبب العادات غير الصريحة لزماننا جزئياً ولأن الصحف والكتب مجبرة أن تجذب جمهور الطبقة العاملة أيضاً. كقاعدة يمكنك قراءته بشكل أفضل في أحاديث خاصة لكن إن رغبت ببعض الأمثلة المطبوعة فكتاب ملاحظات عابرة للبروفيسور سينتسبيري يستحق إلقاء نظرة عليه. كان سينتيسبيرى رجلاً متعلماً جداً وناقداً أدبياً حكيماً في مجالات كثيرة لكنه حين تكلم عن المسائل الاقتصادية والسياسية اختلف عن باقي طبقته كونه بليداً جداً، وينتمي مبكراً قبل أن يرى أي سبب للتظاهر بالآداب العامة. بالنسبة له تأمين البطالة ليس إلا (مساهمة في دعم العجلات العاطلة،) وكل الحركة النقابية ليست أكثر من نوع من التسول المنظم:

قد لا تكون العالة ـ سبباً موجباً لرفع دعوى قضائية حين تستخدم كلمة أليس كذلك؟ لكن أن تكون عالة، بمعنى أن تكون معالاً جزئياً أو كلياً على حساب الآخرين، هو الطموح المتحمس والمنجز إلى حد كبير بنسبة كبيرة من السكان وحزباً سياسياً بكامله. (كتاب القصاصات الثاني)

يجب أن يشار بأن سينتسبيري يدرك بأن وجود البطالة محتم وفي الوقع يظن بأنها ينبغي أن توجد طالما أن العاطلين عن العمل وجدوا ليعانوا قدر الإمكان:

أليس العامل العرضي هو السر الكبير وصمام الأمان لنظام العمل

السليم والخير عموماً؟

في الدولة الصناعية التجارية المعقدة يستحيل التوظيف المستمر بأجور منتظمة، بينما معونة الحكومة للبطالة، مثل أجور التوظيف، مفسدة في بدايتها وهدامة في نهايتها سريعة كانت أم بطيئة. (الكتاب الأخير من قصاصات).

لكنه لم يوضح ما يحدث للعامل العرضي حين لا يكون العمل العرضي متوفرا. من المفترض أن (سينتسبيري يتكلم مستحسنا قوانين الفقراء الجيدة) يجب أن يتم إدخالهم إلى الملاجئ أو النوم في الشوارع. لكنه يتغاضى بازدراء عن الفكرة الطبيعية والبديهية بأن كل إنسان يجب أن يحصل على فرصة كسب رزق مقبول ويقول:

حتى حق العيش ... لا يتجاوز حق الحماية ضد الجريمة. سيضيف الإحسان بالتأكيد وربما الفضيلة و المنفعة العامة إلى هذه الحماية مؤونة زائدة لاستمرار الحياة لكن يشك بحاجة العدالة الصارمة لها. أما بالنسبة للمعتقد المجنون القائل بأن ولادتك في بلاد تعطيك الحق في تراب تلك البلاد فلا يستحق الاهتمام. (الكتاب الأخير من القصاصات).

تستحق تعقيدات المقطع الأخير الجميلة التفكير به لوقت قصير. إن أهمية تلك المقاطع (المبعثرة في كل أعمال سينتسبيري) تكمن في نشرها. أكثر الناس يخجلون من تدوين هذه الأشياء على الورق. لكن ما يقوله سينتسبيري هنا هو ما تفكر به أي حشرة صغيرة لتوفير خمسمائة جنيه في السنة. لذلك يجب أن نعجب به لقولها الذي تطلب

شجاعة كبيرة ليكون علانية ظريان كهذا.

هذه وجهة نظر لاعتراف احد الرجعيين. لكن ما هي أفكار الفرد من الطبقة الوسطى التي هي ليست رجعية وإنما تقدمية؟ هل هو مختلف فعلا تحت قناعه التقدمي عن الأخر؟

فرد الطبقة الوسطى يعتنق الاشتراكية وقد ينظم إلى الحزب الشيوعي. ما هو الفرق الحقيقي الذي يحدثه ذلك؟ من الواضح أن العيش ضمن إطار مجتمع رأسمالي يجبره على العمل لكسب رزقه ولا يستطيع احد لومه على التمسك بوضعه الاقتصادي البورجوازي. لكن هل هناك أي تبدل في ذوقه وعاداته وسلوكه وخلفيته التخيلية ـ إيديولوجيته في المصطلح الشيوعي؟ هل هناك أي تغيير حقيقي غير تصويته لحزب العمال في الانتخابات الآن أو للحزب الشيوعي حين تتوفر الإمكانية؟ من اللافت للنظر انه لا يزال يعاشر بحكم العادة أبناء طبقته ويمضي وقتا في البيت مع عضو من طبقته الذي يظن بأنه بلشفي خطير أكثر من الوقت الذي يمضيه مع عضو من الطبقة العاملة الذي يتفق معه بالرأي كما يفترض؛ كما لا يزال ذوقه في الطعام والثياب والكتب والموسيقى والباليه ذوقاً بورجوازياً بامتياز؛ والاهم من كل ذلك يتزوج بالتأكيد من ضمن طبقته. انظر إلى أي اشتراكي بورجوازي. انظر إلى الرفيق س العضو في الحزب الشيوعي البريطاني ومؤلف الماركسية للقاصرين. الرفيق س صدف أنه ايتوني قديم. مستعد للموت على المتاريس، نظريا على الأقل، لكن تلاحظ أنه لا يزال يترك أسفل صدريته مفكوكاً. يصور البروليتاريا بصورة مثالية لكن تشبهه

القليل بعاداتهم بارز. ربما مرة في السابق وبدافع التبجح فقط دخن سيجارا عليه شريط لكن من المستحيل عليه تقريباً أن يضع قطعاً من الجبن في فمه برأس سكينته أو يجلس في البيت وقبعته على رأسه أو حتى يشرب الشاي من طبق الفنجان. عرفت أعضاء من الاشتراكيين البرجوازيين واستمعت ساعات لخطبهم المسهبة ضد طبقتهم ومع ذلك لم أر أحداً منهم ولو لمرة واحدة يختار آداب المائدة البروليتارية. لكن مع ذلك فلماذا لا؟ لماذا يجب على المرء أن يعتقد بأن الفضائل كلها تكمن في البروليتاريا ، لا يزال يتجشم عناء شرب حسائه صامتاً ؟ لا يمكن ذلك لأنه يشعر في أعماق قلبه بأن السلوك البروليتاري مثير للقرف. لهذا تراه لا يزال يستجيب لتدريب طفولته الذي تعلم فيه بأن يكره ويخاف ويحتقر الطبقة العاملة.



الفصل الثاني

كنتُ متعجرفاً كريهاً وأنا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشر من عمري لكن لم أكن أسوأ من الصبية الآخرين الذين بعمري ومن طبقتي. لا يوجد مكان في العالم يتواجد فيه التكبر دائماً ويزرع بأشكال متقنة ودقيقة كالمدارس الإنكليزية الخاصة ولا نستطيع القول هنا على الأقل بأن التعليم في انكلترا فشل في القيام بدوره. إنك تنسى اللغة الإغريقية واللاتينية اللتين تعلمتهما في الساعة التي تتركك فيها المدرسة ـ لقد درست الإغريقية لمدة ثمان أو عشر سنوات وعمري الآن ثلاث وثلاثون سنة ولا استطيع تكرار أبجديتها ـ لكن الغطرسة كاللبلاب تلتصق بك حتى مماتك إن لم تقتلعها من جذورها بإصرار ومثابرة.

كنت في وضع صعب في المدرسة لأنني وسط صبية معظمهم أغنى مني بكثير وذهبت إلى مدرسة خاصة مكلفة لأنه صدف وأن فزت بمنحة دراسية. هذه هي التجربة العادية الشائعة لأولاد القسم الأدنى من الطبقة الوسطى، أولاد القساوسة والموظفين الانكليز الهنود الخ

وآثارها التي تركتها علي كانت من النوع المعتاد على الأرجح. من جهة جعلتني أتمسك بأصلي النبيل بشكل أكثر من قبل ومن جهة أخرى ملأتني بالاستياء من الصبية الذين كان أهاليهم أغنى من أهلي وتقصدوا بأن يدعوني أعرف ذلك. احتقرت كل شخص لا يمكن وصفه سيداً لكني كرهت أيضاً الأغنياء الشرهين وخصوصا حديثي النعمة منهم. الشيء الصحيح والأنيق الذي شعرت به أنني من أصل نبيل دون أن أملك أي مال. هذا جزء من عقيدة أسفل الطبقة الوسطى التي يواسيها شعورها اليعقوبي الخيالي بالنفي.

لكن كان قضاء سنين الحرب وما تلاها مباشرة في المدرسة زمناً غريباً لأن انكلترا كانت في وضع أقرب للثورة مرت به منذ قرن. سرت في طول الأمة وعرضها موجة من الشعور الثوري الذي انقلب ونسي منذ ذلك الوقت لكنه ترك تراكمات متنوعة من الرواسب خلفه. جوهريا، رغم أن المرء لم يستطع أن يراها آنذاك بمنظور أنها كانت ثورة الشباب ضد جيل الكبار الناتجة عن الحرب مباشرة. تمت في الحرب التضحية بالصغار وتصرف الكبار في طريقة مرعب تأملها وظلوا بعد هذا الزمن مغالين في الوطنية في أماكنهم الآمنة بينما كان أولادهم يتساقطون مثل حزم القش أمام البنادق الآلية الألمانية. إضافة إلى ذلك أدار الكبار الحرب بشكل رئيسي وأداروها بعدم كفاءة خطيرة. في العام ١٩١٨ كل من هو دون الأربعين كان منزعجاً من الأكبر منه وامتدت الحالة النفسية المعادية لسياسة العسكرة التي تلت القتال بشكل طبيعي إلى ثورة عامة ضد الأرثوذكسية والسلطة. في أي وقت تجد هناك معتقد غريب من كره الكبار. اعتبرت هيمنة الكبار مسؤولة عن كل

الشرور التي عرفتها الإنسانية وسخر من كل مؤسسة مستحسنة من الروايات الاسكتلندية حتى مجلس اللوردات، لأن الكبار يفضلونها. ظلت (البولشية) الموضة الوحيدة لسنوات طويلة كما نعتها الناس. غصت انكلترا بالأفكار غير الناضجة المعادية للترشيح: السلمية (رفض حمل السلاح) والأممية والإنسانية بكل أطيافها والأنثوية (المساواة بين الجنسين) والجنس الحر وإصلاح الطلاق والإلحاد وتحديد النسل أشياء كهذه كانت تلاقي آذانا أكثر مما تجده في الأوقات العادية. وامتد المزاج الثوري طبعاً إلى الذين كانوا صغاراً على القتال حتى في مدارس الصبيان. ظنن منا في ذلك الوقت بأنا كائنات مستنيرة نمثل العصر الجديد الذي تمثل بنبذ الأرثوذكسية التي فرضها علينا هؤلاء الكبار البغيضين. احتفظنا أساسا بالموقف المتكبر لطبقتنا، واعتبرنا بديهياً بأننا يمكن أن نستمر في سحب حصصنا أو لوقوع مصادفة في وظيفة مريحة لكن بدا لنا أنه من الطبيعي أيضاً أن نكون ضد الحكومة.

احتقرنا الترتيب الطبقي والدين المسيحي وحتى الألعاب الإجبارية والعائلة الملكية ولم ندرك بأننا كنا نشارك في بادرة عالمية لكره الحرب. والتصق بذاكرتي حدثان كنماذج من ذلك الشعور الثوري الغريب لذلك الزمن. في أحد الأيام وضع لنا المدرس الذي يعلم اللغة الانكليزية صفحة أسئلة حول المعرفة العامة وكان أحد أسئلتها (ما هي الشخصيات العشرة الأعظم التي تعيش الآن برأيك؟) من ستة عشر طالب في الصف (معدل أعمارنا في السابعة عشر) خمسة عشر منا شملوا لينين في قوائمهم. كان هذا في مدرسة خاصة باهظة الكلفة

ومتعجرفة وبتاريخ ١٩٢٠، حين كان الرعب من الثورة الروسية لا يزال جديداً في عقل كل واحد. وكان هناك أيضاً ما يسمى باحتفالات السلام في عام ١٩١٩. قرر كبارنا بأننا يجب أن نحتفل بالسلام بالطريقة التقليدية بالنعيق فوق العدو الساقط. كان علينا أن نمشي مشية عسكرية في ساحة المدرسة حاملين المشاعل ونهتف بالأغاني الوطنية من نموذج (احكم بريطانيا). استهجن الأولاد الحدث برمته وتغنوا بكلمات تكفيرية وتحريضية منسجمة مع الأنغام المقدمة. أشك إن كانت ستحدث مثل هذه الأشياء بتلك الطريقة بهدوء الآن. من المؤكد أن أولاد المدارس الخاصة الذين أقابلهم في الوقت الحاضر يمينيين في آرائهم أكثر مما كنت ومعاصري قبل خمسة عشر عاماً.

لهذا كنت في عمر السابعة عشر أو الثامنة عشر متعجرف وثوري. كنت ضد كل سلطة. قرأت وأعدت قراءة الأعمال المنشورة الكاملة لشو وويلز وغلاسورثي (كانوا يعتبرون كتاباً خطيرين في ذلك الوقت) ووصفت نفسي على نحو غير دقيق بالاشتراكي. لكن لم يكن لدي فهم كبير لما تعنيه الاشتراكية كما لم يكن لدي فكرة بأن الطبقة العاملة كائنات بشرية مثلنا. من بعيد ومن خلال الكتب ـ جاك لندن في أهل الهاوية مثلاً ـ تألمت على معاناتهم لكنني لا أزال أكرههم وأحتقرهم حين أقترب منهم في أي مكان. لا تزال لهجتهم تثير اشمئزازي وتغيظني فظاظتهم الاعتيادية. كانت الطبقة العاملة الإنكليزية في مزاج قتالي وخاصة بعد الحرب مباشرة. كانت تلك فترة إضرابات الفحم الكبرى حين كان الاعتقاد بأن عامل المنجم شيطان مجسد والعجائز ينظرن تحت الأسرة كل ليلة كي لا يكون

روبرت سميلي مختبئاً هناك. خلال الحرب والفترة القليلة التي تلتها كانت الأجور عالية والتوظيف غزير؛ أما الآن فقد عادت الأمور أسوأ مما كانت عليه وقاومت الطبقة العاملة ذلك طبعاً. الرجال الذين حاربوا أغرتهم الوعود المبهرجة بالانضمام إلى الجيش والآن عادوا إلى الوطن إلى عالم لا توجد فيه وظائف ولا حتى بيوت للمأوى. فضلا، أنهم ذهبوا للحرب وعادوا إلى الوطن بموقف الجندي من الحياة التي هي أساسا موقف غير قانوني رغم الانضباط. هناك شعور مضطرب في الجو. وحتى ذلك الوقت بقيت الأغنية التي تقول لازمتها البارزة:

ليس هناك ما هو أكيد سوى

الأغنياء يزداد ثراءهم والفقراء يزداد أطفالهم

في الوقت الحالي،

في الوقت الفاصل،

ألن نحصل على بعض اللهو؟

لم يستقر الناس بعد على نمط حياة البطالة التي لطفتها أكواب لا تحصى من الشاي. كانوا لا يزالون يتأملون المدينة الفاضلة التي حاربوا من أجلها وكانوا عدائيين بشكل سافر أكثر مما سبق تجاه الطبقة التي تلفظ الهاءات. لهذا ظل مخففوا صدمات البورجوازية مثلي أنا والناس العاديين يبدون متوحشين وبغيضين. عند تذكر تلك الفترة يتراءى لي أنني أمضيت نصف الوقت في شجب النظام الرأسمالي والنصف الآخر في الغضب من وقاحة محصلي الحافلات.

ذهبت إلى بورما في الشرطة الامبريالية الهندية قبل أن أكمل العشرين. في (قاعدة متقدمة للإمبراطورية مثل بورما بدا للوهلة الأولى بأن مسألة الطبقات وضعت على الرف. لم يكن هناك احتكاك طبقي، لأن المهم لم يكن كونك واحداً من المدارس اليمينية أو إن كنت ببشرة بيضاء. في الحقيقة أكثر الرجال البيض في بورما لم يكونوا من النموذج الذي يدعى في انكلترا (جنتلمان - سيد) بل مجرد جنود عاديين وقلة هم الأشخاص الذين يصعب تصنيفهم بأنهم يعيشون حياة مناسبة (للجنتلمان) - لديهم خدم أي أنهم يطلقون على وجبة المغرب عشاء ورسمياً يعتبرون من نفس الطبقة. (كانوا رجالاً بيض) تتميز بالتضاد عن الطبقة الأدنى الأخرى (السكان الأصليين). لكن لا يَكن المرء للسكان الأصليين نفس الشعور الذي يحس به نحو (الطبقات الدنيا) في الوطن. النقطة الجوهرية هي أن السكان الأصليين البورميين لم يشعرونا بأنهم منفرين بدنياً بأي شكل. ينظر المرء باستعلاء لأنهم سكان أصليين لكنه كان مستعداً تماماً للاقتراب منهم بدنياً وهذا كما لاحظت، ما كانت عليه الحال مع الرجل الأبيض الذي لديه أسوأ شوفونية لونية. حين يكون لديك عدد كبير من الخدم تتعود على عادات الكسل فوراً وأنا سمحت لنفسي مثلاً أن يلبسني ثيابي ويرميها لي صبي بورمي. هذا لأنه كان صبياً بورمياً قذراً ولأنني لم استطع أن أتحمل أن أدع شخصاً إنكليزياً أن يعاملني بذلك الأسلوب الصريح. شعرت نحو البورمي كما لم أشعر تجاه امرأة. ككل العروق الأخرى للبورميين رائحة مميزة – لا استطيع وصفها: رائحة تجعل الأسنان تصطك ببعضها – لكنها لم تثر اشمئزازي أبدا. (عرضياً، يقول

الشرقيون بأن لهم رائحة). يقول الصينيون كما أعتقد أن للرجل الأبيض رائحة كرائحة الجيفة. ويقول البورميون نفس الشيء - رغم أنه لم يبلغ البورمي الوقاحة الكافية ليقول لي هذا). وعلى أية حال موقفي كان ممكن الدفاع عنه لأنه لو واجه المرء الواقع لوجب الاعتراف بأن أغلب المنغوليين لهم أجساد أجمل من أجساد غالبية الرجال البيض. قارن البشرة الناعمة القوية المشدودة للبورمي التي لا تتجعد أبدا حتى يتجاوز الأربعين وبعدها يذبل مثل قطعة من الجلد الجاف مع البشرة الخشنة غير المصقولة المترهلة المرتخية للرجل الأبيض. للرجل الأبيض شعر هزيل قبيح ينمو على ساقيه وظهر ذراعيه وفي بقع بشعة في صدره. أما الرجل البورمي فله خصلة أو اثنتين من الشعر فقط في أمكنة مناسبة، وهو بلا شعر تماماً فيما تبقى من جسده وبلا لحية عادة أيضاً. الرجل الأبيض دائماً تقريباً يتعرض للصلع أما البورمي فقلما يعرف ذلك. أسنان البورمي كاملة رغم أن عصارة نبات التامول أفقدتها لونها، وأسنان الرجل الأبيض تبلى دائماً. الرجل الأبيض مشكل على نحو سيء عموماً وعندما يسمن ينتفخ في أماكن غير محتملة، للمنغوليين هيكل عظمي جميل وعند الكبر يظل شكله شابا. على نحو لا يمكن إنكاره، تتقيأ السلالات البيضاء قلة من الأفراد الذين يظلون جميلين بشكل خارق لعدد قليل من السنين لكن على العموم، قل ما تشاء، هم أقل جمالاً من الشرقيين. لكن ليس هذا ما كنت أفكر فيه عندما وجدت الطبقات الدنيا الإنكليزية منفرة أكثر بكثير من السكان الأصليين البورميين. لا زلت أتكلم بمنطق الشوفونية الطبقية التي اكتسبتها باكراً. عندما كنت غير بعيد جداً عن العشرين عندما التحقت بفوج

بريطاني لمدة قصيرة. طبعاً أعجبت وأحببت الجنود الخصوصيين كأي شاب في العشرين يعجب ويحب الفتيان الضخمين، المرحين الذين يكبرونه بخمسة أعوام وأوسمة الحرب الكبرى على صدورهم. ومع ذلك نفروني أخيراً؛ كانوا من الناس العاديين ولم أهتم في الاقتراب منهم. في صباح الأيام الحارة عندما تمشي السرية مشية عسكرية على الطريق أكون في المؤخرة مع أحد الملازمين الصغار، فيقلب بخار عرق أجساد هؤلاء المائة الذين أمامي معدتي. وهذا كما تلاحظ شوفونية بحتة. في طفولتي المبكرة. وقد لا تكون ضارة للجندي بدنيا مثلما تكون بالنسبة للذكر الأبيض. هو عموما شاب متعافٍ من جراء الهواء الطلق والتمرين وتجبره المبادئ الدينية على النظافة. لكنني لم أر الأمر هكذا . كل ما أعرفه أنه كان عرق الطبقة الدنيا الذي أشمه والتفكير فيه يصيبني بالغثيان.

عندما تخلصت من شوفينيتي الطبقية لاحقا أو جزء منها على الأقل و التي كانت غير مباشرة إلى حد ما ومع هدا استغرق التخلص منها عدة سنوات. والذي بدل موقفي من القضية الطبقية كان شيء يرتبط بشكل غير مباشر ولا علاقة له بها تقريباً.

كنت في الشرطة الهندية حيث أمضيت خمس سنوات وفي نهايتها كرهت الإمبريالية التي كنت أخدمها بمرارة قد لا استطيع التعبير عنها بشكل واضح. في الجو الحار في انكلترا ذلك النوع من الأشياء غير مفهوم تماماً. لكي تكره الامبريالية يجب أن تكون جزءا منها. الرؤية من خارج الحكم البريطاني في الهند تبدو ـ بالفعل، ـ خيرية

وحتى ضرورية؛ وهكذا بلا شك فإن الحكم الفرنسي في المغرب أو الألماني في بورنيو لأن حكم الأجانب بالنسبة للناس أفضل من أن يحكموا أنفسهم. لكن لا يمكن أن تكون جزءا من هكذا نظام دون أن تعرف بأنه استبداد لا يُبرر. حتى الإنكليز الهنود عديمي الإحساس يدركون هذا. كل وجه مواطن أصلي يراه في الشارع يجعله يدرك تطفله الرهيب. وأغلبية الإنكليز الهنود، على الأقل بشكل متقطع، ليسوا راضين تقريباً عن وضعهم كما يعتقد الناس في انكلترا. من أكثر الناس غير المتوقعين، من الأوغاد المعتقين المخللين بالجن الذين يحتلون مناصب عالية في الخدمة الحكومية سمعت بعض الملاحظات مثل (طبعا ليس لنا حق في هذه البلاد اللعينة أبداً) بما أننا هنا الآن بالله عليك دعنا نبقى. الحقيقة ليس هناك رجل يصدق من أعماق قلبه بأنه من العدل غزو دولة أجنبية وقمع حريات الناس بالقوة. الاضطهاد الأجنبي شر واضح تماماً ومفهوم أكثر من الاضطهاد الاقتصادي. لهذا نحن في انكلترا نفسح المجال صاغرين لكي يسرقونا ليبقى نصف مليون من الكسالى التافهين في ترف، لكننا نقاتل حتى آخر رجل قبل أن يحكمنا الصينيين؛ وبالمثل الناس الذين يعيشون على حصص الإيرادات غير المكتسبة بالجهد دون أي وخز لضمائرهم، يرون بوضوح كافٍ أنه من الخطأ الذهاب والاستبداد ببلد أجنبي غير مرغوب بك فيه. النتيجة أن كل انكليزي هندي يخفي الشعور بالذنب الذي ينتابه بقدر ما يستطيع عادة، لأنه لا توجد حرية التعبير ومجرد سماعه يدلي بملاحظة تحريضية قد يضر بمهنته. في كل أرجاء الهند هناك رجال إنكليز يشمئزون من النظام الذي هم جزء منه سراً

وبالمناسبات فقط عندما يتأكدون تماماً أنهم مع الرفقة الصحيحة تفيض مرارتهم. أتذكر ليلة أمضيتها في قطار مع رجل في الخدمة التعليمية، غريب لم يكشف لي أسمه أبداً. منعني الحر الزائد من النوم لهذا أمضينا الليلة في الحديث. نصف ساعة من الاستجواب الحذر قرر كل منا أن الأخر آمناً وبعدها جلسنا باعتدال في أسرتنا لساعات والقطار يرتج ببطء عبر الليل الأسود القاتم وقوارير البيرة بمتناول أيدينا، لعنا الإمبراطورية البريطانية ـ لعناها من الأعماق بذكاء وبشكل حميمي. أفادنا ذلك. لكننا كنا نتكلم بأشياء ممنوعة وفي ضوء الصباح المنهك عندما دخل القطار ماندالي زاحفاً افترقنا شاعرين بالإثم كزانيين.

وبقدر ما تصل إليه ملاحظتي يمر كل الموظفين الإنكليز الهنود بلحظات توجعهم فيها ضمائرهم. كان الاستثناء الوحيد للرجال الذين كانوا يقومون بأشياء نافعة مثبتة بأدلة ويجب أن تثبت إن كان البريطانيون في الهند أم لا: منهم موظفو الغابات مثلاً والأطباء والمهندسون. لكن أنا كنت في الشرطة أي أني كنت جزءا من آلة الاستبداد الفعلية. فضلا عن ذلك، ترى في الشرطة أعمال الإمبراطورية القذرة من قرب وهناك اختلاف أساسي بين القيام بعمل قذر ومجرد الانتفاع منه. أكثر الناس يوافقون على عقوبة الإعدام لكن أكثرهم لن يقوم بدور الجلاد. حتى الأوروبيون في بورما ينظرون باحتقار إلى الشرطة بسبب العمل الوحشي الذي يقومون به. أتذكر مرة عندما كنت أفتش مخفر للشرطة، دخل مبشر أمريكي أعرفه جيداً دخل لغرض ما أو لآخر. كان أبلها ككل المبشرين المنشقين لكنه رجل

طيب. كان أحد المفتشين الثانويين التابعين لي يعذب مشبوها (وصفت هذا المشهد في أيام بورمية). راقبني الأميركي، ثم التفت نحوي وقال بتفكير عميق (لا أبالي بالحصول على وظيفتك). أشعرني كلامه بخجل مرعب. هكذا كانت الوظيفة التي أعمل بها. حتى الأبله القادم مع بعثة تبشيرية أميركية لا يشرب المسكرات ولا يزال قدومه حديث من الغرب الأوسط له الحق في النظر إلي باحتقار ورثى حالي! بدأت أقرف من كل آلة العدالة المزعومة. قل ما تشاء، القانون الجنائي (أكثر إنسانية بالمناسبة في الهند منه في بريطانية) شيء رهيب. تحتاج إدارته إلى أشخاص عديمي الإحساس. السجناء البؤساء الرابضين في الأقفاص النتنة المقفلة والوجوه المروعة الكئيبة للمحكومين بأحكام طويلة وأرداف الرجال المجروحة الذين جلدوا بعصي الخيزران وعويل النساء والأطفال الذين ألقي القبض على أقربائهم الرجال وأخذوا بعيدا - أشياء كهذه فوق التحمل حين تكون مسؤولاً مباشراً عنها بشكل ما. رأيت عملية شنق رجل مرة، بدت لي أسوأ من ألف جريمة. لم أدخل سجن أبداً دون الشعور (أغلب زوار السجن ينتابهم نفس الشعور) بأن مكاني هو الطرف الآخر من القضبان. فكرت حينها كما أعتقد الآن بهذه المسألة - إن أسوأ مجرم عرفته الدنيا أكثر أخلاقية من أي قاض يأمر بالشنق. لكن طبعاً احتفظ بهذه الأفكار لنفسي بسبب الصمت المطلق تقريباً المفروض على كل إنكليزي في الشرق. في النهاية خرجت بنظرية فوضوية مفادها أن كل الحكومات شريرة، وأن العقاب يسبب ضرراً أكبر من الجريمة دائماً وأن الناس يمكن الوثوق بتصرفاتهم لو تركتهم لحالهم فقط. هذا طبعاً هراء عاطفي. أرى الآن ما لم أراه

آنذاك بأنه من الضروري أن نحمي دائماً الناس المسالمين من العنف. في أي حالة من حالات المجتمع تكون فيه الجريمة مريحة يجب أن يكون هناك قانون جنائي قاس يطبق بلا رحمة؛ البديل هو آل كابوني. لكن الشعور بأن العقاب شر يظهر بشكل لا مفر منه على من يطبقونه. يجب أن أتوقع وجود ذلك حتى في إنكلترا، كثير من رجال الأمن والقضاة وحراس السجون وأمثالهم الذين يلازمهم رعب خفي مما يفعلونه. لكن في بورما كان الظلم الذي نرتكبه مضاعفا. لم نكن نشنق الناس فقط ونودعهم في السجون وهكذا؛ كنا نقوم بذلك بقدرة غزاة أجانب غير مرغوب بهم. اللص الذي وضعناه في السجن لم يعتبر نفسه مجرما عوقب بعدل، بل ظن نفسه ضحية فاتح أجنبي. الشيء الذي تعرض له مجرد قسوة طائشة لا معنى لها. وجهه خلف القضبان المتينة الخشبية المقفلة وقضبان السجن الحديدية يقول لك ذلك بوضوح كبير ولحسن الحظ لم أمرن نفسي على تجاهل تعبير الوجه البشري.

حين عدت في إجازة إلى الوطن في العام ١٩٢٧، صممت تقريباً على ترك وظيفتي ونسمة واحدة من الهواء الانكليزي شحذت عزمي. لن أعود لأكون جزءا من الاستبداد الآثم. لكن أردت أكثر من مجرد النجاة من وظيفتي. لخمس سنوات وأنا جزء من نظام قمعي تركني في ضمير رديء. انتابني تذكر أعداد لا تحصى من الوجوه بشكل لا يحتمل - وجوه السجناء في أقفاص الاتهام ولرجال ينتظرون في الزنازين اللعينة ولمرؤوسين تنمرن عليهم وفلاحين عجائز زجرتهم ولخدم وحمالين ضربتهم بقبضتي في لحظات غضب (لكن على أي حال كل شخص تقريباً يقوم بهذه الأشياء في الشرق أحياناً) : يمكن أن يكون

الشرقيون مزعجين جداً. كنت شاعراً بالوزر الهائل لذنبي وضرورة أن أكفر عنه. أعتقد أن هذا مبالغ به لكن لو عملت لمدة خمس سنوات في وظيفة لا تستسيغها فربما تشعر بنفس الشعور. خففت كل شيء إلى نظرية بسيطة هو أن المضطهدين (بالفتح) دائماً على حق والمضطهدين (بالكسر) دائماً على خطأ: نظرية خاطئة لكنها نتيجة طبيعية لكوني أحد المضطهدين (بالكسر) شخصياً. علي أن أنجو ليس من الإمبريالية فقط بل من كل شكل من أشكال سيطرة إنسان على أخيه الإنسان. رغبت بأن أغوص وأنزل بين المضطهدين وأكون واحداً منهم وفي صفهم ضد الطغاة. وبما أنه كان علي أن أفكر في عزلة حملت كرهي للقمع إلى مسافات غير عادية. وبدا لي بذلك الوقت أن الفشل هو الفضيلة الوحيدة والشك بكل تقدم ذاتي حتى لو نجحت في الحياة إلى درجة تحقيق المئات سنويا فقد بدا لي قبيحاً من الناحية الروحية ونوع من التنمر.

بهذه الطريقة تحولت أفكاري اتجاه أفراد الطبقة العاملة الإنكليزية. لقد كانت المرة الأولى الحقيقية التي أدركت فيها الطبقة العاملة وبدأت بها لأنها زودتني بالتماثل. كانوا الضحايا الرمزيين للظلم ويقومون في إنكلترا بنفس دور البورميين في بورما. كانت القضية في بورما بسيطة جداً. كان البيض في الأعلى والسود في الأسفل وكأمر طبيعي كان تعاطف المرء مع السود. أدركت الآن أنه لا حاجة للذهاب بعيداً حتى بورما لنجد الطغيان والاستغلال. هنا في إنكلترا، تحت قدمي المرء كان أفراد الطبقة العاملة الفقيرة يعانون البؤس بكل طرائقه المختلفة بالسوء الذي عرفه أي شرقي. كانت كلمة (بطالة)

على لسان كل واحد. هذا كان جديد تقريباً بالنسبة لأمور كثيرة، بعد بورما، لكن الهراء الذي لازالت الطبقات الوسطى تهذي به (هؤلاء العاطلون عن العمل هم غير صالحون للاستخدام الخ الخ...) فشل في خداعي. وأتساءل كثيراً إن كان هذا النوع من الهراء يخدع حتى الأغبياء الذي يتفوهون به. من جانب آخر لم يكن لدي اهتمام بالاشتراكية في تلك الفترة أو أي نظرية اقتصادية. بدا لي آنذاك كما يبدو لي الآن أحياناً أشعر بأن الظلم الاقتصادي يتوقف في اللحظة التي نريده فيها أن يتوقف وليس بعده وإن رغبنا بصدق بأن يتوقف فإن الطريقة المختارة لا تهم.

لكن لم أكن أعرف شيئاً عن ظروف الطبقة العاملة. لقد اطلعت على إحصائيات البطالة لكن ليس لدي أي فكرة عن مدلولاتها والأهم لا أعرف الحقيقة الجوهرية بأن الفقر المحترم هو دائماً الأسوأ. القدر المرعب للعامل الذي يرمى به فجأة في الشارع بعد حياة طويلة من العمل المتواصل وصراعاته المؤلمة ضد قانون اقتصادي لا يفهمه وتفسخ العائلات والشعور المضني بالخزي ـ هذا كله كان خارج تجربتي. عندما فكرت بالفقر فكرت به على ضوء المجاعة الوحشية. لذلك تحول تفكيري مباشرة نحو الحالات المتطرفة، نفايات المجتمع: المشردين والمتسولين والمجرمين والداعرات. هؤلاء هم أدنى الوضيعين وهم الذين أردت أن أتواصل معهم. ما أردته بقوة في ذالك الوقت أن أجد طريقة للخروج من العالم المحترم كله. فكرت بذلك كثيرا ورسمت خططا مفصلة تبين كيف يستطيع الإنسان أن يبيع كل شيء ويتخلى عن كل شيء ويبدل اسمه ويبدأ بلا مال وليس عليه سوى ثيابه التي

يقف فيها. لكن في الحياة الحقيقية لا أحد يفعل ذلك. بغض النظر عن الأقارب والأصدقاء الذين يجب أن يؤخذوا بعين الاعتبار، من المشكوك فيه أن يستطيع رجل متعلم فعلها إن كان هناك طريق آخر أمامه. لكن على الأقل أستطيع أن أذهب وسط هؤلاء الناس وأرى أحوال حياتهم وأشعر مؤقتا بأنني جزء من عالمهم. لأنني سأكون وسطهم ويقبلون بي يجب أن أعرف الحقيقة وهذا ما شعرت به: شعرت حينها حتى لو كان ذلك غير منطقي بأن جزء من ذنبي سيسقط عني.

فكرت بالموضوع وقررت ما سأفعله. سأذهب متنكراً إلى لايمهاوس ووايتشابل وغيرها من الأماكن المشابهة وأنام في بيوت الإيجار المشتركة وأصادق عمال رصيف السفن وباعة الشوارع والناس المهملين والمتسولين وحتى المجرمين إن أمكن ذلك. وسأكتشف الكثير عن المشردين وكيفية الاتصال بهم وما هو الإجراء المناسب لدخول مأوى خيري، وبعد أن أتعلم جيداً أتابع الطريق بنفسي.

لم يكن الأمر سهلاً في البداية. أقصد التنكر ولم أكتسب موهبة التمثيل. لا أستطيع مثلاً أن أخفي لهجتي لأكثر من دقائق قليلة بأي حال. تخيلت ـ لاحظ الشعور الطبقي المخيف للرجل الانكليزي ـ بأنه يجب أن يشتبه بأني (جنتلمان ـ سيد) في اللحظة التي أفتح فمي فيها؛ لهذا كان لدي تجربة مؤسفة جاهزة في حالة استجوابي، حصلت على الثياب الصحيحة ولوثتها في الأماكن المناسبة. أنا شخص صعب عليه التنكر لكوني طويل بشكل غير عادي لكنني على الأقل أعرف كيف يكون منظر المتشرد. (قلة من الناس تعرف هذا، بالمناسبة! أنظر

إلى أي صورة متسول في بنتش تجدها خارج العصر بعشرين سنة على الأقل). في مساء ما بعد أن تجهزت في بيت أحد الأصدقاء، انطلقت وتجولت شرقا حتى نزلت في بيت إيجار مشترك في لايمهاوس كوزوي. كان مكانا مظلما وقذر المنظر. عرفت أنه بيت مشترك للإيجار من خلال العلامة (أسرة جيدة للرجال العازبين) في النافذة. يا إلهي كيف سأستجمع شجاعتي قبل أن ادخل! يبدو الأمر مضحكا الآن. لكن كما نرى لا أزال خائفا من الطبقة العاملة للآن. أردت أن أتواصل معهم و أكون واحداً منهم أيضاً ولا أزال أشعر بأنهم أشخاص غرباء وخطرين؛ الدخول في مدخل بيت الإيجار المشترك المظلم أشبه بالدخول إلى مكان مخيف تحت الأرض ـ بالوعة مليئة بالجرذان مثلاً. دخلت متوقعاً قتالاً. سيعرف الناس بأنني لست واحداً منهم وسيستنتجون فوراً بأنني أتجسس عليهم ثم ينقضوا علي ويرموني إلى الخارج ـ هذا ما كنت أتوقعه. شعرت بأنه علي فعل ذلك لكني لم استمتع بالموقف.

داخل الباب ظهر رجل يرتدي أكمام قميص من مكان أو آخر، كان هذا هو الوكيل وأخبرته بأنني أريد سريراً لليلة واحدة. لهجتي لم تربكه كما لاحظت، طلب مني تسع بنسات ثم دلني إلى طريق مطبخ مضاء بالنار تحت الأرض. كان هناك عدد من العاملين لتفريغ السفن والحمالين وقلة من البحارة جالسين يلعبون الداما ويشربون الشاي. ألقوا علي نظرة عاجلة وأنا أدخل. كانت تلك ليلة سبت وكان حمال شاب ضخم وثمل يلف حول الغرفة. التفت ورآني وترنح متجهاً نحوي بوجهه الأحمر الواسع الناتئ للأمام ونظرة خطرة باردة في عينيه. شددت نفسي فالقتال قادم حالا! في اللحظة التالية انهار الحمال على صدري ورمى

ذراعيه حول عنقي. (تعال وتناول كوباً من الشاي، أيها الصديق) قال والدموع تملأ عينيه (تناول كوبا من الشاي!)

تناولت كوب الشاي. كان نوعاً من التعميد. بعد ذلك تلاشت مخاوفي. لم يستجوبني أحد ولم يبد أحد أي فضول مهين، كل واحد كان مهذباً ولطيفاً وأخذوني بشكل طبيعي تماماً. بقيت يومين أو ثلاثة في ذلك النزل وبعد بضع أسابيع بعد أن جمعت كمية معينة من المعلومات عن عادات الناس المحرومين، ذهبت للتشرد لأول مرة.

وصفت بالتفصيل في متشرد في باريس ولندن (كل الحوادث التي حدثت فعليا هناك تقريباً، لكن أعيد ترتيبها) ولا أريد تكرارها. بعدها ذهبت للتشرد لفترات طويلة أحياناً بدافع الاختيار وأحيانا أخرى بدافع الحاجة. عشت في بيوت الإيجار المشتركة شهوراً بأكملها. لكن كانت تلك البعثة هي التي التصقت بحيوية قوية في ذهني بسبب غرابتها - غرابة الوجود بين (أدنى الوضيعين) وبظروف مساوية تماماً لظروف الطبقة العاملة. من الصحيح أن المتشرد ليس من الطبقة العاملة النموذجية، لكن حين تكون مع المشردين فأنت مندمج مع طائفة واحدة على أي حال - جماعة فرعية من الطبقة العاملة، شيء بحدود معرفتي يمكن أن يحدث لك بشكل لا يمكن تجنبه. تجولت عدة أيام في ضواحي لندن الشمالية مع متشرد إيرلندي. كنت رفيقه مؤقتاً. تقاسمنا نفس الحجرة ليلاً وأخبرني عن قصة حياة زوجته وأخبرته قصة خيالية عني وتبادلنا الأدوار في التسول من البيوت المحتملة وتقاسمنا العائدات. كنت سعيداً جداً. ها أنا بين أدنى الوضيعين في صخرة العالم

الغربي الصلدة!. لقد انهار الحاجز الطبقي أو بدا لي. وانتابني هناك في عالم الصعاليك القذر والممل بشكل مرعب شعور التحرر والمغامرة الذي يبدو سخيفا الآن حين أنظر للوراء لكنه كان حيوياً تماماً في حينه.

الفصل الثالث

إن مصادقة المتشردين لسوء الحظ لا تحل المشكلة الطبقية لكن القيام بذلك على الأغلب يخلصك من بعض التعصب لطبقتك. المتشردون والمتسولون والمجرمون والمنبوذون من المجتمع عموماً كائنات استثنائية جداً وليسوا نموذجا للطبقة العاملة لأكثر من اعتبار، الفئة المثقفة نموذج للطبقة البورجوازية. من السهل أن تكون العلاقة حميمة مع مثقف أجنبي لكن ليس من السهل أبداً مع أجنبي محترم وعادي من الطبقة الوسطى كما العلاقة السابقة. كم رجلاً إنكليزاً شاهد عائلة فرنسية بورجوازية من الداخل مثلاً؟ ربما يبدو ذلك مستحيل تماماً، دون الزواج منها والوضع مماثل مع العائلة الانكليزية العاملة. لا شيء أسهل من تصبح صديقاً ودوداً مع نشال إن عرفت أين تبحث عنه لكن من الصعب جداً ذلك مع بناء الآجر.

لكن لماذا يكون الوضع سهل جداً وفي شروط متساوية مع المنبوذين الاجتماعيين؟ لقد قال لي الناس كثيراً، (بالتأكيد عندما تكون مع المتشردين هم لا يقبلونك فعلياً كواحد منهم، من دون شك

أنهم يرون بأنك مختلف عنهم - يلاحظون اختلاف اللهجة، الخ الخ.. . في الحقيقة نسبة مقبولة من المتشردين، دعني أقول فوق الربع لم يلاحظوا ذلك. أولاً كثير من الناس ليس لديهم خوف من اللهجة ويحكمون عليك من خلال ثيابك. لقد أدهشتني هذه الحقيقة عندما كنت أتسول في السر. اندهش بعض الناس بوضوح من لهجتي المثقفة بينما فشل البعض الآخر تماماً من ملاحظة ذلك؛ وكل ما رأوه ثيابي القذرة والممزقة. ثانياً يأتي المتشردون من كافة الجزر البريطانية وتنوع اللهجات الانكليزية هائل. يعتاد المتشرد سماع كل أنواع اللهجات وسط زملائه، بعضهم غريب جداً عنه لدرجة لا يفهم ما يقولوه إلا بصعوبة، والرجل الذي من كارديف أو دورهام أو دوبلن لا يعرف بالضرورة أي من اللهجات الإنكليزية في الجنوب هي اللهجة المثقفة. على أي حال الأحوال اللهجات المثقفة غير معروفة وسط المتشردين إضافة إلى ندرتها. لكن حتى لو عرف المتشردون بأنك من أصل مختلف عنهم فليس من الضروري أن يبدل ذلك من موقفهم. من وجهة نظرهم كل ما يهم هو أنك متسول مثلهم. وفي ذلك العالم ليس من الذوق أن تسأل أسئلة كثيرة. يمكنك أن تحكي تاريخ حياتك للناس إن رغبت وأغلب المتسولين يفعلون هذا بأقل تحريض. حتى المطران يمكن أن يأخذ راحته بين المتشردين إن لبس الثياب المناسبة وحتى لو عرفوا بأنه مطران فلن يحدث ذلك أي فرق شرط أن يعرفوا أو يصدقوا بأنه منبوذ حقيقي أيضاً. بمجرد أن تكون في ذلك العالم ومنه فلن يهم كثيراً ما كنته في الماضي. عالم داخل عالم كل من فيه متساو - قليل من الديمقراطية - ربما أقرب شيء للديمقراطية الموجودة في انكلترا.

لكن عندما تأتي إلى الطبقة العاملة فإن الوضع يختلف تماماً. أولا، لا يوجد طريق مختصر إليهم. يمكنك أن تصبح متشرداً بمجرد ارتداء الثياب المناسبة والذهاب إلى أقرب مأوى خيري لكنك لا تستطيع أن تصبح حمالاً أو عامل منجم. لا يمكنك الحصول على عمل كحمال أو عامل منجم حتى لو كنت قادراً على القيام بذلك. يمكنك الاتصال مع مثقفي الطبقة العاملة عن طريق السياسة لكنهم ليسوا نموذجا عنها أكثر من المتشردين واللصوص. عدا ذلك لا يمكنك الاختلاط مع الطبقة العاملة إلا إذا أقمت في البيوت التي يستأجرونها والتي تشبه دائماً الأحياء القذرة الفقيرة. لقد عشت شهوراً كاملة في بيوت عمال المناجم. أكلت وجبات طعامي مع عائلاتها واستحممت في مغسلة المطبخ وتقاسمت غرفة النوم مع العمال وشربت البيرة معهم وأتمنى بأنهم لم يجدوني مزعجاً كنت واحداً منهم وعرفوا ذلك أكثر مما عرفت شخصياً. بقدر ما تحبهم بقدر ما تجد متعة في الحديث إليهم. توجد دائماً (هاء) الاختلاف الطبقي البغيضة، مثل حبة البازلاء تحت فراش الأميرة. ليست مسألة كره أو نفور بل مجرد اختلاف فقط، لكنه يكفي بأن يجعل الألفة الحقيقية مستحيلة. حتى مع عمال المناجم الذين وصفوا أنفسهم بالشيوعيين وجدت بأنني احتاج إلى القيام بمناورات بارعة كي لا ينادوني (سيد)؛ وكلهم باستثناء لحظات الانتعاش الكبير، يلطفون لهجتهم الشمالية إرضاء لي. أحببتهم وأتمنى لو أنهم أحبوني أيضاً. دخلت بينهم كأجنبي وكنت مدركا لذلك وهم أيضاً. تواجهك هذه اللعنة الطبقية كالجدار الأصم أياً كان الطريق الذي تلتف فيه. أو هي لا تشبه الجدار الأصم أكثر من شبهها من اللوح

الزجاجي لحوض السمك، حيث من السهل الزعم بأنه غير موجود لكن يستحيل عبوره.

ولسوء الحظ في الوقت الحاضر أن الموضة الدارجة هي الزعم بأن ذلك الزجاج قابل للاختراق. الكل يعرف طبعاً أن التحيز الطبقي موجود لكن بنفس الوقت الكل يدعي أنه مستثنى منه بطريقة غريبة. التكبر إحدى الرذائل التي يمكن أن نميزها في الآخرين وليس في أنفسنا. ليس فقط الاشتراكيين المؤمنين بواجباتهم الدينية بل كل مفكر يعتبر نفسه بشكل بديهي أنه على الأقل خارج الاضطراب الطبقي، هو لا يشبه جيرانه، ويستطيع أن يرى من خلال سخافة الثروة والمرتبة الاجتماعية والألقاب الخ الخ... (أنا لست متكبرا) أصبحت عقيدة شاملة هذه الأيام. من منهم هناك لم يسخر من مجلس اللوردات والطبقة العسكرية والعائلة الملكية والمدارس الخاصة وجماعة الصيد والرماية وعجائز مأوى شيلتنهام وجمعية الإقليم المرعبة وكل الهرم الاجتماعي؟ القيام بهذا أصبح إيماءة آلية. تلاحظ هذا في الروايات خصوصا. يتبنى كل روائي مغرور موقفاً ساخراً من صفات طبقته العليا. في الحقيقة عندما يرغب أي روائي أن يضع شخص من الطبقة العليا دوقاً أو باروناً بشكل واضح في إحدى قصصه يسخر منه تقريباً بصورة غريزية. يوجد سبب إضافي مهم لفقر لهجة الطبقة العليا الحديثة. خطاب الناس المثقفين الآن بلا روح أو سمة ولا يستطيع الروائي فعل أي شيء إزاء ذلك وأسهل طريقة إلى حد بعيد لجعلها مسلية هو تقليدها والسخرية منها مما يعني الإدعاء بأن كل شخص من الطبقة العليا أبله عاجز وتنتقل الخدعة بتقليد كل روائي لآخر غيره لتصبح في النهاية فعلاً انعكاسياً.

يعرف الكل طيلة ذلك الوقت ومن أعماق القلب بأن هذا دجل. كلنا نشجب الامتيازات الطبقية لكن قلة من الناس تريد إلغاءه فعلا. هنا نأتي إلى الحقيقة المهمة أن كل رأي ثوري يستمد جزء من قوته من القناعة الخفية بعدم إمكانية تغيير أي شيء.

إن رغبت بصورة توضح هذا من الجدير دراسة روايات ومسرحيات جون غلاسورثي والاهتمام بترتيب جدولها التاريخي. غلاسورثي نموذج دقيق جداً لإنسانيي ما قبل الحرب وهو رقيق الإحساس والعاطفة. تبدأ عقدة الشفقة المريضة التي تمتد بالظن بأن كل امرأة متزوجة هي ملاك مقيد بإله إغريقي شبق. هو في رجفة دائمة من السخط على عذاب الكتبة المجهدين وعمال المزارع المنقوصة أجورهم والنسوة الساقطات والداعرات والحيوانات. العالم الذي يصوره في كتبه الأولى (رجل الملكية والعدالة الخ..) مقسم إلى مضطهدين (بالكسر) ومضطهدين (بالفتح) والمضطهدون يتربعون على القمة مثل وثن حجري مخيف وضخم جداً لا يستطيع كل ديناميت العالم الإطاحة به. لكن هل هو يريد فعلا الإطاحة به؟ على العكس، في قتاله ضد الاستبداد الذي لا يتزحزح يدعمه الشعور بأن هذا الاستبداد ثابت. عندما تحدث الأشياء على نحو غير متوقع ويبدأ النظام العالمي الذي اعتاد عليه في التفتت، سيشعر نحوه بشعور مختلف. لهذا، بدأ ليكون بطل المستضعفين بوجه الطغيان والظلم، وانتهى بالدفاع قائلا (راجع الملعقة الفضية) بأن الطبقة العاملة الانكليزية، لتعالج أمراضها الاقتصادية يجب أن ترّحل بالقوة إلى المستعمرات كقطعان الماشية. ولو عاش عشر سنوات أخرى لتوصل إلى نسخة مهذبة من الفاشية. هذا هو القدر

المحتوم لذوي النزعة العاطفية. كل أرائهم تتبدل إلى نقيضها في أول تماس مع الواقع. يتخلل نفس هذا الخط من النفاق الفج المنقوع المعتقد التقدمي كله. خذ قضية الامبريالية مثلاً، كل مفكر من الجناح اليميني معاد للامبريالية بشكل طبيعي ويدعي آلياً بأنه خارج لغط الإمبراطورية ومستقيم أخلاقيا كما يزعم انه خارج اللغط الطبقي أيضاً حتى المفكر اليميني الذي ليس في ثورة ضد الامبريالية بشكل واضح يزعم بريطها بنوع من عدم التحيز. من السهل التذاكي بخصوص الإمبراطورية البريطانية. عبء الرجل الأبيض و(احكم بريطانيا) وراويات كيبلينغ والانكليز الهنود المضجرين ـ من يستطيع ذكر هذه الأشياء بدون قهقهة؟ هل هناك أي رجل مثقف لم يسخر ولو مرة في حياته من الهندي الذي قال إذا رحل البريطانيون من الهند لن تظل روبية أو بتول بين بيشاور ودلهي؟ ذلك هو موقف الجناح اليساري النموذجي من الامبريالية وهو موقف كله ضعف وجبن. رخو وجبان. وأخيرا إن السؤال المهم هو. هل تريد أن تبقى الإمبراطورية البريطانية متحدة أم تريدها منحلة؟ من أعماق قلب كل إنكليزي وعلى الأقل هذا النوع من الأشخاص الأذكياء الذين سخروا من العقداء الهنود، لا يريدونها بأن تتفسخ. بغض النظر عن أي اعتبار آخر، لأن مستوى المعيشة العالي الذي ننعم به في انكلترا يعتمد على إبقاء قبضة متينة على الإمبراطورية وخصوصا أجزاءها الاستوائية الحارة كأفريقيا والهند. في ظل النظام الرأسمالي، لكي تعيش انكلترا في راحة نسبية يجب أن يعيش مئة مليون هندي على حافة المجاعة ـ حلة ترابط شريرة، لكنك تقبلها كلما ركبت في سيارة أجرة أو تناولت طبقاً من الفراولة والقشطة.

البديل رمي الإمبراطورية من المركب وتقليص انكلترا إلى جزيرة باردة غير مهمة حيث يجب أن نعمل كلنا بأقصى جهد ونعيش على سمك الرنجة والبطاطس. هذا ما لا يريده أي يساري. ومع ذلك يستمر اليساري بشعوره بالتحرر من أي مسؤولية أخلاقية اتجاه الامبريالية. وهو مستعد تماماً لقبول سلع الإمبراطورية ويستثني نفسه بالاستهزاء من الناس الذين يقبضون على تماسك الإمبراطورية.

من هذه النقطة يبدأ المرء بإدراك زيف موقف غالبية الناس من المسألة الطبقية. طالما أنها مجرد مسألة تحسن حصة العامل فكل شخص محترم يوافق عليها. خذ عامل المنجم مثلاً، كل واحد، باستثناء الأغبياء والأوغاد يود أن يرى عامل المنجم بحال أفضل. لو مثلاً، استطاع العامل أن يركب قاطرة مريحة في وجه الفحم بدلاً من الزحف على يديه وركبتيه ويعمل في وردية مدتها ثلاث ساعات بدلاً من سبع ساعات ونصف ويعيش في بيت لائق من خمس غرف نوم وحمام وأجر أسبوعي قدره عشرة جنيهات في الأسبوع ـ فهذا ممتاز! فضلاً عن أن كل من يستخدم عقله يعرف جيداً بأن هذا ضمن مدى الإمكانية. إن العالم كإمكانية على الأقل، غني بشكل هائل، ولو طورناه كما ينبغي لاستطعنا أن نعيش كالأمراء بفرض أننا نريد هذا. وللنظرة السطحية السريعة يبدو الجانب الاجتماعي للمسألة بسيطاً بالتساوي. من الصحيح بمعنى ما أن كل واحد تقريباً يود أن يرى إلغاء الامتيازات الطبقية ومن الواضح أن هذا القلق المستمر بين الإنسان وأخيه الإنسان الذي نعاني منه في إنكلترا الحديثة لعنة وأذى. لهذا السبب تجأر قلة من رؤساء الكشافة بالنوايا الحسنة. توقفوا بمناداتي بالسيد أيها الرجال! كلنا

رجال بالتأكيد أليس كذلك؟ دعونا نكون أصدقاء ونبذل أقصى طاقاتنا ونتذكر بأننا متساوين وما أهمية أن أعرف أي ربطة عنق سألبس وأنتم لا تعرفون وأن أشرب حسائي بهدوء وتشربوها أنتم على ضجيج الماء النازل في أنبوب التصريف وهكذا وهلم جر؛ كل هذا هراء ضار لكنه مغر تماماً حين يعبر عنه بشكل مناسب.

لكن لسوء الحظ ليس لديك أكثر من تمني زوال الامتيازات الطبقية. وبأدق، من الضروري أن تتمنى زوالها، لكن أمنيتك ليس لها تأثير إلا إذا أدركت ما تتضمنه. الحقيقة التي يجب مواجهتها وهي إن إلغاء الامتيازات الطبقة يعني إلغاء جزء من نفسك. أنا مثلاً عضو نموذجي من الطبقة الوسطى من السهل علي القول بأنني أريد أن أتخلص من الامتيازات الطبقية لكن تقريباً كل شيء أفكر فيه وأفعله ناتج عن الامتيازات الطبقية. كل أفكاري - أفكاري عن الخير والشر والأفكار السارة والبغيضة والهزلية والجادة والجميلة والقبيحة - هي جوهرياً أفكار الطبقة الوسطى؛ ذوقي في الكتب والطعام والثياب، شعوري بالشرف وآداب الطعام طرقي في الكلام ولهجتي وحتى صفات حركات جسدي هي نتاج نوع خاص من التربية وموضع خاص على مقربة من منتصف الطريق في الهرم الاجتماعي. عندما أدرك هذا أدرك بأنه لا فائدة من الطبطبة على ظهر البروليتاري والقول له بأنه رجل طيب مثلي؛ أن أردت تواصلاً حقيقيا معه علي أن أقوم بجهد من المحتمل جداً أنني غير مستعد له. لكي أكون خارج اللغط الطبقي لا يجب علي أن اقمع تكبري الخاص فقط بل ميولي الأخرى وأهوائي أيضاً. علي أن أغير نفسي تماماً لدرجة لا يمكن تمييزي فيها إلا

بصعوبة على أنني الشخص نفسه. المعني ليس مجرد تحسين ظروف الطبقة العاملة ولا تحاشي أكثر أشكال التكبر غباء بل الهجر التام لموقف الطبقة العليا والطبقة الوسطى من الحياة. وقد تعتمد موافقتي أو رفضي على مدى إدراكي لما هو مطلوب مني.

لكن كثير من الناس يتخيلون بأنهم يستطيعون إلغاء الامتيازات الطبقية دون القيام بأي تغيير مزعج في عاداتهم الخاصة وإيديولوجيتهم. لهذا السبب تتزايد النشاطات الحماسية لكسر الطبقات في كل المجالات. في كل مكان هناك ناس من أهل النوايا الحسنة الذين يعتقدون بصدق أنهم يعملون من أجل إسقاط الامتيازات الطبقية. يتحمس اشتراكيو الطبقة الوسطى من أجل البروليتاري ويدير المدارس الصيفية حيث يلتقي البروليتاري والبورجوازي التائب بحماس ليعالجا القضايا المشتركة ويكونا أخوة للأبد ويغادر الزوار البورجوازيون قائلين إن العمل رائع وملهم (ويرحل البروليتاريون ويقولوا شيئاً مختلفا). ثم تأتيك ظاهرة مسيح الضواحي الخارجية البغيض، وهي أثر عادة خلفها زمن وليام موريس لكن المدهش أنها لا تزال شائعة، الذي يتنقل قائلاً (لماذا يجب أن نخفض المستوى؟ لماذا لا نرفعه؟) ويطالب برفع مستوى الطبقة العاملة إلى مستواه بواسطة العادات الصحية وعصير الفاكهة وضبط النسل والشعر الخ الخ... حتى دوق يورك نفسه (الملك جورج الرابع الآن) افتتح معسكراً سنوياً حيث من المفترض أن يختلط فيه طلاب المدارس الخاصة وأولاد الأحياء الفقيرة القذرة في ظروف متساوية تماماً واختلطوا في الوقت المقرر كما تختلط حيوانات أقفاص العائلة السعيدة حيث تجد كلب وقط واثنان من ابن مقرض وأرنب

وثلاثة طيور من الكناري محافظين على هدنة مسلحة بينما عيون منظمة العرض عليهم.

إن كل هذه الجهود المتعمدة المقصودة لكسر الحواجز بين الطبقات خطأ وخطير جداً حسب قناعتي وهي مجرد عبث أحياناً وإن ظهرت بنتيجة محددة فهي تقوي الانحياز الطبقي عادة. هذا ما يجب توقعه لو فكرنا بالموضوع. أنت فرضت نسبة التقدم وأقمت مساواة غير طبيعية وصعبة بين طبقة وأخرى، لذا فإن الاحتكاك الناتج عن اختلاطهما سيبرز على السطح كل أنواع المشاعر التي لولا ذلك لظلت مدفونة للأبد. كما قلت فيما يتعلق بغلاسورثي، آراء العاطفي تتحول إلى نقائضها ساعة اصطدامها بالواقع. أخدش السلمي النموذجي وستجده متعصباً.العضو في الحزب العمالي المستقل وشارب عصير الفواكه الملتحي كلاهما مؤيد للمجتمع اللاطبقي طالما أنهما يريان البروليتاري من خلال النهاية الخاطئة للمنظار المقرب؛ أجبرهم بأي اتصال حقيقي مع بروليتاري - دعهم يدخلون في قتال مع حمال سمك ثمل في ليلة سبت مثلاً - لترى بأنهما قادران على الارتداد إلى أكثر من تكبر الطبقة المتوسطة شيوعاً. من غير المحتمل على أكثر اشتراكيي الطبقة الوسطى الدخول في شجار مع حمالي السمك الثملين حين يقومون باتصال حقيقي مع الطبقة العاملة وإنما مع مثقفي الطبقة العاملة عادة. لكن الفئة المثقفة من الطبقة العاملة تنقسم بحدة إلى نموذجين مختلفين. هناك النموذج الذي يبقى طبقة عاملة - الذي يستمر بالعمل كميكانيكي أو عامل في حوض للسفن أو مهما يكن ولا يتضايق من تبديل لهجته وعاداته لكنه يطور عقله في وقت فراغه ويعمل

لصالح حزب العمال المستقل أو الحزب الشيوعي؛ وهناك النموذج الذي لا يبدل طريقة معيشته على الأقل خارجيا والذي بواسطة منح الدولة الدراسية ينجح في التسلق إلى الطبقة الوسطى. النموذج الأول من أروع الرجال الذين عندنا. واستطيع أن أفكر في بعض الذين قابلتهم ولا يستطيع اشد المحافظين بأن لا يعجب بهم ويحبهم. النموذج الآخر أقل إبهاراً مع الاستثناءات - دي اتش لورانس مثلاً.

بداية من المؤسف رغم أنها نتيجة طبيعية لنظام المنح التعليمية أن البروليتاري يجب أن يميل إلى اختراق الطبقة الوسطى من خلال الفئة المثقفة الأدبية. لأنه من الصعب أن تشق طريقك داخل فئة المفكرين الأدباء إن كنت كائناً بشرياً محترماً. عالم الأدب الانكليزي المعاصر والقسم الرفيع الثقافة منه على الأقل هو نوع من غابة سامة لا تزدهر فيها سوى الأعشاب الضارة. لا يمكن أن تكون رجل أدب وتظل محتفظاً بحشمتك إلا إذا كنت كاتباً مشهوراً فقط ـ ككاتب قصص بوليسية مثلاً، لكن لتكون مثقفاً رفيعاً بعمود في المجلات المتكبرة يعني هذا أن تسلم نفسك وتكون عرضة لحملات رهيبة من التحكم بك كدمية والتوبيخ الشائن. في عالم رفيعي الثقافة يمكنك أن تتقدم وتنجح إن نجحت في كل المجالات، ليس بمقدرتك الأدبية بل بأن تكون الشخص الأكثر إمتاعا وتسلية في حفلات الكوكتيل (مهرج) وتقبل أكفال الأسود الصغيرة القذرة. هذا إذا كان هو العالم الأكثر استعداداً لفتح أبوابه للبروليتاري الذي يخرج متسلقا من طبقته. الصبي الذكي لعائلة من الطبقة العاملة والولد الذي يفوز بمنحة دراسية وواضح أنه غير مناسب لحياة العمل اليدوي، قد يجد طرقاً أخرى

للارتقاء إلى الطبقة الأعلى ـ نموذج مختلف قليلاً، مثلاً يرتفع من خلال سياسة حزب العمال لكن الطريق الأدبي معتاد أكثر. تعج لندن الأدبية الآن بالشباب الذين ينحدرون من أصول بروليتارية وتثقفوا بواسطة المنح الدراسية. كثير منهم ناس ذوي طبع سيء ولا يمثلون طبقتهم أبداً. إن أكثر الأوضاع شؤماً عندما ينجح شخص من أصل بورجوازي في لقاء بروليتاري وجهاً لوجه وبظروف متساوية، هذا هو النموذج الذي يقابله في العادة. لأن النتيجة هي عودة البورجوازي الذي صور البروليتاري بالمثالية إلى سعار التكبر. أحياناً تكون مشاهدة العملية هزلية جداً لو صدف أن شاهدته من الخارج. البورجوازي المسكين ذو النية الحسنة متلهف لمعانقة أخيه البروليتاري، يثب للإمام بذراعين مفتوحتين وبعد فترة قصيرة يتراجع بسلبية كبيرة ويهتف بحزن (لكن اللعنة، الزميل ليس رجلاً نبيلاً!)

ما يحبط البورجوازي في اتصال من هذا النوع أنه يجد أن بعضاً من آراءه أخذت على محمل الجد. أشرت سابقا بأن آراء المفكر النموذجي زائفة في الدرجة الأولى. بدافع ميله للمحاكاة يسخر من الأشياء التي يؤمن بها فعلياً. كواحد من أمثلة كثيرة، خذ مبادئ الشرف للمدارس الخاصة، (بروح الفريق) و (لا تضرب الرجل حين يقع) وكل ما تبقى من ذلك الهراء المألوف. من لم يسخر منها؟ أي واحد يجرؤ بأن يعتبر نفسه مثقفا لم يهزأ بها؟ لكن الأمر يختلف قليلا عندما تقابل شخصا يسخر منها من الخارج، كما تماماً عندما نمضي حياتنا في الإساءة إلى انكلترا لكننا نشتاط غضباً حين نسمع الأشياء نفسها من أجنبي. ليس هناك شيئا مسليا أكثر من (متسكع الشواطئ) الاكسبريس وهو

يسخر وهو على حق من مبادئ المدارس الخاصة التي تعتبر الغش بلعبة الورق من أشنع الذنوب. لكن هل يحب على هذا المتسكع أن يضبط أحد أصدقائه متلبسا وهو يغش في الورق؟ أشك بذلك. لا تبدأ بإدراك حقيقة معتقداتك إلا حين تلتقي بشخص من ثقافة مختلفة عن ثقافتك. إن كنت مفكراً بورجوازيا تتخيل فوراً بأنك أصبحت شخصا غير برجوازي لأنه من السهل عليك أن تسخر من الوطنية وكاثوليكية انكلترا ورابطة المدرسة القديمة والعقيد بليمب وكل البقية الباقية. لكن من وجهة نظر المفكر البروليتاري الذي هو بالأصل خارج الثقافة البورجوازية شبهك بالعقيد بليمب قد يكون أهم من اختلافك عنه وعلى الأرجح يعتبرك أنت والعقيد بليمب عملياً شخصين كل منهما بديلاً عن الأخر وهو محق بشكل ما لكن لا أنت ولا العقيد بلمب ستعترفان بذلك. لهذا لقاء البروليتاري مع البرجوازي عندما ينجح لا يكون دائماً عناق اخوي حار وإنما صدام ثقافات غريبة عن بعضها البعض لا تلتقي إلا بالحروب.

انظر إلى هذا من وجهة نظر البورجوازي الذي وجد بأن معتقداته السرية قد تعرضت للتحدي فانكمش إلى محافظ مرتعب؟ لكن يجب على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار العداء الذي أثاره المفكر البروليتاري. أحياناً بجهوده الذاتية وأحياناً بآلام مبرحة يصارع للخروج من طبقته إلى طبقة أخرى حيث يتوقع أن يجد حرية أوسع ونقاء فكري أكبر لكن كل ما يجده نوع من الخلاء والفتور ونقص المشاعر الإنسانية بأي حياة حقيقية على الغالب. يبدو له البورجوازيون أحياناً مجرد دمى تجري في عروقهم المال والماء بدلا من الدم. على أي حال هذا ما يقوله ويدوخك

بهذا الحديث الطويل كل شاب عالي الثقافة من أصل بروليتاري. لهذا نحن نعاني من هذا النفاق البروليتاري الآن. كل واحد يعرف أو يجب أن يعرف في هذا الوقت كيف تسير الأمور: البورجوازيون أموات (الشتيمة المفضلة هذه الأيام ومؤثرة جد لأنها بلا معنى) الثقافة البورجوازية أفلست، القيم البورجوازية حقيرة وهلم جرى وان أردت أمثلة كثيرة فعليك الرجوع إلى أي عدد من أعداد ليفت ريفيو أو واحد من الكتاب الشيوعيين الشباب مثل الي براون وفيليب اندرسون وغيرهم. الصدق في كثير منه هو الشك، لكن دي اتش لورانس الذي كان صادقاً ولم يكن أي شيء آخر، يكرر التعبير عن نفس الفكرة كثيراً. غريب كيف يعزف بهذه الفكرة بأن الطبقة البورجوازية كلها ميتة أو على الأقل مخصية. ميلورس حارس الطرائد في عاشق السيدة شاترلي (لورانس نفسه) تواتيه الفرصة للخروج من طبقته ولا يريد العودة إليها بالتحديد لأن للطبقة العاملة الإنكليزية عادات كريهة كثيرة؛ وبالمقابل الطبقة البورجوازية التي اختلط بها إلى حد ما بدت له شبه ميتة وسلالة من المخصيين. زوج السيدة شاترلي رمزياً عاجز جنسياً في المعنى البدني الفعلي. ثم هناك القصيدة التي عن الشاب (لورانس مرة أخرى) الذي صعد إلى قمة الشجرة ونزل قائلاً:

عليك أن تكون كالنسناس

لتتسلق إلى قمة الشجرة

لن تظل بك فائدة للأرض الصلبة

وللصبي الذي كنته

تجلس بين الأغصان وتثرثر

باستعلاء

الجميع يثرثرون ويهذرون

لكنهم لن يقولوا كلمة

يا غلام، وتخرج فعلاً من أعماقهم

سوى الأمر مناصفة

أخبرك بشيء حدث لهم

وللأفراخ التي في الأعلى؛

لا يوجد ديك بينها، الخ، الخ.

قلما تجد تعبيراً أبسط من ذلك. ربما يقصد لورانس (بالناس الذين في أعلى الشجرة) البورجوازيين الحقيقيين هؤلاء الذين يبلغ دخل أحدهم ألفي جنيه وأكثر سنوياً لكني أشك بذلك. الاحتمال الكبير أنه يقصد بهم كل من في داخل الثقافة البورجوازية تقريباً - كل من تربى على لهجة رقيقة متكلفة وفي بيت فيه خادم أو اثنين. عند هذه النقطة تدرك الخطر الذي لم يستطع البروليتاري إدراكه، أقصد العداوة الرهيبة القادرة على الثوران. لأنك عندما تصل إلى اتهام كهذا، فأنت بمواجهة جدار أصم. أخبرني لورانس بأنني مخصي لأني ارتدت مدرسة خاصة. حسناً ما العيب في ذلك؟ أستطيع أن أقدم دليلاً طبياً ينفي ذلك لكن ما الفائدة ؟ ستبقى إدانة لورانس. لو أخبرتني بأنني وغد فقد أصلح أسلوبي لكن إن قلت لي بأنني مخصي فأنت تغريني بالرد

بطريقة تبدو معقولة بطريقة ما. إن أردت أن تكسب عداوة شخص فقل له بأن أمراضه لا علاج لها.

هذه هي نتيجة أغلب لقاءات البروليتاري والبورجوازي: لا تولّد سوى عداوة حقيقية يكثفها عجز البروليتاري وهي نتاج اتصال إجباري بين طبقة وطبقة أخرى. إن الإجراء الوحيد المعقول هو السير ببطء وعدم فرض تسريع الخطى بالقوة. لو اعتقدت سراً بأنك رجل نبيل وأنك بمستوى يفوق صبي التوصيل في دكان الخضار فمن الأفضل لك أن تعترف بهذا بدلا من تلفيق الأكاذيب. بالتأكيد عليك أن تسقط عنك تكبرك لكن من الخطأ الفادح أن تتظاهر بإسقاطه قبل أن تكون مستعد للقيام بذلك فعلياً.

يمكن للمرء في الوقت الحالي أن يرى تلك الظاهرة المحزنة في كل مكان: شخص من الطبقة الوسطى، اشتراكي متحمس في الخامسة والعشرين ومحافظ متكبر في الخامسة والثلاثين. لكن بطريقة يكون فيها ارتداده طبيعيا، على أي حال يمكن للمرء أن يرى كيف تتبدل أفكاره. ربما لا يعني المجتمع اللاطبقي حالة مبهجة من العلاقات التي سنواصل التصرف فيها كما من قبل بالضبط بشرط أن لا يكون هناك كره طبقي ولا تكبر وربما يعني عالماً كئيباً لن يكون فيه لكل مُثلنا العليا ومبادئنا وإيديولوجياتنا أي معنى في الواقع، بل على العكس مجرد رحلة مقفرة إلى المجهول وقد تكون نهايتها الابتسامة التي على وجه النمر. سنباشر بابتسامات محبة لكن داعمة بالترحيب بإخوتنا البروليتاريين وانتبه! أخوتنا البروليتاريون –

بقدر ما نفهمهم – هم لا يطلبون ترحيبنا بل يريدوننا أن ننتحر. عندما يرى البورجوازي الأمور بهذا الشكل فإنه يلوذ بالفرار وإن كانت حركته سريعة فقد تحمله إلى الفاشية.



الفصل الرابع

ما هو حال الاشتراكية الآن؟

قلما نحتاج للإشارة بأننا في فوضى خطيرة جداً في هذه اللحظة، خطيرة لدرجة أن أغبى الأذكياء يجد من الصعب تجاهل ذلك. نحن نعيش في عالم كل من فيه ليس حراً، وقلما نجد شخصاً آمناً فيه ومن المستحيل أن تكون فيه صادقاً وتظل حياً. بالنسبة لزمر هائلة من الطبقة العاملة تبدو ظروف الحياة كتلك التي وصفتها في الفصول الافتتاحية من هذا الكتاب وليست هناك أي فرصة ظاهرة لها بأي تحسن جوهري. وأفضل ما تتمناه الطبقة العاملة الانكليزية زيادة مؤقتة عرضية في البطالة عندما تكون هذه الصناعة أو تلك يحفزها بشكل مصطنع إعادة التسليح مثلاً. حتى الطبقات الوسطى تشعر بالضيق للمرة الأولى في تاريخها. لم يعرف أفرادها الجوع الفعلي بعد لكن الكثير منهم يجدون أنفسهم يتخبطون في مصيدة مميتة من الإحباط الذي من الصعب جداً أن تقنع نفسك فيها بأنك أما سعيد وفعال أو مفيد. حتى

المحظوظين الذين في القمة، البرجوازيين الحقيقيين ينتابهم دورياً الشعور بالبؤس في الأسفل فضلا عن المخاوف من المستقبل الخطر. وهذا مجرد مرحلة تمهيدية، في دولة غنية بغنائم مئات من السنين. قريباً قد يصاغ رعب لا يعرفه إلا الله ليس لدينا أي معرفة تقليدية به في هذه الجزيرة المحمية.

وعلى طول الوقت يعرف كل من يستخدم عقله بأن الاشتراكية كنظام عالمي لو طبقت بإخلاص هي المخرج. إنها تضمن لنا ما يكفي من الطعام على الأقل حتى لو حرمتنا من كل شيء آخر. في الحقيقة ومن وجهة نظر واحدة، الاشتراكية شعور مشترك بسيط جداً لدرجة أنني اندهش أحياناً لماذا لم تتوطد بعد. العالم عبارة عن طوف يبحر عبر فضاء تتوفر فيه موارد كثيرة كامنة لكل شخص؛ الفكرة التي يجب أن نتعاون كلنا ونتنبه لها أن كل واحد يقوم بحصته العادلة من العمل وينال حصته العادلة من الموارد يبدو جلياً بشكل صارخ لدرجة يمكن أن يقول المرء فيها بأنه ليس من يستطيع أن لا يقبل به إلا إذا كان لديه دافع فاسد للتمسك بالنظام الحالي. لكن الواقع الذي يجب أن نواجهه هو أن الاشتراكية لا ترسخ نفسها وقضية الاشتراكية تتراجع بدلا من التقدم للأمام. يتراجع الاشتراكيون في كل مكان الآن أمام وجه الهجوم الفاشي والأحداث تتسارع بوتيرة رهيبة. تقصف القوات الفاشية الاسبانية مدريد في الوقت الذي اكتب فيه هذا ومن المحتمل جداً أن تضاف إلى القائمة دولة فاشية أخرى قبل طبع هذا الكتاب دون

التكلم عن السيطرة الفاشية على البحر الأبيض المتوسط التي قد يكون لها تأثير في تسليم السياسة الخارجية البريطانية إلى موسوليني. على أي حال لا أريد هنا أن أناقش قضايا سياسية كبيرة. وما أهتم به هو حقيقة أن الاشتراكية تتراجع وتخسر في الأماكن التي يجب أن تفوز فيها بالضبط. مع مؤيديها الكثيرين جداً ـ من أجل بطون خاوية حجة للاشتراكية ـ فكرة الاشتراكية أقل قبولاً مما كانت عليه قبل عشرة سنوات. إن الشخص المفكر النموذجي في هذه الأيام ليس غير اشتركي فقط وإنما معاد فعال للاشتراكية. يجب أن يعود هذا إلى الأساليب الخاطئة للدعاية. هذا يعني أن الاشتراكية في الشكل المقدم لنا الآن فيها شيء مقزز ملازم لها ـ شيء يبعد الأشخاص الذين يجب أن يكونوا طليعة دعمها النافذة. منذ بضع سنوات ربما كان هذا غير مهم. يبدو لي الأمس فقط حين كان الاشتراكيون وخصوصاً الماركسيون الأرثوذوكس يقولون بابتسامات استعلاء بأن الاشتراكية ستصل طوعاً بواسطة عملية غامضة تدعى (الحتمية التاريخية). ربما لا يزال المعتقد يتقدم ببطء لكن يمكن القول بأنه قد اهتز على الأقل. وهذا يفسر المحاولات المفاجئة للشيوعيين في بلدان مختلفة للتحالف مع القوى الديمقراطية التي كانوا يخربونها في السنوات السابقة. في لحظة كهذه من الضروري جداً اكتشاف سبب فشل الاشتراكية في دعوتها. لا فائدة من شطب النفور الحالي من الاشتراكية كنتيجة للغباء أو الدوافع البغيضة. إن أردت أن تزيل النفور عليك أن تفهمه، مما يعني الدخول إلى عقل المعارض للاشتراكية العادي أو على الأقل التعامل مع

وجهة نظره بشكل متعاطف. لن تتم الإجابة عن أي قضية دون أن تنال نصيبها العادل من الاستماع. لذلك، بدلا من التناقض، لكي ندافع عن الاشتراكية من الضروري أن نبدأ بمهاجمتها.

في الفصول الثلاثة الأخيرة حاولت أن احلل الصعوبات التي أثارها نظامنا الطبقي البالي؛ يجب أن أعالج هذا مرة أخرى لأنني أعتقد أن الطريقة الغبية جداً الحالية لتناول القضية الطبقية قد تحمل أعدادا كبيرة من الاشتراكيين المحتملين على الفرار إلى الفاشية. في الفصل الذي يلي هذا الفصل أريد أن أناقش الفرضيات الأساسية التي تنفر العقول الحساسة من الاشتراكية. لكن في هذا الفصل سأتعامل مع الاعتراضات الأولية الواضحة فقط ـ الأشياء التي يبدأ الشخص غير الاشتراكي دائماً قولها حين تقحمه في الموضوع (لا اقصد نموذج من أين ستأتي النقود؟). بعض هذه الاعتراضات تبدو تافهة ومناقضة لنفسها لكن ذلك أمر جانبي؛ أنا أناقش الأعراض فقط. أي شيء وثيق الصلة يساعد على توضيح لماذا الاشتراكية غير مقبولة. ولاحظ بأنني أجادل دفاعاً عن الاشتراكية وليس ضدها. لكن أنا الآن محامي الشيطان أنا أعرض قضية الشخص الذي يتعاطف مع الأهداف الأساسية للاشتراكية والذي لديه القدرات العقلية ليرى بأن الاشتراكية ستنجح لكنه عملياً يلوذ بالفرار دائماً حين يشار إلى الاشتراكية. اسأل أي شخص من هذا النموذج وستحصل على نفس الجواب شبه التافه دائماً: أنا لا أعترض على الاشتراكية بل اعترض على الاشتراكيين. منطقياً

هذا جدل هزيل لكنه له أهميته عند كثير من الناس. كالديانة المسيحية أسوأ دعاية للاشتراكية هم مناصروها.

أول ما يشد المراقب الخارجي إن الاشتراكية بشكلها المتطور هي نظرية مقتصرة تماماً على الطبقات الوسطى. الاشتراكي النموذجي ليس خيال عجائز مرتعش وإنما عامل شرس المظهر ببذلة متسخة بالشحم وصوت أجش. وهو إما شاب بلشفي متكبر سينجح في مدى خمس سنوات في القيام بزواج موسر ويتحول إلى الكاثوليكية الرومانية، أو من النموذج الأكثر شاب أنيق متزمت من ذوي الياقات البيضاء لا يشرب الكحول عادة وبميول نباتية على الأكثر وخلفه تاريخ من الانشقاق عن الكنيسة والأهم من ذلك في مركز اجتماعي ليست لديه النية لخسارته. هذا النموذج الأخير شائع بشكل يدعو للدهشة في الأحزاب الاشتراكية من كافة الأطياف؛ ربما تم الاستيلاء عليهم بشكل جماعي من الحزب الليبرالي القديم. بالإضافة إلى هذا يوجد الانتشار الكريه والمزعج فعلاً للمهووسين أينما تجمع الاشتراكيين معاً. وأحياناً يتولد الانطباع لديك بأن كلمات (الاشتراكية) و(الشيوعية) تجذب نحوها بقوة مغناطيسية كل شارب عصير فاكهة ومناد بمذهب التعري ومهووس بالجنس والكويكر (المرتعد) والمشعوذ المعالج بالطبيعة والسلمي والمنادي بالمساواة بين الجنسين في انكلترا. في أحد أيام هذا الصيف كنت أقود سيارتي في ليتشورث حين توقفت الحافلة وصعد إليها رجلان مسنان مظهرهما مروع. كانا بحدود الستين

من العمر قصيرين جداً احمري الوجه وبدينين وحاسري الرأس. أحدهما كان أصلعاً بشكل فاحش، والآخر له شعر رمادي طويل معقوص بطريقة لويد جورج. يرتديان قمصان ملونة خضراء وسراويل قصيرة كاكية انحشرت كروشهم فيها بإحكام لدرجة يمكنك تأمل كل تجويف فيهما. مظهرهما أثار رعباً بارداً في مقدمة الحافلة. الرجل الذي بجانبي، مندوب تجاري متنقل نظر إلي واليهما وإلي مرة أخرى وتمتم (اشتراكيون) كما لو يقول (هنود حمر). ربما كان على حق ـ حزب العمال المستقل كانوا يعقدون مدرستهم الصيفية في ليتشورث. لكن النقطة لديه كرجل عادي، أن المهووس يعني له الاشتراكي والاشتراكي يعني له المهووس. إنه يشعر بأن أي اشتراكي يعتبر غريب الأطوار نوعاً ما. وبعض من هذه الفكرة تتواجد بين الاشتراكيين أنفسهم. مثلاً لدي دليل هنا من مدرسة صيفية أخرى تؤكد على حصص المؤن كل أسبوع ثم تسألني إن كان غذائي عادياً أم نباتياً. يعتبرون الأمر مفروغ منه كما ترى ومن الضروري أن تسأل هذا السؤال. هذا الشيء بذاته ينفر كثيراً من الناس المحترمين. وغريزتهم سليمة تماماً لأن مهووس الطعام بالتعريف هو شخص يرغب أن يعزل نفسه عن المجتمع الإنساني أملاً بإضافة خمس سنوات إلى حياة جسده. يعني شخص لكن بأثر قليل مع الصفات البشرية المشتركة.

يجب أن تضيف إلى هذا الحقيقة البشعة بأن أكثر اشتراكيي الطبقة الوسطى يتمسكون كالغراء بالبقايا البائسة لنفوذهم

الاجتماعي بينما يتوقون نظريا إلى مجتمع لا طبقي. أتذكر شعوري بالرعب من أول اجتماع فرعي احضره لحزب العمال المستقل في لندن. قد يختلف الأمر قليلاً في الشمال، حيث انتشار البورجوازية أقل. وفكرت هل هؤلاء البهائم الصغيرة البخيلة هم أبطال الطبقة العاملة؟ لأن كل شخص هناك ذكراً أم أنثى كان يحمل أسوأ وصمة لاستعلاء الطبقة الوسطى. لو دخل عامل منجم متسخ من الحفرة مثلاً وسطهم، سيرتبكون ويغضبون ويشعرون بالغثيان وسيفر بعضهم كما أظن ممسكين بأنوفهم. يمكنك رؤية نفس النزعة في الأدب الاشتراكي الذي حتى عندما لا يكتب بأسلوب رفيع بشكل صريح فهو منفصل تماماً عن الطبقة العاملة في اللغة وطريقة التفكير. إن كول وستاركي وويب وأتباعهم الخ ليسوا كتاباً بروليتاريين بدقة. وهناك شك بوجود أي أدب بروليتاري للآن، حتى الديلي وركر تكتب بنموذج إنكليزية الجنوب ـ التي يقترب من إنتاجها مهرج قاعة الموسيقى أكثر من أي كاتب اشتراكي يمكنني التفكير به الآن. أما رطانة الشيوعيين المبهمة فقد أزيلت من الخطاب العام مثل لغة كتب الرياضيات المدرسية. أتذكر سماع خطيب محترف شيوعي يخاطب مستمعيه العمال. كان خطابه عبارة عن هراء الكتب المعتاد، مملوء بالجمل الطويلة و علامات الحصر و (على الرغم من ذلك) و (ليكن كما يمكن) بالإضافة إلى الرطانة المعتادة مثل (إيديولوجية) و (الشعور الطبقي) و (تضامن البروليتاريا) وكل ما تبقى. صعد بعده عامل من يوركشاير وخطب بالحشد في لغتهم الغريبة المتحررة. لم يكن هناك شك كبير حول

أيهما كان أقرب إلى مستمعيه، لكن لم اعتقد ولو للحظة بأن العامل كان شيوعياً أرثوذوكسياً. ويجب أن نتذكر بأن العامل طالما ظل عاملاً حقيقياً فقلما يكون اشتراكياً للنهاية أو لا يكون البتة، إحساس متماسك ومنطقي. محتمل جداً أن يصوت لحزب العمال أو حتى للحزب الشيوعي لو واتته الفرصة لكن مفهومه للاشتراكية مختلف تماماً عن اشتراكيي الكتب رفيعي المستوى. لا تعني له الاشتراكية بالنسبة للعامل العادي أي النوع الذي تلتقي به في أي حانة ليلة سبت أكثر من أجور أفضل وساعات عمل أقل ودون رئيس يأمره. أما بالنسبة لأكثرية النموذج الثوري، نموذج المتظاهرين بالجوع والمدرجة أسماءهم في قوائم أصحاب العمل السوداء، فهي كلام من الصراخ والعويل ضد قوى الاضطهاد وتهديد مبهم بمستقبل عنيف. لكن بقدر ما تصل إليه تجربتي، ليس هناك عامل يدرك مضامين الاشتراكية. وهو برأي، اشتراكي حقيقي أكثر من الماركسي الأرثوذكسي لأنه يتذكر ما ينساه الأخر غالباً، بأن الاشتراكية تعني غالبا العدالة وآداب السلوك العامة لكنه لم يستطع أن يفهمه أن الاشتراكية لا تتحصر بمجرد عدالة اقتصادية وأن إصلاح ذلك المقدار مرتبط بالقيام بتغييرات هائلة في حضارتنا وطريقة عيشه هو نفسه. رؤيته للمستقبل الاشتراكي هي رؤية للمجتمع الحالي بإزالة أسوأ انتهاكاته وتركيز الاهتمام حول نفس الأشياء التي في الحاضر ـ الحياة العائلية والحانة وكرة القدم والسياسات المحلية. بالنسبة للجانب الفلسفي من الماركسية، خدعة البازلاء والكشتبان مع الكينونات الثلاثة الغريبة، الفرض ونقض

الفرض والتركيب، لم أقابل أي عامل لديه أدنى اهتمام من هذا القبيل. طبعاً من الصحيح أن كثير من الناس الذين تتحدر أصولهم من الطبقة العاملة اشتراكيون من النموذج النظري المدرسي. لكنهم لم يكونوا من الناس الذين ظلوا عمالاً أي أنهم لا يعملون بأيديهم. وهم ينتمون إما للنموذج الأول الذي ذكرته في الفصل السابق، ذلك النموذج الذي يتلوى داخل الطبقة الوسطى عن طريق فئة الأدباء المثقفة أو النموذج الذي يصبح عضو في البرلمان أو مسؤول نقابي رفيع المستوى. هذا النموذج الأخير هو واحد من أشد المشاهد بؤساً في العالم. لقد اختير ليقاتل من أجل زملاءه لكن كان كل همه وظيفة سهلة وفرصة لتحسين وضعه الشخصي. ليس هذا فحسب بل يصبح نفسه برجوازياً بمقاتلة البورجوازيين. وفي الوقت الحالي من الممكن تماماً أن يظل ماركسياً أرثوذكسياً. لكن لم أجتمع إلى الآن بعامل منجم أو عامل حديد أو عامل نسيج أو عامل في حوض سفن أو حمال أو غيره متبحراً في الإيديولوجية.

أحد أوجه التماثل بين الشيوعية والكاثوليكية الرومانية أن الأرثوذكسيين تماماً هم المتعلمين فقط. الشيء اللافت الفوري حول الرومان كاثوليك الإنكليز ـ لا أقصد الكاثوليكيين الحقيقيين بل أقصد المرتدين من أمثال رولاند نوكس وارنولد لون ـ هو وعيهم الذاتي المكثف. من الواضح أنهم لم يفكروا أبداً ولم يكتبوا بالتأكيد شيء سوى عن حقيقة كونهم رومان كاثوليك، هذه الحقيقة اليتيمة ومدح

الذات ناتج عن المخزون الكلي لرجل الأدب الكاثوليكي. لكن الممتع الحقيقي بخصوص هؤلاء الناس الطريقة التي حسبوا بها المضامين المفترضة للأرثوذكسية التي شملت أصغر تفاصيل الحياة أيضاً. حتى السوائل التي تشربها من الواضح، يمكن أن تكون أرثوذكسية أو منشقة؛ وهذا يفسر حملات تشيستيرتون ومتسكعي الشواطئ الخ.. المناهضة للشاي والمؤيدة للبيرة. حسب تشيستيرتون شرب الشاي وثني بينما شرب البيرة مسيحي والقهوة افيون البيوريتانيين. من المؤسف حول هذه النظرية هو تواجد الكاثوليكيين بكثرة في حركة (الاعتدال) وأن الايرلنديين الكاثوليك أكبر مدمني الشاي في العالم. لكن ما يهمني هنا هو الموقف العقلي الذي يجعل حتى من الطعام مناسبة للتعصب الديني. العامل الكاثوليكي لن يكون مستقيماً بتلك السخافة. لن يمضي وقته في التفكير بحقيقة كونه كاثوليكي روماني ولا يشعر بالإثم خصوصاً كونه مختلف عن جيرانه غير الكاثوليكيين. لو قلت لأي واحد من عمال حوض السفن في ليفربول أن كأسه من الشاي وثنياً فسيدعوك بالأحمق ولا يدرك دائماً مضامين إيمانه حتى في القضايا الأكثر أهمية. في بيوت لانكشاير الكاثوليكية تجد الصليب على الجدار والديلي وركر على الطاولة.والأمر سيان في الشيوعية مع التغييرات الضرورية. إن الرجل المثقف فقط وخاصة رجل الأدب هو من يعرف كيف يكون متعصبا. إن العقيدة بشكلها الصرف لا توجد عند البروليتاري الحقيقي.

لكـن يمكـن القـول، حتـى إن لم يكـن الاشـتراكي النظـري المدرسي من العمال فهو على الأقل مندفع بحب الطبقة العاملة. يحاول أن يتخلص من منزلته البورجوازية ويقاتل إلى جانب البروليتاري ـ واضح بأن ذلك هو دافعه.

لكن هل الأمر كذلك؟ انظر أحياناً إلى اشتراكي ـ المفكر، نمـوذج كتـاب كراسـات الدعايـة السياسـية بسـترته وشـعره المجعـد وشـواهده الماركسـية ـ وتخيـل مـا هـو دافعـه الحقيقـي؟ مـن الصـعب التصديق أن حبه لأي واحد من الطبقة العاملة التي ابتعد عنها من بين كل النـاس خصوصاً هـو الـدافع الوحيـد. الـدافع الضـمني لكـثير مـن الاشتراكيين كما أعتقد هو ببساطة الشعور المتضخم بالترتيب. الحالة الحالية للعلاقات تؤذي مشاعرهم لا لأنها تسبب البؤس وتجعل الحرية مستحيلة بل لأنها غير مرتبة، ما يتوقون إليه أساساً اختزال العالم إلى شـيء يشـبه رقعـة شـطرنج. خـذ مسـرحيات الاشـتراكي الـدائم جـورج برنـارد شـو. إلى أي مـدى تظهـر تلك المسـرحيات تفهمـاً أو حتـى إدراكـاً لحياة الطبقـة العاملـة؟ يقـر شـو نفسـه بأنـك تسـتطيع إحضـار عـاملاً إلى خشبة المسرح كباعث للشفقة؛ وعملياً هو لم يحضره حتى إلى ذلك، بل كانوا مجرد شخصيات دبليو دبليو جيكوبز المرحة ـ رسوم ايست ايندر الهزلية، التي في كتابه تحول الرائد بارباره والنقيب برسبوند. إن موقفه مـن الطبقـة العاملـة في أحسـن أحوالـه كموقـف البـنش السـاخر وفي لحظـات أكثـر جديـة يجـدهم مجـرد أشـخاص خسيسـين ومـثيرين

للاشمئزاز (تأمل مثلاً، الشاب الذي يرمز إلى الطبقات المجردة من الملكية في زواج غير موفق). الفقر والعادات العقلية التي يخلقها الفقر شيء يجب إلغائه من الأعلى وبالعنف إذا لزم الأمر؛ ويفضل بالعنف. لهذا عبادته للرجال العظماء وميله الفطري للديكتاتوريات الفاشية أو الشيوعية ومن الواضح أن ستالين وموسوليني متساويان بالنسبة له (راجع ملاحظاته التي تتعلق بالحرب الايطالية الحبشية ومحادثات ستالين - ويلز). يمكنك الحصول على الشيء نفسه بشكل معسول من سيرة السيدة سيدني ويب الذاتية التي تعطي دون قصد أوضح صورة كاشفة لزائر الأحياء الفقيرة الاشتراكي صاحب المبادئ. الحقيقة أن الثورة لكثير من الناس الدين يدعون أنفسهم بالاشتراكيين لا تعني حركة الجماهير التي يأملون الانضمام إليها وإنما مجموعة من الإصلاحات التي سيفرضها الموهوبون (نحن) على الطبقات الدنيا (هم). من جانب آخر، من الخطأ اعتبار الاشتراكي النظري المدرسي كائناً بلا دم تماماً وعاجز عن الإحساس. رغم ندرة تقديمه دليلاً عن حبه للمستغلين (بالفتح) فهو عاجز تماماً أيضاً عن إظهار الكره - نوع غريب ونظري من الكره الفارغ - لمستغليهم (بالكسر). هذا هو سبب لعبة الاشتراكي العتيق الجليل بشجب البرجوازية. وما يثير الغرابة هي السهولة التي يستطيع بها كل كاتب اشتراكي تقريباً دفع نفسه بنوبات من الغيظ ضد الطبقة التي ينتمي إليها بشكل ثابت بالولادة أو بالتبني. أحياناً يكون كره العادات البورجوازية والايديولوجيا بعيد الأثر ويمتد إلى الشخصيات البورجوازية في الكتب. حسب هنري

باربوس (الشخصيات في روايات بروست وغايد الخ.... شخصيات تجعل المرء يود كثيراً لو أنه كان في الجانب الآخر من المتراس.) لاحظ المتراس. بالحكم من خلال الحريق، كان علي أن أعرف بأن تجربة باربوس بالمتاريس تركته في حالة نفور منها. لكن يختلف الطعن الخيالي للبورجوازي الذي يفترض منه بأن لا يرد عن الشيء الحقيقي قليلا .

إن أفضل مثال للأدب المضايق للبورجوازية صادفته للآن هو كتاب ميرسكي، الفئة المثقفة في بريطانيا العظمى. وهو كتاب ممتع ومكتوب بكفاءة ويجب أن يقرأه كل من يريد أن يفهم ظهور الفاشية. كان ميرسكي أو الأمير ميرسكي سابقا مهاجرا روسيا أبيضاً، جاء إلى إنكلترا وظل يعمل سنوات محاضراً للأدب الروسي في جامعة لندن وبعد أن تحول إلى الشيوعية فيما بعد عاد إلى روسيا وأصدر كتابه كعرض لصورة المثقفين البريطانيين من وجهة نظر ماركسية. إنه كتاب حاقد وشرير مع ملاحظة واضحة الآن أنا بعيد عن متناول أيديكم وأستطيع قول ما أحب عنكم، بالإضافة إلى التشويه العام يحتوي بعض التحريفات المتعمدة الواضحة تماماً: مثلاً، عندما يصرح كونراد بأنه امبريالي أكثر من كيبلينغ، ويوصف دي اتش لورانس بأنه مجرد مؤلف كتب إباحية لأجساد عارية وبأنه نجح في محو كل آثار أصله البروليتاري - كما لو أن لورانس كان جزار خنازير تسلق إلى مجلس اللوردات! هذا الشيء مزعج حين يتذكر المرء أنه موجه للجمهور الروسي الذي ليست

لديه وسيلة للتأكد من صحة ذلك. لكن ما أفكر به الآن تأثير مثل هذا الكتاب على الجمهور الإنكليزي. هذا رجل أدب من سلالة ارستقراطية ولم يتكلم في حياته مع عامل بشروط تقترب من التساوي، يطلق صيحات سامة من القذف ضد زملاءه البورجوازيين. لماذا؟ بسبب الطبيعة الشريرة الخالصة على قدر ما تذهب إليه المظاهر في الحكم. إنه يقاتل الفئة المثقفة البريطانية لكن من أجل من يقاتل؟ لا توجد أي إشارة في الكتاب نفسه. لهذا الأثر الجوهري لكتاب كهذا أن يعطي الغرباء انطباعاً بأن الشيوعية ليس فيها سوى الكره. وهنا نقع مرة أخرى على التشابه الغريب بين الشيوعية والكاثوليكية الرومانية. إن أردت أن تجد كتاباً مفعم بالشر ككتاب الفئة المثقفة البريطانية فإن أكثر الأمكنة احتمالا أن تبحث في كتابات المدافعين الكاثوليكيين الرومانيين المشهورين. ستجد هناك نفس السم ونفس التضليل لكن تحقيق العدالة الكاثوليكية يمنع وجود نفس الأساليب الرديئة عادة. غريب أن يكون الأخ الروحي للرفيق ميرسكي قساً! رغم أن الشيوعي والكاثوليكي لا يتشدقا بنفس الأشياء بل متضادة أيضاً و يسعده كل منهما غلي الآخر بالزيت لو سمحت له الظروف؛ إلا أنهما متشابهان جداً بنظر الغريب.

الحقيقة أن الاشتراكية في الشكل الذي تعرض فيه الآن، تجذب النماذج غير المقبولة وحتى اللاإنسانية خصوصاً. من ناحية ترى الاشتراكي الطيب القلب غير المفكر من نموذج اشتراكيي الطبقة العاملة الذي يريد أن يلغي الفقر ولا يدرك دائماً ما يتضمنه هذا. ومن

ناحية أخرى تجد الاشتراكي المفكر المدرسي الذي يرى بأنه من الضروري طرح حضارتنا الحالية في البالوعة وهو مستعد تماماً لهذا الفعل. ويأتي كل هذا النموذج من الطبقة الوسطى أولا ومن أفراد فئة الطبقة الوسطى المتنقلين الذين تربوا في المدن. والمؤسف أكثر كما تبدو للغريب بأنها تشمل نوع الناس الذين ناقشتهم مسبقا من شاجبي البرجوازية الحانقين والإصلاحيين من نموذج شو الذين يضيفون الماء إلى الجعة ومتسلقي الأدب الاجتماعي الماكرين الذين أصبحوا شيوعيين الآن مثلما كانوا فاشيين قبل خمس سنوات لأن الشيوعية هي آخر موضة وكل تلك القبيلة الكئيبة من النساء صاحبات المبادئ ومرتدي الصنادل الملتحين شاربي عصير الفاكهة الذين يأتون مندفعين نحو رائحة (التقدم) مثل الذباب الأزرق الضخم إلى قطة ميتة. كما أنهم يعطون الرجل المحترم العادي المتعاطف مع الأهداف الجوهرية للاشتراكية انطباعاً بعدم وجود مكان له ولمن هم مثله في أي حزب اشتراكي الذي يعني مشروعا تجاريا. والأسوأ من ذلك يدفعوه للاستنتاج المتشائم بأن الاشتراكية قدر قادم يجب تفاديه لأطول فترة ممكنة. طبعاً كما أوحيت مسبقاً، ليس من الإنصاف التام أن نحكم على حركة من خلال مناصريها؛ لكن النقطة هي أن الناس يفعلون هذا دائماً، وأن المفهوم الشعبي للاشتراكية ملون بصورة الاشتراكي كشخص غبي أو غير مقبول. صورت الاشتراكية كحالة من العلاقات لا يشعر في داخلها بالراحة تماماً سوى الاشتراكي ذو الصوت العالي وهذا يسبب ضررا كبيرا للقضية. قد لا يجفل الشخص العادي من

ديكتاتورية البروليتاريا إن عرضتها بلباقة، بل قدم له ديكتاتورية الخنازير وتجده مستعدا للقتال.

هناك شعور واسع الانتشار بأن أي حضارة تكون فيها الاشتراكية واقعا ستحمل لنا علاقة تشبه ما تحمله قارورة صنف جديد من البرغندي الاستعماري لبضع ملاعق صغيرة من النبيذ الممتاز. نحن نعيش باعتراف الجميع وسط حطام حضارة كانت عظيمة في حينها ولا تزال مزدهرة في بقع متفرقة بسلام. لا يزال لديها شذاها كما يقال؛ في حين المستقبل المتصور للاشتراكية مثل البرغندي الاستعماري، مذاقه من حديد وماء فقط. لهذا الحقيقة، الكارثية فعلاً، أن الفنانون أيا كانت منزلتهم لا يمكن إقناعهم بأي جماعة سياسية. هذه هي الحالة بالأخص مع الكاتب تتصل آراءه السياسية بشكل مباشر وواضح بأعماله أكثر من الرسام. لو واجه المرء الحقائق فعليه أن يعتبر كل ما وصف على أنه أدب اشتراكي تقريباً بليد وغير ممتع ورديء. تأمل الوضع في انكلترا في الوقت الحاضر. لقد تربى جيل كامل تقريباً على التآلف مع فكرة الاشتراكية ومع ذلك لا تزال العلامة المميزة الأسمى مثلاً للأدب الاشتراكي هو دبليو اتش اودن، نوع من كيبلنغ جبان[٤]، وحتى هؤلاء الشعراء الأضعف الذين يعاشرونه أيضاً. أي كاتب ذو منزلة وكل كتاب يستحق القراءة في الجانب الآخر. أنا راغب في تصديق أن الأمور مختلفة في روسيا - التي لا أعرف شيئا عنها، لكن -

---

(٤) أنكر أورويل هذه الملاحظة فيما بعد. راجع داخل الحوت.

من المفترض أن تميل قسوة الأحداث في روسيا الثورية إلى طرح أدب حي وقوي من كل الأنواع لكن من المؤكد بأن الاشتراكية في أوروبا الغربية لم تنتج أي أدب يستحق الجهد. منذ فترة بسيطة حين كانت الأمور أقل وضوحا كان هناك كتاب فيهم بعض الحيوية ونعتوا أنفسهم بالاشتراكيين لكنهم استخدموا الكلمة كعلامة مبهمة. وهكذا وصف ابسن وزولا نفسيهما اشتراكيين لكن لم تعن الكلمة أكثر من كونهما تقدميين أما في حالة أناتول فرانس فلم تكن أكثر من أنه كان ضد الاكليروس. كان الكتاب الاشتراكيون الحقيقيون، الكتاب الدعائيون، مملين دائماً ومتبجحين فارغين مثل شو وباربوس وابتون سينكلير ووليام موريس وولدو فرانك الخ.الخ. أنا لا أقول طبعاً بأن الاشتراكية يجب أن تدان لأن رجال الأدب لا يحبونها؛ ولا أقصد بأنه من الضروري إصدار أدب لحسابها الخاص أيضاً، رغم اعتقادي بأن عدم إنتاجها لأغان تستق الغناء هو علامة سيئة. أنا أشير فقط إلى أن الكتاب ذوي الموهبة الحقيقية هم غير مبالين بالاشتراكية عادة معادين بشكل فاعل وضار أحياناً. وهذه هي المصيبة، ليس للكتاب أنفسهم فقط بل لقضية الاشتراكية أيضاً التي هي بأمس الحاجة لهم.

هذه هي إذا الصفة السطحية للرجل العادي المرتد عن الاشتراكية. أعرف كل الجدل الكئيب جيدا لأنني عرفته من الطرفين. كل ما قلته هنا للاشتراكيين المتقدين بالحماس الذين حاولوا تغيير معتقدي

وما قيل لي من غير الاشتراكيين المملين الذين حاولت أن أغير معتقدهم. الأمر كله يشبه نوع من المرض يسببه كره الاشتراكيين الأفراد، خصوصا ذلك النموذج الواثق جداً من نفسه مقتبسي ماركس. هل التأثر بذلك النوع من الشيء حماقة؟ هل هي سذاجة؟ أو هل حتى تفاهة؟ أنها كل ذلك. لكن المهم أنها تحدث، لذلك من يجب أن نبقيها في الذهن.

الفصل الخامس

لكن يظل هناك ما هو أصعب وأخطر من الاعتراضات المؤقتة المحلية التي ناقشتها في الفصل السابق.

بمجابهة الحقيقة بأن الناس الأذكياء على الجانب الأخر والتي يرجعها الاشتراكي إلى الدوافع الفاسدة (مقصودة أو غير مقصودة) أو إلى الاعتقاد الجاهل بأن الاشتراكية لا يمكنها أن تنجح أو إلى مجرد الفزع من رعب وقلق الفترة الثورية التي تسبق توطد الاشتراكية. مما لا شك فيه بأن كل هذه الأسباب مهمة لكن هناك الكثير من الذين لم يتأثروا بأي منها ومع ذلك ظلوا معادين للاشتراكية. تفسيرهم للنفور من الاشتراكية روحاني أو إيديولوجي ولا يعارضونها بحجة أنها لن تنجح بل لأنها لن تنجح بشكل جيد جداً بالضبط. إنهم ليسوا خائفين من الأشياء التي ستحدث في فترة حياتهم بل من الأشياء التي سوف تحدث في المستقبل البعيد حين تصبح الاشتراكية حقيقة وواقع. لم ألتق باشتراكي اقتنع واستطاع أن يدرك بأن الهدف الذي تبدو الاشتراكية بأنها تتحرك نحوه يمكن أن ينفر تفكير الناس. ويستبعد الماركسي

خصوصا هذا الشيء باعتباره نوع من العاطفية البورجوازية. وكقاعدة لا يجيد الماركسيون قراءة عقول خصومهم؛ ولو كانوا كذلك لكان الوضع في أوروبا أقل قنوطا مما هو عليه في الوقت الحاضر. لامتلاكهم تقنية تدعي بأنها تفسر كل شيء لا يهتمون حتى باكتشاف ما يدور داخل عقول الناس. هذه صورة توضيحية كمثال لما أقصده. بمناقشة النظرية المتبناة على نطاق واسع ـ التي في أحد معانيها صحيحة بالتأكيد ـ إن الفاشية هي نتاج الشيوعية، السيد ن. ا. هولداوي أحد أبرع الكتاب الماركسيين لدينا يكتب التالي:

أسطورة الشيوعية الشائخة تؤدي إلى الفاشية... عنصر الحقيقة فيها هو هذا: إن ظهور النشاط الشيوعي يحذر الطبقة الحاكمة بأن الأحزاب العمالية الديمقراطية لم تعد قادرة على حكم الطبقة العاملة بالمراقبة ويجب على الديكتاتورية الرأسمالية أن تنتحل شكلاً آخر إن أرادت الاستمرار في البقاء.

ترى هنا عيوب المنهج. لأنه استطاع اكتشاف السبب الكامن وراء الفاشية فيفترض ضمناً عدم أهمية جانبها الروحي. اعتبرت الفاشية مناورة فاشلة للطبقة الحاكمة. لكن هذا لا يفسر إلا سبب جذب الفاشية للرأسماليين فقط. ماذا عن الملايين من غير الرأسماليين الذين ليس هناك ما يكسبونه بالمعنى المادي من الفاشية ومدركين لها، والذين، رغم كل ذلك فاشيين؟ من الواضح أن مقاربتهم كانت بموازاة الخط الإيديولوجي. لا يمكن أن يفروا إلى الفاشية إلا لأن الشيوعية هاجمت أو بدت بأنها تهاجم أشياء محددة (كالوطنية والدين) تتجذر

فيهم بشكل أعمق من الحافز الاقتصادي؛ وبهذا المعنى فالقول بأن الشيوعية تؤدي إلى الفاشية صحيح تماماً. من المؤسف أن الماركسيين يركزون دائماً على إخراج قططهم الاقتصادية من حقائبهم الإيديولوجية تقريباً؛ مما يكشف الحقيقة بشكل ما، لكنها غرامة باهظة تجعل دعايتهم تخطئ هدفها. إنه نفور روحي من الاشتراكية، خصوصاً حين تتجلى في الناس الحساسين، هذا ما أريد مناقشته في هذا الفصل. يجب أن أحلله ببعض التفصيل لأنه واسع الانتشار وقوي جداً ويتجاهله الاشتراكيون تماماً تقريباً.

أول شيء للملاحظة هو أن الاشتراكية مرتبطة تقريباً بفكرة الإنتاج الآلي. االاشتراكية عقيدة مدينية بالجوهر. تنمو تقريباً بالتزامن مع عملية التصنيع ولها دائماً جذور في البروليتاريا ومفكري المدنيين ويشك بقدرتها على الظهور في أي مجتمع غير صناعي. في بلدات البروليتاريا. الصناعية المسلم بها، فكرة أن الشيوعية تقدم نفسها بشكل طبيعي، لأن الملكية الخاصة فقط مقبولة عندما كل فرد (أو عائلة أو وحدة أخرى) مكتفية ذاتياً على الأقل، لكن تأثير الصناعية أن تجعل من المستحيل لأي واحد أن يكون مكتفياً ذاتياً ولو للحظة. منذ أن تظهر الصناعية فوق مستوى منخفض جدا، يجب أن تؤدي إلى نوع من الجماعية. ليس بالضرورة إلى الاشتراكية طبعا، ويمكن التصور بأنها تؤدي إلى دولة العبيد التي تصبح الفاشية عندها نوع من النبوة. والعكس صحيح أيضاً. يوحي الإنتاج الآلي بالاشتراكية، لكن الاشتراكية كنظام عالمي تشمل الإنتاج الآلي لأنها تقتضي أشياء معينة لا تنسجم مع درجة تركز التحكم؛ تتطلب مثلاً، اتصالات داخلية دائمة وتبادل سلعي

بين كل أقسام الكرة الأرضية وتتطلب درجة من السيطرة المركزية؛ وتتطلب مستوى حياتي متساوي تقريباً لكل البشر وربما إلى مقدار محدد من التماثل في التعليم. يمكننا أخذها، لذلك إن كل عالم تكون فيه الاشتراكية حقيقة سيكون ممكناً بشكل عالي على الأقل كالولايات المتحدة الآن وربما أكثر من ذلك.

بأي حال، لن يفكر أي اشتراكي بإنكار هذا. يصور العالم الاشتراكي دائماً بأنه ممكن وعالي التنظيم ويعتمد على الآلة كما تعتمد العبودية القديمة على العبيد.

كل شيء يسير بشكل جيد حتى الآن أو سيء. الكثير وربما الأغلبية من المفكرين لا يعشقون الحضارة الآلية لكن كل واحد يعرف ماعدا الأغبياء أنه من الحماقة التحدث بهذه اللحظة عن تحويل الآلة إلى خردة. لكن الشيء البائس أن الاشتراكية، كما تعرض دائماً، مرتبطة بفكرة التقدم الآلي، ليس لمجرد التقدم الضروري بل كغاية، كنوع من الدين تقريباً. الفكرة ضمنية، مثلاً، أغلب هراء الدعاية مكتوب عن التقدم الآلي السريع في روسيا السوفيتية (سد دنيبر والجررات الخ.الخ.). كارا كابيك صورها ببراعة كبيرة في نهاية ار. يو.ار المرعبة. بعد أن ذبح الرجال الآليون آخر كائن بشري، أعلنوا عن نيتهم (لبناء بيوت كثيرة) لمجرد البناء فقط، كما ترى. هذا الشخص الذين يقبل بالاشتراكية بيسر وسرعة هو نفس الشخص الذي ينتظر تقدماً علمياً كهذا بحماس. وهذا ما تكون عليه الحالة كثيراً إذ لا يقدر الاشتراكيون إدراك وجود الرأي المعاكس. عموماً هو أكثر

من حجة مقنعة يستطيعون التفكير فيها على أن يخبروك أن مكننة العالم الحالية شيء لا يذكر لما سنراه حين تتوطد الاشتراكية. إن كانت هناك طائرة واحدة الآن ففي المستقبل ستكون خمسون. في تلك الأيام ستكون خمسون! كل العمل اليدوي ستتجزه الآلات: كل شيء مصنوع الآن من الجلد أو الحديد أو الحجر سيصنع من المطاط والزجاج أو الحديد، لن تكون هناك فوضى ولا بطالة مؤقتة. لا برية ولا حيوانات ولا أعشاب ضارة ولا أمراض ولا فقر ولا ألم ـ وهكذا وهلم جر. سيكون العالم الاشتراكي عالماً منظماً قبل كل شيء وعالماً كفؤا. لكن العقول الحساسة تنفر بالضبط من تلك الرؤية للمستقبل كنوع من عالم يللز المتألق. وأرجو أن تلاحظ أن تلك النسخة المنتفخة من (التقدم) ليست جزءاً أساسياً من العقيدة الاشتراكية؛ لكن احتسبت كذلك، وبالنتيجة حركت بسهولة نزعة المحافظين المزاجية الكامنة في كل أنواع الناس ضد الاشتراكية.

كل شخص حساس يمر بلحظات يشكك فيها بالآلات وبالعلم الفيزيائي إلى حد ما. لكن من المهم أن نصنف الدوافع المتنوعة، التي اختلفت كثيراً باختلاف الأزمنة، بخصوص معاداة العلم والآلات ولتجاهل غيرة رجل الأدب الذي يكره العلم لأن العلم سرق هدير الأدب. أول هجوم طويل مبكر على العلم والآلات اطلعت عليه هو الجزء الثالث من رحلات غاليفار. لكن هجوم سويفت رغم أنه رائع ومحكم، إلا أنه غير متصل بالموضوع وسخيف أيضاً لأنه مكتوب من وجهة نظر ـ يعوزها الخيال. بالنسبة لسويفت، كان العلم مجرد نوع من التشهير الفارغ والآلات أدوات غريبة وغبية لن تنجح أبدا. كان مقياسه المنفعة

العملية كما افتقر إلى البصيرة ليرى أن التجربة التي لم يثبت نفعها في الوقت ذاته قد تعطي نتائجها في المستقبل. وفي مكان آخر من الكتاب ينعته بأفضل الانجازات (لصنع وريقتي عشب إحداها مزروعة سابقا؛ دون أن يرى بأن هذا ما تستطيع فعله الآلة تماماً. بعد ذلك بقليل بدأت الآلات المحتقرة العمل ووسع العلم الفيزيائي مداه وجاء الصراع بين العلم والدين الذي آثار حفيظة الأجداد. انتهى ذلك الصراع بتراجع الطرفين وادعاءهما بالنصر، لكن لا تزال النزعة المتحاملة ضد العلم حية في عقول اغلب المؤمنين بالدين. خلال القرن التاسع عشر كله ظلت الأصوات المعارضة ترتفع ضد العلم والآلات (راجع أزمنة صعبة لديكنز مثلاً)، لكن عادة من أجل السبب السطحي بأن الصناعية في مراحلها الأولى قاسية وبشعة. هجوم صمويل بتلر على الآلة في الفصل الشهير من ايراهون هو مسألة مختلفة. لكن بتلر نفسه عاش في عصر اقل يأسا من عصرنا، عصر كان ممكنا فيه لرجل من الدرجة الأولى بأن يكون هاوياً للفنون في قسم من الوقت، لذلك بدا له الأمر كله كنوع من التمرين الفكري. رأى بوضوح اتكالنا الخسيس على الآلة، وبدلا من تجشم حساب نتائجه فضل أن يضخمها إلى حد لم يتجاوز الدعابة. لم تنتصر المكننة بشكل حاسم إلا في عصرنا لذلك نشعر فعلياً بنزعة الآلة لجعل حياة الإنسان مستحيلة تماماً. ربما لا يوجد من هو قادر على التفكير والشعور إلا ويعتقد بأن الآلة هي عدوة الحياة حين ينظر إلى كرسي الإعدام بالغاز. لكن عموما إن هذا الشعور غريزي أكثر مما هو عقلاني.

يعرف الناس بطريقة أو بأخرى أن التقدم احتيال لكنهم يتوصلون

إلى هـذا الاسـتنتاج بنـوع مـن الاختـزال العقلـي؛ وظـيفتي هنـا أن أقـدم الخطوات المنطقية التي تحذف عادة. لكن أولاً يجب أن يسأل المرء، ما هي وظيفة الآلة؟ من الواضح أن وظيفتها الأولية هي توفير الجهد ونموذج الشخص الذي يتقبل حضارة الآلة كلها نادراً ما يرى سبباً يبحث عنه أكثر من ذلك. هنا شخص مثلاً يطالب أو بالأحرى يصرخ إنه مرتاح في العالم المؤلل. أنا اقتبس من العالم بدون إيمان للسيد جون بيفرز. وهذا ما يقوله:

من الجنون الصريح القول أن الرجل الذي معدل دخله من ١٠ إلى ٤ جنيهات في الأسبوع نموذج أدنى من عامل المزرعة. أو من العامل أو الفلاح من أي مجتمع زراعي حصرا في الحاضر أو الماضي. إنه غير صحيح تماماً. من السخف الشديد الصراخ على النتائج المدنة للعمل في الحقول وفناء المزرعة كمقابل لما يتم في قاطرة كبيرة للأشغال العامة أو في مصنع ذاتي الحركة. العمل شيء مزعج. نحن نعمل لأنه يجب علينا ذلك وكل عمل ينجز ليزودنا بوقت فراغ ووسائل لإمضاء ذلك الوقت الحر بأمتع شكل ممكن.

ويقول ثانية:

سوف يتوفر للإنسان الوقت الكافي والسلطة اللازمة لكي يفتش عن فردوسه الأرضي دون القلق حول الفردوس الغيبي. ستكون الأرض مكاناً ممتعاً جداً لدرجة لن يبقى فيه الكثير من الأساطير ليرويها قس أو كاهن. زال نصف الحشو عنهم بضربة محكمة واحدة. الخ.الخ.

هنالك فصل كامل عن هذا الأثر (الفصل الرابع من كتاب السيد

بيفرز) وله بعض الأهمية كعرض لعبادة الآلة في أكمل أشكالها سوقية وجهل وفجاجة. إنها الصوت الحقيقي لفئة من عالم المودم. كل آكل اسبيرين في الضواحي الخارجية سوف يردده بحماس. لاحظ عويل الغضب الحاد (إنها ليست مجرد آلة!، الخ.الخ) الذي يقابل به السيد بيفر الإيحاء بأن جده كان أفضل منه والإيحاء الأخر الأكثر رعبا هو لو أنا عدنا إلى أسلوب حياة أبسط لوجب عليه أن يقوي عضلاته بواسطة العمل. العمل كما ترى ينجز ليوفر لنا وقت الفراغ. الفراغ من أجل ماذا؟ الفراغ ليزيد تشابهنا مع السيد بيفرز، على ما يفترض. لكن كأمر مسلم به من ذلك المجرى للحديث عن الفردوس الأرضي، يمكن التخمين الصحيح بنوعية الحضارة التي يحبها، نوع من ليونز كومر هاوس تدوم في شكل مستمر وتزداد بالحجم والضجيج طول الوقت. وفي أي كتاب لأي أحد يشعر بالارتياح في عالم الآلة ـ في أي كتاب من كتب اتش جي ويلز مثلاً، ستجد مقاطعاً من نفس النوع. ألم نسمع كثيراً، بذلك الكلام المشجع بشكل لزج عن (الآلات، سلالتنا الجديدة من العبيد، التي ستحرر الإنسانية، الخ، الخ. لهؤلاء الناس الخطر الوحيد للآلة هو إمكانية استخدامها لأغراض تدميرية؛ كاستعمال الطائرات في الحرب مثلاً. باستثناء الحروب والكوارث غير المتوقعة، يصور المستقبل كزحف ابدي سريع للتقدم الآلي؛ الآلات لتوفير عناء العمل، آلات لتوفير عناء التفكير، وآلات لتوفير الألم والصحة والكفاءة والتنظيم وكفاءة أفضل وصحة أفضل وتنظيم أفضل وآلات أفضل ـ حتى تحط أخيرا في المدينة الفاضلة الويلزية القريبة من الوقت الحاضر، التي رسمها هكسلي رسماً كاريكاتورياً

مناسباً في كتابه عالم جديد شجاع، فردوس الرجال القصيرين البدينين. في أحلام يقظتهم بالمستقبل، لا يكون الرجال القصيرون البدينون قصاراً ولا بدناء بل هم رجال كالآلهة. لكن لماذا يجب أن يكونوا هكذا؟ كل التقدم الميكانيكي نحو كفاءة أعظم وأكبر؛ وبالنهاية نحو عالم ليس للفشل فيه مكان. لكن في العالم الذي لا فشل فيه، لن تكون كثير من الصفات التي يعتبرها السيد ويلز (إلهية) أكثر قيمة من قدرة الحيوان على تحريك أذنيه. تعرض الكائنات في رجال كالآلهة وفي الحلم مثلاً، شجاعة وكريمة وقوية بدنيا. لكن في عالم تم التخلص فيه من الخطر المادي ـ ومن الواضح أن التقدم الآلي يميل إلى التخلص من الخطر أيضاً ـ هل الشجاعة البدنية ستبقى حية؟ هل يمكنها ذلك؟ ولماذا تنجو الشجاعة البدنية في عالم لن توجد فيه الحاجة إلى جهد عضلي أبداً؟ لأن صفات كالولاء والكرم الخ. في عالم لا خطأ فيه سوف لن تكون غير لازمة فقط بل لا يمكن تخيلها أيضاً. الحقيقة أن كثير من الصفات التي تعجبنا في الكائنات البشرية لا تعمل إلا في مقاومة نوع من الكارثة والألم والمشقة؛ لكن نزعة التقدم الآلي هي التخلص من الكارثة والألم والمشقة. في كتب مثل الحلم و رجال كالآلهة من المفترض أن صفات كالشجاعة والقوة والكرم الخ ستبقى حية لأنها صفات جميلة ومزايا ضرورية للكائن البشري الكامل. من المفروض مثلاً أن يخلق سكان المدينة الفاضلة أخطاراً اصطناعية ليمرنوا شجاعتهم ويقوموا بتمارين رفع أثقال لتقوية عضلاتهم التي لن يضطروا إلى استخدامها. وتلاحظ هنا التناقض الكبير الحاضر عادة في فكرة التقدم. ميل التقدم الآلي ليجعل بيئتك

آمنة وناعمة ومع ذلك تجاهد لتبقي نفسك شجاعا وصلبا. أنت تدفع بقوة إلى الأمام لكنك تتراجع يأساً إلى الخلف بنفس الوقت. كما لو كنت سمسار بورصة لندني عليه أن يذهب إلى مكتبه في بذلة من درع وزرد ويصر على التحدث بلاتينية القرون الوسطى.؛ لذلك في التحليل النهائي أبطال التقدم هم أبطال المفارقات التاريخية.

في هذا الوقت افترض بأن ميل التقدم الآلي إلى جعل الحياة آمنة ومريحة. هذا قد يفند، لأنه في أي لحظة معينة قد يثبت تأثير بعض الاختراعات الآلية العكس، خذ مثلاً الانتقال من الخيول إلى السيارات. عند النظرة الأولى يمكن للمرء أن يقول، آخذا باعتباره الوفيات الهائلة لحوادث الطرق بأن السيارات لم تقصد أن أتكون الحياة أكثر آمانا. إضافة إلى ذلك تحتاج إلى صلابة مروض خيول كي تصبح راكب مسار قذر من الدرجة الأولى وتركب في غراند ناشينال. رغم ذلك نزعة كل الآلات أن يصبح التعامل معها أكثر آمانا وسهولة. خطر الحوادث يختفي لو اخترنا أن نعالج مشكلة تخطيط الطرق بجدية أكبر، مثلما سنفعل عاجلا أم آجلا؛ وفي الوقت الحالي تطورت السيارات إلى درجة يقودها أي شخص غير أعمى أو مشلول بعد دروس قليلة. وللآن تحتاج قيادة السيارة بشكل جيد إلى أعصاب ومهارة أقل من ركب حصان بنفس الطريقة؛ في غضون عشرين سنة قد لا تحتاج إلى الأعصاب أو المهارة إطلاقا. لذلك يجب أن يقول المرء، آخذا في الاعتبار المجتمع ككل، أن نتيجة الانتقال من الخيول إلى السيارات كان زيادة في الراحة الإنسانية. لكن في الحال قد يأتي شخص باختراع آخر، الطائرة مثلاً التي لا تبدو بأنها تجعل الحياة أكثر آمانا من النظرة الأولى.

الرجال الأوائل الذين صعدوا في الطائرات كانوا متميزين بشجاعتهم وحتى اليوم تحتاج إلى أعصاب قوية لتكون طياراً. لكن نفس الميل يعمل كما في السابق. الطائرات كالسيارات، سوف تصنع مكفولة؛ مليون مهندس يعملون، دون قصد تقريباً، في ذلك الاتجاه. أخيراً ـ هذا هو الهدف رغم أن وصوله قد لا يكون ممكناً ـ ستصعد إلى طائرة طيارها لا يحتاج إلى مهارة أو شجاعة أكثر مما يحتاجه طفل في عربته. وكل التقدم الآلي هو في هذا الاتجاه ويجب أن يكون كذلك. تتطور الآلة لتصبح أكفأ يعني أكثر ضمانة؛ لهذا هدف العالم الآلي هو عالم مضمون ضد الخطأ ـ مما يعني أو لا يعني أنه عالم لا يسكنه الحمقى. ربما يرد السيد ويللز بحجة سريعة بأن العالم لا يمكن أن يكون مكفولاً ضد الخطأ أبداً لأنه مهما تصل إلى مستويات عالية من الكفاءة تظل دائماً هناك صعوبة أكبر أمامك. مثلاً (هذه فكرة السيد ويللز المفضلة ـ واستخدمها مرات لا يعلمها إلا الله في خاتمات منمقة)، عندما تحصل على هذا الكوكب بحالة مثالية تبدأ بمهمة ضخمة للوصول إلى كوكب آخر واستعماره. لكن هذا لمجرد دفع الهدف أبعد إلى المستقبل؛ الهدف يبقى نفسه. استعمار كوكب آخر وتبدأ لعبة التقدم الآلي من جديد؛ وتستبدل العالم المكفول من الأخطاء بمجموعة شمسية مكفولة ـ الكون المكفول. ربط نفسك بهدف الكفاءة الآلية، أنت تربط نفسك بهدف الراحة. لكن الراحة منفرة؛ وهكذا يرى التقدم الآلي كله صراع مسعور نحو هدف ترجو وتصلي بأن لا تصل إليه أبداً. بين الحين والأخر لكن ليس كثيراً، تقابل شخصاً ما يدرك بأن ما سمي عادة بالتقدم يشترط أيضاً ما سمي عادة

بالانحلال رغم أنه من مؤيدي التقدم. لهذا نصب تمثال لفالستاف في مدينة شو الفاضلة لأنه الرجل الأول الذي ألقى خطاباً لتأييد الجبن. (الخوف)

لكن المشكلة أعمق من هذا. ولم أشر للآن إلا إلى سخف استهداف التقدم الآلي والحفاظ على الصفات التي يجعلها التقدم الآلي غير ضرورية. السؤال الأول المهم إن كان هناك نشاط إنساني لن تشوهه سيطرة الآلة.

وظيفة الآلة توفير الجهد. تقوم الآلات بكل الأعمال الشاقة المملة في العالم الممكن تماماً وتترك الناس أحرارا للسعي وراء أشياء أكثر متعة. هكذا قيل ويبدو ذلك ممتاز. سيشتاق المرء ليرى نصف دزينة من الرجال يلفظون أحشاءهم ليحفروا خندقا لأنبوب في حين تغرف الآلة المخترعة التراب بسهولة في دقيقتين. لماذا لا نترك الآلة تقوم بالعمل ويذهب الرجال إلى عمل شيء آخر. لكن يبرز السؤال فوراً، ما هو الشيء الآخر الذي سيفعلونه؟ بفرض أنهم تحرروا من العمل لكي يقوموا بشيء ليس عملا. لكن ما هو العمل الذي هو ليس بعمل؟ هل العمل أن تحفر أو تعمل بالنجارة أو تزرع شجرة أو تقطعها أو أن تركب حصانا أو تذهب لصيد السمك أو تصيد أو أن تطعم الدجاج أو تعزف على البيانو أو تلتقط الصور أو تبني بيتاً أو تطبخ أو تخيط أو تزين القبعات أو تصلح الدرجات النارية؟ كل هذه الأشياء هي عمل بالنسبة لشخص لكنها لعب بالنسبة لآخر. في الحقيقة هناك بضع نشاطات لا يمكن تصنيفها لا كعمل ولا كلعب حسب ما تختار أنت اعتبارها.

ربما يريد العامل الذي تحرر من الحفر أن يمضي وقت فراغه أو قسما منه في العزف على البيانو، بينما عازف البيانو المحترف قد لا يسعده إلا الخروج والحفر في حقل البطاطس. لهذا التضاد بين العمل، كشيء ممل بشكل لا يحتمل، وعدم العمل، كشيء مرغوب هو مزيف. الحقيقة إنه عندما يحيا كائن بشري حياة مستهترة يأكل فيها وينام ويمارس الجنس ويتحدث ويمارس الألعاب أو يتسكع فإن كل هذه الأشياء لن تملأ وقته وسيحتاج إلى العمل و يبحث عنه عادة، رغم أنه لا يسميه عملاً. كل من هو فوق مستوى بليد من الدرجة الثالثة أو الرابعة، يجب أن يعيش الحياة على أساس الجهد وهي بالنسبة للرجل ليست كما يعتقد المنادون بمذهب المتعة السوقيون، نوع من الكروش الماشية بل هي يد وعين ودماغ. توقف عن استخدام يديك، تفقد قسماً ضخماً من وعيك. وفكر مرة أخرى بنصف دزينة الرجال تلك الذين كانوا يحفرون خندق أنبوب المياه. لقد حررتهم الآلة من ذلك الحفر وسيسلون أنفسهم بشيء آخر ــ كالنجارة مثلاً. لكن مهما أردوا أن يفعلوا فسيجدون آلة أخرى تحررهم منه. حيث لن تكون في العالم الكامل المكننة حاجة للنجارة والطبخ وتصليح الدراجات الخ، أكثر مما سيظل للحفر. لا يوجد شيء من صيد حوت إلى نحت جوهرة حمراء لا تستطيع الآلة القيام به كما يتخيل. وستتعدى الآلة على النشاطات التي تصنف الآن فنوناً، لقد قامت بذلك مسبقاً، بواسطة الكاميرا والراديو. مكنن العالم بقدر ما يمكن مكننته وستجد أينما التفت آلة تحرمك من فرصة العمل - أي العيش.

عند الوهلة الأولى قد يبدو ذلك غير مهم. لماذا لا تواصل عملك

الإبداعي وتتجاهل الآلات التي تقوم به؟ لكن ليس الأمر بسيطاً كما يبدو عليه. ها أنا أعمل ثمان ساعات يومياً في مكتب للتأمين؛ في وقت فراغي أريد أن أقوم بشيء إبداعي، لهذا اختار نجارة بسيطة ـ لأصنع طاولة لنفسي مثلاً. لاحظ منذ البداية هناك نوع من التصنع في الأمر كله، لأن المصانع تستطيع أن تقدم لي طاولة أفضل بكثير من التي سأصنعها بنفسي، ولن أشعر نحوها كشعور صانع الخزن اتجاه طاولته منذ مئة سنة لكن أقل مما شعر به روبنسون كروزو نحوها. لأنني قبل أن ابدأ، تكون الآلة قد أنجزت أكثر العمل لي مسبقاً. الأدوات التي استخدمها تحتاج إلى الحد الأدنى من المهارة. يمكنني الحصول على المسحاج (فأرة النجار) التي تقطع أي جسم صلب؛ صانع الخزن قبل مئة عام عليه أن يقوم بالعمل بالأزميل والمظفر مما يتطلب مهارة حقيقية للعين واليد. الألواح التي اشتريها مستوية مسبقاً والأرجل ملتوية مسبقاً بواسطة المخرطة. يمكنني الذهاب إلى محل الخشب واشتري كل أجزاء الطاولة المسبقة الصنع التي لا تحتاج إلا لتتطابق مع بعضها البعض؛ لقد قلل عملي إلى دق عدد قليل من الأسافين واستخدام قطعة من الورق المرمل. إن كان الأمر كذلك في الوقت الحاضر فسيكون في المستقبل الآلي أكثر من ذلك بكثير. بالأدوات والمواد المتوفرة آنذاك لن تكون هناك فرصة للخطأ لذلك لا مجال للمهارة. صنع طاولة سيكون أسهل وأضجر من تقشير البطاطس. في ظروف كهذه من الهراء التكلم عن عمل إبداعي. بأي حال الفنون اليدوية (التي يجب أن تنتقل بتعلم الصنعة) ستختفي قبل ذلك بوقت طويل. بعضها اختفى مسبقا في ظل منافسة الآلة. انظر حول أي ساحة كنيسة ريفية وشاهد

إن استطعت أن تجد شاهدة ضريح منحوتة بشكل جيد بعد عام ١٨٢٠. فن أو صنعة نحت الحجارة بالأحرى مات تماماً ويحتاج إحيائها إلى قرون.

لكن يمكن القول، لماذا لا نبقي على الآلة ونبقي على العمل الإبداعي؟ لماذا لا نطور المفارقات التاريخية كهواية في وقت الفراغ؟ كثير من الناس تلاعبوا بهذه الفكرة؛ تبدو أنها تحل هذه المشكلة السهلة الممتعة التي أطلقتها الآلة. مواطن المدينة الفاضلة، كما قيل لنا، العائد إلى البيت بعد عمل يومي لا يزيد عن الساعتين قضاهما بتدوير مقبض في مصنع تعليب البندورة سيرجع قصداً إلى طريقة حياتية أكثر بدائية ويسلي غرائزه الإبداعية بقليل من الزخرفة وتزجيج الخزف و الحياكة بالنول اليدوي. لكن لماذا هذه الصورة منافية للعقل كما هي كذلك، طبعاً؟ بسبب مبدأ غير مدرك دائماً رغم العمل به دائماً: طالما أن الآلة هناك فالمرء ملزم باستخدامها. لا أحد يجر الماء من البئر حين يستطيع فتح الصنبور. يرى المرء الأمر بصورة أوضح في مسألة السفر. كل من سافر في وسائل بدائية في البلدان المتخلفة يعرف الفرق بين ذلك النوع من السفر والسفر الحديث بالقطارات والسيارات الخ، وهو كالاختلاف بين الحياة والموت. البدوي الذي يمشي أو يركب دابة مع أمتعته المحملة على جمل أو عربة يجرها ثور، قد يقاسي كل أنواع المشقات لكنه على الأقل يعيش وهو يرتحل بينما المسافر في قطار سريع أو سفينة فاخرة في رحلة هو منقطع، نوع من الموت المؤقت. وأيضاً طالما توجد السكك الحديدية يضطر المرء إلى السفر بالقطار ــ أو بالسيارة أو بالطائرة. ها أنا أبعد أربعين ميلا عن لندن. حين أريد

الذهاب إلى لندن لماذا لا أحزم أمتعتي على بغل وأنطلق ماشياً وأمضي يومين للوصول؟ لأن مع حافلات غرين لاين التي تتجاوزني كل عشر دقائق وهي تهدر، ستكون رحلة كهذه مضجرة بشكل لا يطاق. لكي يستمتع المرء بطرق السفر البدائية من الضروري أن لا تتوفر لديه أي طريقة أخرى. أي كائن بشري لا يريد أن تكون له علاقة بطريق مزعج أكثر مما هو ضروري. لهذا سخف الصورة لأهالي المدينة الفاضلة الذين ينقذون أرواحهم بأعمال الزخرفة. في عالم يمكن للآلات فيه من صنع أي شيء، كل شيء ستصنعه الآلات. يعتبر الرجوع المتعمد لاستخدام الأساليب البدائية القديمة وضع صعوبات صغيرة تافهة بطريقك ونوع من هواية التطفل المصطنع والخداع. سيكون مثل الجلوس بوقار لتأكل غداءك بأدوات حجرية. ارجع إلى العمل اليدوي في عصر الآلة وستجد نفسك عائداً إلى مشرب الشاي القديم والبيت الريفي التيودوري بعوارضه الخشبية المزيفة المثبتة بالجدار.

إن نزعة التقدم الآلي إذاً هي إبطال الحاجة الإنسانية للجهد والخلق وتجعل الأمر مستحيلاً على نشاطات العين واليد. سيعلن رسول التقدم أحياناً بأن ذلك غير مهم، لكن يمكنك عادة دفعه إلى أن يكون منافساً بالإشارة إلى المسافات الرهيبة التي يمكن أن تحملنا إليها العملية. لماذا تستخدم يديك أساساً مثلاً ـ لماذا تستخدمها حتى من أجل التمخط أو بري قلمك؟ بالتأكيد يمكنك أن تثبت نوع من الحديد وأداة مطاطية غريبة على كتفك وتترك ذراعيك تذبلان إلى قرمتين من الجلد والعظم. فعلاً ليس هناك أي سبب لأن يقوم أي كائن بشري بأي شيء أكثر من الأكل والنوم والتنفس والتناسل؛

كل شيء آخر يمكن أن تقوم به الآلات. لذلك النهاية المنطقية للتقدم الآلي تقليص الكائن البشري إلى شيء يشبه دماغ في قارورة. ذلك هو الهدف الذي نتحرك نحوه كلنا، رغم أننا لا ننوي الوصول إليه طبعاً؛ مثل الرجل الذي يشرب قارورة من الويسكي في اليوم دون أن يقصد بأن يصاب بتليف في الكبد. الهدف الضمني للتقدم هو - ربما ليس بالضبط - الدماغ في القارورة، لكنه في أي حال هاوية مخيفة من الوهن والعجز دون مستوى البشر. والشيء المؤسف في الوقت الحاضر أن كلمة (تقدم) وكلمة (اشتراكية) مترابطتان في عقل كل واحد تقريباً. الشخص الذي يكره الآلات يكره الاشتراكية بديهياً؛ الاشتراكي دائماً إلى جانب المكننة والعقلنة والحداثة - أو على الأقل يعتقد بأنه كذلك. منذ وقت قريب جداً مثلاً، اعترف لي عضو بارز في حزب العمال العالمي بنوع من الحياء الكئيب - كما لو أنه شيء غير مناسب - أنه كان مغرماً بالخيول. كما ترى الخيول تنتمي إلى الماضي الزراعي البائد، وكل عاطفة للماضي تحمل معها رائحة غامضة من الهرطقة. لا أعتقد أن هذه الحاجة يجب أن تكون كذلك بالضرورة، لكن مما لا شك فيه إنها كذلك. وبنفسها هي كافية تماماً لتعليل ابتعاد العقول المحترمة عن الاشتراكية.

منذ جيل كان كل شخص عاقل ثورياً؛ الآن قد نقترب من الصواب لو قلنا أن كل شخص عاقل رجعي. بهذا الربط تجدر مقارنة النائم يستيقظ لاتش جي ويلز مع عالم جديد شجاع لادولس هكسلي اللذان كتبا بعد ثلاثين سنة. كل منهما مدينة فاضلة متشائمة، رؤية لنوع من الفردوس المتزمت تتحقق فيه كل أحلام الشخص التقدمي.

وأعتقد بأن النائم يستيقظ أعظم بكثير باعتباره مجرد بناء خيالي لكنه يعاني من تناقضات واسعة لأن ويلز كرئيس لأساقفة التقدم لا يستطيع أن يكتب بقناعة ضد التقدم. يرسم صورة باهرة للعالم المنحوس الغريب الذي تعيش فيه الطبقات ذات الامتيازات، حياة من المتعة الضحلة الميتة، ويهبط العمال إلى حالة من العبودية الصريحة والجهل اللاإنساني، يكدحون مثل سكان الكهوف في أكواخ تحت الأرض. بمجرد أن يتفحص المرء هذه الفكرة ـ التي طورت كثيراً في قصة قصيرة ممتازة في قصص الفضاء والزمن ـ يلاحظ عدم اتساقها. لماذا يجب على العمال في العالم الممكن كثيراً الذي تخيله ويلز أن يكدحوا أكثر من الوقت الحاضر؟ علماً أن نزعة الآلة الواضحة هي استئصال الكدح وليس زيادته. في العالم الآلي يمكن أن يستعبد العمال ويعاملوا بشكل سيء ويتعرضوا لسوء التغذية أيضاً لكن بالتأكيد لن يحكم عليهم بالكدح اليدوي المتواصل؛ لأنه في تلك الحالة ماذا ستكون وظيفة الآلة؟ يمكن أن يكون لديك آلات تقوم بكل العمل أو كائنات بشرية تقوم به كله، لكن لا يمكن أن يكون لديك الاثنين. تلك الجيوش من العمال السريين بزيهم الموحد الأزرق و قدرهم البائس، ولغتهم نصف الإنسانية، يقاطعوا كلامك ليثيروا خوفك وتقززك فقط. يوحي ويلز بأن التقدم قد يأخذ انعطافاً خاطئاً، لكن الشر الوحيد الذي يهتم بتصوره هو اللامساواة ـ طبقة واحد تستحوذ على الثروة كلها والسلطة وتضطهد الآخرين، بدافع الحقد الصرف. لو حرفتها قليلاً، فسيبدو بأنه يقترح الإطاحة بالطبقة ذات الامتيازات ـ التغيير من عالم الرأسمالية إلى الاشتراكية، وبالنتيجة

سيكون كل شيء على ما يرام. يجب أن تستمر حضارة الآلة لكن يجب أن تقسم منتجاتها بالتساوي. الفكرة التي لم يجرؤ على مواجهتها هي أن الآلة قد تكون العدو. لهذا في مدينته الفاضلة الأكثر تميزا (الحلم، رجال كالآلهة. الخ) يعود إلى النزعة التفاؤلية وإلى رؤية إنسانية، (حررتها) الآلة، كسلالة من المتشمسين على الشواطئ ولا يشغلهم سوى الموضع الوحيد وهو تميزهم وتفوقهم الذاتي على أسلافهم. عالم جديد شجاع ينتمي إلى وقت متأخر وإلى جيل وأصل خداع للتقدم. يحتوي على تناقضاته الذاتية (أهمها ما أشار إليها السيد جون ستارتشي في الصراع القادم للسلطة) وهو هجوم جدير بالذكر على الأقل على نموذج المكرشين من معتنقي مذهب الكمالية. أما السماح للمبالغات الكاريكاتيرية فهو يعبر عما تشعر به غالبية الناس المفكرين حضارة الآلة.

عداوة الشخص الحساس للآلة ليست واقعية من ناحية بسبب الحقيقة الواضحة التي ترى بأن الآلة جاءت لتبقى. لكن كموقف عقلي يمكن قول الكثير عنها. يجب أن يقبل بالآلة، لكن ربما من الأفضل أن نقبلها كما يقبل المرء الدواء ـ أي، بتذمر وريبة. كالدواء، الآلة نافعة وخطيرة وإدمانية. كلما زادت المرات التي يستسلم لها الواحد أصبحت قبضتها عليه أكبر. ليس عليك سوى أن تنظر حولك في هذه اللحظة لتدرك السرعة المشؤومة التي تضعنا الآلة فيها تحت سلطتها. أولا هناك الإغواء المخيف للذوق الذي تأثر مسبقاً بقرن من المكننة. هذا واضح جداً ومعترف به عموماً ولا يحتاج إلى توضيح. لكن كمثال واحد، خذ الذوق في أضيق معانيه ـ الذوق للطعام اللائق. في البلدان

عالية المكننة، الشكر للطعام المعلب والمخازن الباردة والمنكهات الاصطناعية الخ، سقف الحنك عضو ميت تقريباً. كما تلاحظ عند النظر إلى أي محل بقالة، ما تقصده غالبية الشعب الانكليزي بتفاحة هو كتلة من القطن الطبي الملون من أميركا أو استرالية؛ يلتهمون هذه الأشياء بمتعة كما يبدو ليتركوا التفاح الإنكليزي يفسد تحت الشجر. ما يجذبهم هو المنظر اللامع القياسي الذي تصنعه الآلة للتفاحة الأمريكية؛ الطعم الأفضل للتفاحة الإنكليزية شيء لم يلاحظوه بكل بساطة. أو انظر إلى الجبن الملفوف بورق القصدير الذي تصنعه المصانع والزبدة الممزوجة في أي بقالية؛ انظر إلى الصفوف المخيفة من العلب القصديرية التي تغتصب المزيد من الفراغ في كل محلات الأطعمة، حتى الألبان انظر إلى اللفة السويسرية الرخيص والبوظة التافهة، انظر إلى المنتجات الكيميائية الفاسدة التي يصبها الناس في حلوقهم تحت إسم البيرة. أينما نظرت سترى صنفاً ملمعاً مصنوعاً آلياً يسود على صنف قديم لا يزال طعمه شيئا غير نشارة الخشب. وما ينطبق على الأطعمة ينطبق على الأثاث والبيوت والملابس ووسائل التسلية وكل شيء بيتي آخر. هناك ملايين الناس الآن الذين يزدادون كل سنة، يتقبلون دوي الراديو ويشكل خلفية ثقافية عادية لأفكارهم أكثر من خوار القطيع وغناء الطيور. لن تتقدم مكننة العالم بعيدا بينما يظل الذوق - حتى الحليمات الذوقية للسان، سليما، لأن أغلب منتجات الآلة ستكون غير مطلوبة في هذه الحالة. في العالم الصحي والسليم لن يكون هناك طلب على الأطعمة المعلبة والاسبيرين والحواكي وكراسي الإعدام بالغاز والبنادق الآلية والصحف اليومية والهواتف

والسيارات الخ.الخ؛ ومن ناحية أخرى سيكون هناك طلب مستمر للأشياء التي لا تستطيع الآلة إنتاجها. لكن في الوقت الراهن الآلة موجودة ونتائجها المفسدة لا تقاوم تقريباً.

يندد المرء بها لكنه يستمر في استخدامها. حتى الهمجي العاري يتعلم رذائل الحضارة خلال بضع شهور إن توفرت له الفرصة لذلك. تؤدي المكننة إلى فساد الذوق، وفساد الذوق يؤدي إلى طلب المواد المصنوعة آليا وبهذا إلى مكننة أكثر وبهذا تكتمل دائرة الشر.

لكن بالإضافة إلى هذا هناك ميل شبه آلي إلى مواصلة مكننة العالم، إن شئنا أم أبينا. لأن قدرة الإبداع الآلية عند الرجل الغربي الحديث تغذت وتحفزت حتى وصلت إلى حالة غريزية تقريباً. يخترع الناس آلات جديدة ويحسنوا الآلات الموجودة دون قصد تقريباً، مثل الذي يسير وهو نائم. في الماضي، حين سلم بأن الحياة على هذا الكوكب قاسية وحياة كدح، بدا الاستمرار باستخدام أدوات الأجداد الخرقاء قدر طبيعي وكانت قلة من الأشخاص غريبي الأطوار، بفواصل قرون من الزمن توحي ببعض الاختراعات، لذلك دامت أشياء مثل العربة التي تجرها الثيران والمحراث والمنجل عصوراً طويلة دون أن تتغير كثيراً. وذكر في السجلات التاريخية بأن البراغي استعملت منذ القدم السحيق ولم يفكر أحد بصنع براغي مسننة قبل القرن التاسع عشر، وظلت منبسطة الطرف ألوفاً كثيرة من السنين وكانوا يثقبون لها الحفر قبل إدخالها. في عهدنا لن يخطر هذا الشيء بالبال. لقد تطورت المقدرة الإبداعية لكل رجل غربي حديث بشكل كبير،

يخترع الرجل الغربي الآلات بشكل طبيعي كما يسبح أحد سكان جزيرة بولينيزيا في البحر. قدم للرجل الغربي عملا وسيبدأ فوراً باختراع آلة تقوم به بدلاً منه وأعطه آلة وسيفكر بطرق لتحسينها. أنا أدرك هذه النزعة جيداً، لأنني من النموذج العقلي نفسه لكن بنوع غير فعال. ليس لدي الصبر ولا المهارة لاختراع أي آلة تعمل لكن أرى دائماً أشباح آلات ممكنة يمكن أن تجنبني عناء استخدام عقلي أو عضلاتي. أما الشخص الذي له نزعة ميكانيكية أوضح فقد يبنيها ويضعها في العمل. لكن في ظل نظامنا الاقتصادي الحالي سيعتمد ذلك على جدواها التجاري، إن بناها أم لا، أو بالأحرى إن استفاد منها أي شخص آخر. الاشتراكيون في هده الحال على صواب لذلك حين يزعمون أن معدل التقدم الآلي سيكون أسرع بكثير ما إن تتوطد الاشتراكية. بسبب التقدم الآلي ستظل عملية الاختراع مستمرة دائماً، لكن الرأسمالية تنزع إلى إبطاء سرعتها لأن أي اختراع في ظل الرأسمالية لا يعد بأرباح جيدة وفورية يهمل؛ وفي الحقيقة، بعضها التي تقلل الأرباح تخمد بلا رحمة كالزجاج المرن الذي ذكره بيترونيوس.[٥] وطد الاشتراكية ـ أزال مبدأ الربح ـ وسيكون المخترع حر اليدين. مكننة العالم هي سريعة مسبقاً، ستتسارع أو تستطيع أن تتسارع بشكل هائل. وهذا المشهد مشؤوم قليلاً لأنه من الواضح الآن أن عملية المكننة خارجة عن السيطرة. وتحدث لأن الإنسانية تعودت على ذلك. كيميائي يحسن طريقة جديدة لتركيب المطاط أو ميكانيكي يخترع نموذج

---

(٥) مثلاً: قبل سنوات اخترع ابرة حاكي تدوم عقوداً من الزمن. إحدى شركات الحواكي الكبيرة اشترت حقوق براءة الاختراع وكان ذلك ما سمع عنه.

جديد من دبابيس الرسغ. لماذا؟ ليس لغرض مفهوم بشكل واضح، بل لمجرد النزوع إلى الاختراع والتطوير، الذي أصبح الآن غريزيا. ضع أحد السلميين للعمل في مصنع للقنابل وفي غضون شهرين ستجده يخترع نموذج جديد منها. منذ ظهور تلك الأشياء الشيطانية مثل الغازات السامة، التي لم يتوقع منها حتى مخترعوها أي فائدة للإنسانية. موقفنا من أشياء كالغازات السامة يجب أن يكون موقف ملك بروبادينغانغ من البارود (بلاد في رحلات غليفار كل شيء فيها هائل الحجم ـ المترجم)؛ لأننا نعيش في عصر آلي وعلمي ونحن متأثرون بذلك، مهما يحدث من أشياء أخرى يجب أن يستمر التقدم ويجب أن تقمع المعرفة. لفظياً بلا شك سنوافق على أن الآلات صنعت من أجل الإنسان وليس للآلات؛ وعملياً أي محاولة لمراجعة تطوير الآلات تبدو لنا هجوم على المعرفة ولذلك هي نوع من التجديف. وحتى لو أن كل البشرية ثارت ضد الآلة وقررت أن تلجأ إلى طريقة أبسط من الحياة فسيكون ذلك صعب بشكل هائل. ولن ينجح كما في ايرهون لبتلر، لتحطيم كل آلة اخترعت في موعد محدد؛ يجب أيضاً أن نحطم عادة العقل التي ستخترع بشكل لا إرادي تقريباً آلات جديدة فور تحطيم القديمة. وهناك أثر على الأقل من تلك العادة العقلية فينا كلنا. في كل بلاد من بلدان العالم يسير جيش كبير من العلماء والفنيين والبقية الباقية منا تلهث وراءهم، في طريق التقدم بإصرار أعمى كطابور طويل من النمل.وبالمقارنة قلة من الناس تريد حدوث ذلك، بينما أكثرهم لا يريد، لكنه رغم ذلك مستمر بالحدوث. عملية المكننة نفسها أصبحت آلة، آلة باهرة ضخمة جداً تقلنا بدوامة دون أن نتأكد إلى أين، لكن من

المحتمل إلى عالم ويلز المبطن وعالم العقل في القارورة.

إذاً هذا هو حال القضية ضد الآلة. ولا تهم إن كانت قضية صحيحة أم غير صحيحة. النقطة هل سيردد أصداء هذه النقاشات وأشباهها كل شخص معادي لحضارة الآلة، لكن لسوء الحظ فهو عادة نفس الشخص المعادي للاشتراكية بسبب ذلك الربط الفكري (اشتراكية ـ تقدم ـ آلات ـ روسيا ـ جرارات ـ الصحة ـ آلات ـ تقدم) الموجود في كل عقل تقريباً. نوع الشخص المعادي للتدفئة المركزية وكراسي الإعدام بالغاز هو نوع الشخص الذي عندما تذكر الاشتراكية يدمدم شيئا ما حول (حلة خلية النحل) أيضاً ويبتعد كثيراً بتعبير مؤلم. بقدر ما يصل إليه إدراكي، قليل جداً من الاشتراكيين يدرك لماذا هذا الأمر أو ذاك على هذه الشاكلة التي يكونان عليها. ضع أعلى الاشتراكيين بعبعة في وضع حرج وكرر له المادة التي قلتها في هذا الفصل وانظر إلى الجواب الذي ستحصل عليه منه. في الحقيقة ستحصل على عدة إجابات؛ وهي مألوفة لي وأعرفها عن ظهر قلب.

أولاً، سيقول لك أنه من المستحيل العودة (أو أن تعيد عقرب التقدم للوراء ـ كما لو أن عقرب التقدم لم يرجع إلى الوراء مرات كثيرة في تاريخ الإنسانية!)، ثم سيتهمك بكونك من مؤيدي القرون الوسطى ويبدأ بالعزف على رعب العصور الوسطى والجذام ومحاكم التفتيش الخ. في حقيقة الأمر، أغلب الهجمات على العصور الوسطى والماضي عموماً من قبل المدافعين عن العصرنة خارجة عن الموضوع، لأن خدعتهم الرئيسية هي تصوير الرجل العصري بحساسيته الشديدة ومعاييرها

العالية من الرفاهية في عصر لم تكن فيه هذه الأشياء معروفة. لكن لاحظ بأن هذا ليس الجواب في أي حال من الأحوال. لأن كره المستقبل الآلي لا يتضمن أي تبجيل لأي فترة من الماضي. كان دي اتش لورانس أكثر حكمة من إنسان القرون الوسطى حين اختار أن يصور الايتروريين الذين لا نعرف عنهم سوى القليل بصورة مثالية. (بلاد قديمة غرب ايطاليا) لكن ليس هناك حاجة لجعل حتى الاتروريين مثاليين أو البيلاجيين أو الأزديك أو السومريين أو أي شعب وهمي تلاشى. عندما يتصور أحد حضارة جذابة، يتصورها مجرد هدف ولا حاجة للتظاهر بأنها وجدت في الزمان والمكان. اغتنم هذه الفرصة، وعلل بأنك تهدف إلى جعل الحياة أبسط وأقسى بدلاً من كونها أعقد وأنعم وسيزعم الاشتراكي عادة بأنك تريد أن تعود إلى (حالة الطبيعة) ـ يعني كهفاً حجرياً قديماً عفناً: كما لو أنه ليس هناك أي شيء بين قداحة الصوان ومعامل الفولاذ في شيفيلد أو بين الزورق الجلدي والملكة ماري. (باخرة)

لكن أخيراً ستجد الجواب المتعلق بالموضوع والذي يواجهك بخشونة كالآتي: (نعم، ما تقوله جيد جداً في طريقه. لا شك بأنه من الرائع أن نقوي أنفسنا ونحيا دون اسبيرين وتدفئة مركزية وغيره. لكن النقطة هي كما ترى أن لا أحد يريد ذلك. سيعني ذلك العودة إلى طريقة الحياة الزراعية التي تعني العمل الشاق البهيمي ولن يكون الأمر دائماً كما لو أنه لهو بالحديقة. أنا لا أريد العمل الشاق ولا تريده أنت ـ كل من يعرف معناه لا يريده. أنت تتحدث بهذه الطريقة لأنك لم تشتغل يوم عمل كامل في حياتك، الخ. الخ.

الآن هذا المنطق صحيح. ويعادل القول ـ نحن ناعمون وضعيفون ـ بالله عليك دعنا كذلك!) وهو حقيقي على الأقل. كما أشرت سابقا، أصبحنا في قبضة الآلة ومن الصعب جداً الفرار منها. ومع ذلك هذا الجواب مرواغة في الواقع لأنه لم يعط أي قيمة لما قلناه بأننا نريد هذا أو ذاك. أنا نصف مفكر حديث فاسد سأموت إن لم احصل على فنجان الصباحي من الشاي وعلى صحيفة ستيتمان كل يوم جمعة. من الواضح بأي شكل بأني لا أريد أن أعود إلى طريقة الحياة الزراعية الصعبة والبسيطة. وبنفس المعنى لا أريد أن اقلل شرابي لأسدد ديوني ولأقوم بتدريبات كافية لأكون وفيا لزوجتي الخ، الخ. لكن بمعنى أخر وأكثر استمرارا أريد هذه الأشياء وبنفس المعنى أريد حضارة.

لا يقتصر التقدم على جعل العالم مكانا آمناً للرجال القصيرين البدناء. هذه الملاحظات التي اختصرتها عمليا هي الحجج الوحيدة التي تمكنت من الحصول عليها من الاشتراكيين ـ الاشتراكيين المفكرين والمدرسيين ـ عندما حاولت أن أشرح لهم فقط كيف أنهم يبعدون أنصارهم المحتملين. طبعاً هناك حجة قديمة أيضاً بأن الاشتراكية سوف تصل على كل حال، إن أحبها الناس أم لا بسبب ذلك الموفر للمشاكل (الحتمية التاريخية). لكن فشلت الحتمية التاريخية و الإيمان بها من النجاة من هتلر.

في هذا الوقت الشخص المفكر، بذكائه عادة يترك الجناح اليميني لكنه غالباً ما يحوم بمزاجه اليميني عند بوابة الحظيرة الاشتراكية. ويدرك بلا شك بأنه يجب أن يكون اشتراكياً. لكنه

يلاحظ غباء الأفراد الاشتراكيين أولا ثم الترهل الواضح للمثل الاشتراكية فيحرف اتجاهه مبتعداً. حتى وقت حديث كان من الطبيعي الانحراف نحو اندينرنيتزم.نوع من المصارعة الهندية. قبل عشر سنوات وحتى خمس، كان رجل الأدب النموذجي يكتب كتباً عن فن الباروك المعماري ولديه روح أسمى من السياسة. لكن ذلك الموقف أصبح صعباً وقديم الطراز أيضاً. تزداد الأزمنة صعوبة وتتضح القضايا أكثر ويقل انتشار الاعتقاد بأنه لن يتغير أي شيء أبداً (أي ستظل حصتك أمنة). السياج الذي يجلس عليه رجل الأدب والذي كان مريحاً كالوسادة الوثيرة لمقعد الكاتدرائية سابقاً، يقرص الآن مؤخرته بشكل لا يحتمل ويبدي نزعة للسقوط على هذا الجانب أو ذاك. من الممتع أن نرى كم عدد كتابنا الرواد الذين يأخذون الآن موقفاً سياسياً واضحاً بعد أن كانوا قبل عشر سنوات من تيار الفن من أجل الفن لكل ما استحقوه وما كان يجب أن يعتبر سوقياً ولا يستحق التعبير عنه حتى التصويت في انتخابات عامة ؛ في حين كان أغلب الكتاب الشباب وعلى الأقل غير الحمقى منهم (سياسيين) منذ البداية. أعتقد أنه عندما تأتي القرصة سيكون هناك خطر رهيب من تحول الحركة الرئيسية لفئة المثقفين إلى الفاشية. لكن من الصعب جداً القول كم هي قريبة هذه القرصة؛ هذا يعتمد، ربما على الأحداث في أوروبا؛ وقد تكون في غضون سنتين أو حتى سنة لنصل إلى اللحظة الحاسمة. تلك اللحظة ستكون أيضاً حين يعرف كل شخص في صميمه بأي عقل أو أي احتشام كان، أنه يجب أن يكون إلى الجانب الاشتراكي. لكن ليس بالضرورة أن يأتي إلى هناك بنفسه؛ توجد أهواء قديمة كثيرة تقف

عائقاً في الطريق. يجب أن يتم إقناعه وبطرق تتضمن تفهماً لوجهة نظره. لا يستطيع الاشتراكيون إضاعة مزيد من الوقت في وعظ المرتدين ووظيفتهم الآن هي صنع اشتراكيين بأسرع ما يمكن لكنهم بدلاً من ذلك يصنعون فاشيين في غالب الأحيان.

حين أتكلم عن الفاشية في انكلترا، فليس من الضروري أن أفكر بموسلي وأتباعه المنقطين. الفاشية الإنكليزية عندما تصل، قد تكون من نوع رزين ورقيق (يفترض أولا على أي حال بألا تدعى فاشية)، ومن المشكوك إن كان جيلبرت وفارس سوليفان الثقيل من طبعة موسلي أن يكونا أكثر من دعابة لأغلبية الشعب الانكليزي؛ حتى موسلي سيتحمل المراقبة، لأن التجربة تبين (راجع سيرة هتلر، نابليون الثالث) أنه لمصلحة المتسلق السياسي أن لا يؤخذ على محمل الجد في بداية سيرته المهنية. لكن ما أفكر فيه في هذه اللحظة هو موقف الفاشية من العقل، الذي بلا شك أنه يحرز تقدما بين الناس الذين يجب أن يعرفوا أفضل. الفاشية كما تبدو عند المفكرين نوع من الصورة المطابقة ـ ليس فعلياً للاشتراكية بل لمحاكاة زائفة وسطحية للاشتراكية وأصبحت تصميما على فعل عكس ما يفعله الاشتراكي الأسطوري. إن عرضت الاشتراكية بطريقة مضللة وسيئة ـ إن تركت الناس يتخيلون بأنها لا تعني أكثر من صب الحضارة الأوروبية في البالوعة بأمر المتزمتين الماركسيين ـ فإنك تخاطر بدفع الشخص المفكر إلى الفاشية. إنك تخيفه وتجبره على اتخاذ نوع من الموقف الدفاعي الغاضب الذي يرفض فيه ببساطة الاستماع إلى قضية الاشتراكية. وأدرك كتاب مثل بوند ووينِدهام لويس وروي غامبل الخ.

مثل هذا المواقف بوضوح تام وأغلب الكتاب الرومان كاثوليك وكثير من جماعة دوغلاس كريديت، وبعض الروائيين المشهورين، وحتى المثقفين المحافظين الكبار مثل ايليوت وأتباعه الذين لا يحصون لو تعمق المرء قليلا. إن أردت بعض الصور التوضيحية الجلية لتعاظم الشعور الفاشي في انكلترا عليك أن تلقي نظرة على بعض الرسائل التي لا تعد والتي كتبت إلى الصحافة خلال حرب الحبشة، استحسان السلوك الايطالي والعواء المرح أيضاً الذي تصاعد من المبشرين الكاثوليك والانجليكان فوق التمرد الفاشي في اسبانيا (انظر إلى ديلي ميل في ١٧اب ١٩٣٦).

لكي تقاتل الفاشية من الضروري أن تفهمها ويتضمن ذلك الاعتراف بأنها تحتوي على بعض الخير بالإضافة إلى كثير من الشر. عمليا هي مجرد استبداد شائن طبعا وطرقها في الوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها قذرة لدرجة أن أشد المدافعين عنها حماساً يفضل التحدث عن أي شيء غيرها. لكن قد يكون الشعور الضمني للفاشية ذلك الشعور الذي يجذب الناس إلى المعسكر الفاشي أولاً أقل خسة ووضاعة. إنه ليس كما تردد ستردي ريفيو التي تدفع المرء للاعتقاد بأنها مجرد صراخ رعب من الغول البلشفي. كل من بذل جهداً لفهم الحركة أكثر من مجرد النظر يعرف أن الفرد غير القيادي الفاشي شخص حسن النية تماماً ومتلهف بصدق تام لتحسين قدر البطالة. لكن الأهم من هذا أن الفاشية تستمد قوتها من عناصر تشكيلات المحافظين المتنوعة الجيدين والسيئين منهم. ولها جاذبيتها الجاهزة عند كل شخص لديه عاطفة اتجاه التقاليد وآداب السلوك العامة. ربما من

السهل جداً أن ترى في الفاشية خط الدفاع الأخير لما هو جيد في الحضارة الأوروبية حين تمتلئ بطنك بالدعاية الاشتراكية السمجة. حتى الفاشي المتمر في أسوأ رموزه، بعصاه المطاطية في يد وقنينة زيت الخروع في الأخرى، ليس بالضرورة أن يشعر بأنه متنمر وقد يشعر بأنه رولاند في شعاب رونسيفو (قرية في اسبانيا ـ المترجم) يدافع عن النصرانية ضد البرابرة. يجب أن نعترف بأن الفاشية تتقدم في كل مكان، وهذا نتيجة خطأ الاشتراكيين أنفسهم. إلى حد ما، بسبب التكتيك الشيوعي بتخريب الديمقراطية ـ نشر الغصن الذي تجلس عليه وقطعه؛ لكن الأهم أن الاشتراكيون عرضوا قضيتهم بشكل خاطئ أولاً ولم يوضحوا أبداً بأن الأهداف الجوهرية للاشتراكية هي العدالة والحرية. بعد أن تسمرت أعينهم على الوقائع الاقتصادية استمروا في الاعتقاد بأن الإنسان بلا روح ونصبوا هدف المدينة الفاضلة المادية بشكل ضمني أو صريح. نتيجة ذلك كانت الفاشية قادرة على التلاعب بكل غريزة تثور ضد مذهب المتعة وفكرة التقدم الرخيصة. استطاعت أن تقف كحامي التقاليد الأوروبية وناشدت العقيدة المسيحية والوطنية والفضائل العسكرية. إن اعترافنا بأن الفاشية (سادية جماهيرية) أو عبارة سهلة ما من هذا النوع أسوأ من العقم بكثير. إن زعمت بأنها مجرد انحراف وشذوذ ستقضي بنفسها بسلام فإنك تحلم حلما تستيقظ منه حين يهوي شخص ما بهراوة مطاطية على رأسك. المنهج الوحيد الممكن لدراسة الحالة الفاشية هو أن تدرك بأن فيها شيئا يجب أن يقال ثم أوضح للعالم كله بأن الاشتراكية تتضمن أي خير تحتويه الفاشية.

في الوقت الحاضر الوضع يدعو إلى اليأس. حتى لو لم يحدث لنا الأسوأ، هناك الظروف التي وصفتها في القسم الأسبق من هذا الكتاب والتي لن تتحسن تحت نظامنا الاقتصادي الحالي. والأهم من هذا هو خطر سيطرة الفاشية على أوروبا. وإن لم تستطع العقيدة الاشتراكية الانتشار على نطاق واسع وسريع فليس هناك يقين بأن الفاشية ستسقط أبداً. لأن الاشتراكية هي العدو الحقيقي الذي يجب أن تواجهه الفاشية. الحكومات الإمبريالية الرأسمالية، رغم أنها على وشك أن يتم سلبها، لن تقاتل بأي قناعة ضد الفاشية بحد ذاتها. يفضل حكامنا على الأرجح، الذين فهموا القضية، أن يسلموا كل إنش مربع من الإمبراطورية البريطانية إلى ايطاليا وألمانيا واليابان من أن يروا انتصار الاشتراكية. من السهل الضحك على الفاشية حين نتخيل أنها مؤسسة على الوطنية المذعورة، لأنه بدا من الواضح أن الدول الفاشية، كل واحدة تعتبر نفسها الشعب المختار ووطنية المضادة للعالم، ستصطدم مع بعضها البعض. لكن لم يحدث شيء من هذا النوع. الفاشية الآن حركة عالمية مما لا يعني أن الأمم الفاشية يمكنها أن تتحد بهدف النهب فقط وإنما هي تتلمس طريقها إلى أن تكون نظاماً عالمياً، لكن ربما بطريقة غير مقصودة بعد. لأن رؤية الدولة الديكتاتورية هناك استبدلت بالعالم الديكتاتوري. كما أشرت آنفا، تقدم تقنية الآلة يجب أن يؤدي أخيرا إلى شكل من الجماعية، لكن ليس بالضرورة أن يكون ذلك الشكل عادلاً؛ أي لست اشتراكياً بالضرورة. لنجاري الاقتصاديين، من السهل تماماً تخيل مجتمع عالمي، جماعي اقتصاديا، بإزالة مبدأ الربح ـ لكن بسلطة سياسية وعسكرية وتربوية كلها بيد

فئة صغيرة من الحكام وقتلتهم المستأجرين. ذلك هو هدف الفاشية أو شبيهها. وتلك طبعاً دولة العبيد أو بالأحرى عالم العبيد؛ قد يكون شكلاً مستقراً للمجتمع، باعتبار الثروة الهائلة للعالم إن استغلت بشكل علمي، يطعم العبيد بشكل جيد ويرضوا. من المعتاد القول بأن هدف دولة العبيد مثل خلية النحل التي تظلم النحل كثيراً. عالم من الأرانب يحكمه قواقيم (حيوانات من فصيلة ابن عرس ـ المترجم) سيكون أقرب للإشارة. يجب أن نتحد ضد هذه الإمكانية البهيمية.

الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نتوحد من أجله هو الهدف الضمني للاشتراكية أي العدالة والحرية. لكن لا يكفي أن نسمي هذا الهدف (ضمنياً. أنه منسي تماماً. لقد أنطمر تحت طبقة أخرى من الصلف العقائدي والنزاعات الحزبية والتقدمية غير الناضجة حتى أصبح كماسة اختفت تحت جبل من الروث. واجب الاشتراكي أن يخرجها ثانية. العدالة والحرية! هذه هي الكلمات التي يجب أن تدوي كالبوق في كل العالم. لأنه مر وقت طويل، السنوات العشرة الأخيرة بالتأكيد التي استولى الشيطان فيها على أفضل الأنغام. وصلنا إلى مرحلة تنادي بأن مجرد كلمة اشتراكية يستدعي من جانب صورة النباتيين بلحاهم الذاوية والفوضويين البلاشفة (نصف أفراد عصابات ونصف حواكي) والسيدات الرزينات المرتديات الصنادل والماركسيون المصدومون برؤوسهم يجترون كلماتهم الطويلة والصحابيون الفارين (جمعية الأصدقاء ــ مجموعة دينية مسيحية تجتمع دون أي طقوس رسمية مهووسة بالعنف ـ المترجم) ومتعصبي ضبط النسل ومتسلقي الطرق الملتوية في حزب العمال. الاشتراكية، في هذه الجزيرة على الأقل، لم

تعد تطلق رائحة الثورة والإطاحة بالطغاة؛ وإنما تطلق رائحة العته وعبادة الآلة وجماعة المعجبين بروسيا الأغبياء. إن لم نقدر أن نزيل هذه الرائحة الكريهة وبسرعة كبيرة فقد تنتصر الفاشية.



الفصل السادس

وأخيراً هل هناك ما يمكن فعله إزاء كل ذلك؟

في الجزء الأول من الكتاب أوضحت نوع الورطة التي نحن في وسطها بقليل من المعلومات الجانبية المختصرة، ؛ في النصف الثاني حاولت أن أشرح لماذا ينفر الكثير من الناس المحترمين من العلاج الوحيد المسمى بالاشتراكية، في رأيي. من الواضح أن أهم ضرورة ملحة في السنوات القليلة القادمة هي الفوز بهؤلاء الأشخاص المحترمين العاديين قبل أن تلعب الفاشية ورقتها الرابحة. لا أريد أن أثير هنا خلاف الأحزاب والذرائع السياسية. إن انتشار العقيدة الاشتراكية بشكل فعال أهم بكثير من أي طابع حزبي (ومع ذلك لا شك بأن مجرد تهديد الفاشية سيحدث فورا نوع من الجبهة الشعبية إلى الوجود. يجب أن يتم إعداد الناس للتصرف كاشتراكيين. يوجد عدد لا يحصى من الناس كما أعتقد متعاطفين مع الأهداف الجوهرية للاشتراكية دون الانتباه لهم، والذين يمكن كسبهم بدون صراع تقريباً لو وجد المرء الكلمة المناسبة التي تحركهم. كل شخص يعرف معنى الفقر ويكن كرهاً

حقيقياً للاستبداد والحروب هو في صف الاشتراكية فعلياً. دوري هنا، لذلك أن اقترح - بالضرورة في مصطلحات عامة - كيف تتم المصالحة بين الاشتراكية وأعداؤها الأكثر ذكاءً.

أولا، بالنسبة للأعداء أنفسهم - أقصد كل هؤلاء الناس الذين يدركون بأن الرأسمالية شر لكنهم يشعرون بنوع من القلق وإحساس مرتجف حين تُذكر الاشتراكية. يعزى هذا إلى سببين كما أشرت. الأول الدونية الشخصية لكثير من الأفراد الاشتراكيين؛ والآخر هو حقيقة أن الاشتراكية مقترنة في أغلب الأحيان بذوي الكروش المنتفخة والمفهوم الإلحادي للتقدم الذي يملأ أي شخص بشعور مناصر للتقاليد وأساسيات الإحساس الجمالي. دعني أتناول النقطة الثانية أولاً.

يمكن الدفاع عن النفور من التقدم وحضارة الآلة الشائع وسط الناس الحساسين وتبريره كموقف عقلي. إنه ليس سبباً مقنعاً لرفض الاشتراكية لأنه يفترض بديلاً غير موجود. حين تقول (أنا أعارض المكننة والنمطية - لذلك أعارض الاشتراكية) أنت تقول عملياً (أنا حر بأن استغني عن الآلة إن اخترت) وهذا لا معنى له. كلنا نتكل على الآلة التي إن توقفت عن العمل فسيموت أغلبنا. قد تكره حضارة الآلة وربما أنت محق في ذلك لكن في الوقت الحاضر لا مجال هناك لمسألة رفضها أو قبولها. حضارة الآلة موجودة ويمكن انتقادها من الداخل فقط لأننا كلنا في الداخل. ولا يعتقد أحد بأنه نجا منها سوى الحمقى الخياليين كرجل الأدب في كوخه التيودوري في الغابة مع حمام والرجل الذكر الذي ينطلق للعيش في الغابة حياة بدائية مع بندقية مانليتشر وحمولة

أربع عربات من الأطعمة المعلبة. ومن المؤكد تقريباً أن حضارة الآلة ستستمر بالانتصار. ولا يوجد أي سبب يدعو للاعتقاد بأنها ستدمر نفسها وتتوقف من تلقاء ذاتها. لقد درج منذ وقت القول بأن الحرب سوف تخرب الحضارة كلها فورا؛ لكن رغم أن الحرب الكبرى التي ستكون رهيبة بالتأكيد والتي ستجعل من كل الحروب السابقة مجرد دعابة فهي من غير المحتمل أن تضع نهاية للتقدم الميكانيكي. من الصحيح أن دولة سريعة التأثر كانكلترا وربما أوربا الغربية كلها قد تنحدر إلى الفوضى جراء بضعة آلاف من القنابل الموجهة جيدا لكن ليس هناك حرب ممكنة في الوقت الحاضر تستطيع أن تزيل التصنيع في كل البلدان في وقت واحد. يمكن أن نأخذها على أنها عودة إلى أسلوب حياة أبسط وأقل مكننة وحر، ولن يحدث مهما كان مرغوباً. من الحماقة أن نعرض الاشتراكية على أساس أنك تعارض دولة خلية النحل، دولة النحل هنا (موجودة). ولم يعد الخيار بين العالم الإنساني واللاإنساني بل هو بين الاشتراكية والفاشية، الذي في أفضل حالاته هو الاشتراكية مع تجاهل الفضائل.

لذا فإن وظيفة الشخص المفكر ليست رفض الاشتراكية بل أن يتخذ قراره بأنسنتها. بما أن الاشتراكية في طريقها إلى التأسيس، هؤلاء الذين يدركون حقيقة خداع التقدم قد يجدون أنفسهم مقاومين. في الحقيقة إن دورهم الخاص هو فعل ذلك. يجب أن يكونوا في العالم الآلي نوع من المعارضة الدائمة، مما يختلف كثيرا عن مجرد كونهم معطلين أو خونة. لكن بهذا أنا أتكلم عن المستقبل. في الوقت الحالي الطريق الوحيد لأي شخص محترم مهما كان طبعه محافظا (ثوري) أو

فوضوياً يجب أن يعمل من أجل توطيد الاشتراكية. لا شيء آخر يمكنه إنقاذنا من بؤس الحاضر أو كابوس المستقبل. معارضة الاشتراكية الآن انتحار في الوقت الذي يعاني فيه عشرون مليون انكليزي من سوء التغذية وتهزم فيه الفاشية نصف أوروبا. أنها مثل إشعال حرب أهلية حين يعبر الغوطيون الحدود.

لهذا من المهم جداً التخلص من التحامل المزاجي الصرف ضد الاشتراكية غير المؤسس على أي رفض جدي. كما أشرت مسبقا، كثير من الناس الذين لم ينفروا من الاشتراكية نفروا من الاشتراكيين. الاشتراكية بالشكل الذي تبدو فيه الآن غير جذابة كثيرا، على الأقل من الخارج، لأنها تبدو ألعوبة بيد المهووسين والنظريين وبلاشفة الردهات وأمثالهم، لكن من المفيد أن نتذكر أن سبب هذا هو السماح للمهووسين والنظريين بالوصول هناك أولاً، فلو غزت الحركة عقول أفضل وأكثر وآداب عامة أكثر، لتوقفت هيمنة النموذج البغيض عليها. في الوقت الحاضر يجب على المرء أن يبذل جهده ويتجاهلهم؛ سيبدون للعيان أصغر بكثير بعدما تؤنسن الحركة ثم يصبحون غير لازمين. يجب أن نقاتل من أجل العدالة والحرية والاشتراكية التي تعني العدالة والحرية بعد أن تجرد من الهراء. لا يستحق الذكر سوى المبادئ العليا.إن نفور الكثير من الأفراد من الاشتراكية سخيف كرفض السفر بالقطار لأنك تكره وجه قاطع التذاكر.

وثانياً، بالنسبة للاشتراكي نفسه ـ وبالأخص نموذج الاشتراكيين

من كتاب الكراريس الدعائية والأصوات العالية.

نحن الآن في وقت بات فيه من الضروري على اليساريين من كل الطبائع أن يسقطوا خلافاتهم ويتمسكوا ببعضهم البعض. في الحقيقة هذا هو ما يحدث الآن إلى درجة ما. من الواضح إذا، أن النوع الأكثر تصلباً من الاشتراكيين عليه أن يتحالف الآن مع الناس الذين ليسوا في وفاق تام معه. عموماً هو على صواب بكرهه لفعل ذلك لأنه يرى الخطر الحقيقي جداً من تخفيف الحركة الاشتراكية إلى نوع من الخدع الوردية الشاحبة بل وأقل تأثيراً من حزب العمال البرلماني. في هذه اللحظة مثلاً، هناك خطر كبير بأن الجبهة الشعبية التي يفترض بالفاشية إحداثها لن تكون اشتراكية حقيقة ملائمة، بل ستكون مجرد مناورة ضد الفاشية الألمانية والايطالية وليس الانكليزية. لهذا إن الحاجة إلى الإتحاد ضد الفاشية قد يجر الاشتراكيين إلى تحالف مع أسوأ أعداءهم. لكن المبدأ لتجاوز هذا هو: لن تكون في خطر أبدا في التحالف مع الناس الخطأ شرط أن تبقي المبادئ الجوهرية لحركتك في المقدمة. لكن ما هي المبادئ الجوهرية للاشتراكية ؟ ما هي سمة الاشتراكي الحقيقي؟ أقترح أن تكون سمة الاشتراكي الحقيقي هو الذي يتمنى - ليس مجرد تخيلها كشيء جذاب، بل يرغب بحماس أن يرى سقوط الاستبداد. لكن أتخيل أن غالبية الماركسيين الأرثوذوكسيين لن يقبلوا بهذا التعريف أو يقبلوه بتذمر فقط. أحياناً عندما استمع إلى هؤلاء الناس وهم يتحدثون والأكثر عندما اقرأ كتبهم، يتولد لدي الانطباع أن كل الحركة الاشتراكية ليست أكثر من مجرد قفز مهرطق ومطاردة مثيرة ذهابا وإيابا لأطباء

مشعوذين مسعورين على إيقاع طبول ولحن (في فاي فو فوم، أشم رائحة دم منحرف يميني!)، بسبب هذا النوع من الأشياء يكون من الأسهل بكثير الشعور بأنك اشتراكي حين تكون وسط الطبقة العاملة. اشتراكي الطبقة العاملة ضعيف في العقيدة مثل كاثوليكي الطبقة العاملة ونادرا ما يفتح فمه دون التلفظ ببدعة لكن لب القضية فيه. هو ما يدرك بالحقيقة المركزية بأن الاشتراكية تعني الإطاحة بالحكم الاستبدادي، وسينجذب إلى النشيد الوطني الفرنسي لو ترجم لمصلحته أكثر من أية أطروحة تعليمية عن المادية الدياليكتيكية. في هذه النقطة من العبث الإصرار بأن القبول بالاشتراكية يعني القبول بالجانب الفلسفي للماركسية، زائد التزلف إلى روسيا. ليس لدى الحركة الاشتراكية المتسع من الوقت لتكون عصبة للماديين الدياليكتيكيين؛ بل يجب أن تكون عصبة للمضطهدين (بالفتح) ضد مضطهديهم (بالكسر). يجب أن تجذب الإنسان الذي يعتزم العمل وتبعد الليبرالي الملق الذي يريد أن تتحطم الفاشية الأجنبية كي يظل يسحب حصصه من الأرباح بهدوء ـ نموذج الشخص المحب للتدمير الذي يمرر قرارات ضد الفاشية والشيوعية، أي ضد الجرذان وسم الجرذان. إن الاشتراكية تعني الإطاحة بالاستبداد في الداخل وفي الخارج. طالما تبقي تلك الحقيقة في الواجهة، لن تظل في حيرة من الجانب الذي تدعمه بالحقيقة.. أما بالنسبة للاختلافات الثانوية ـ والاختلافات الفلسفية العميقة فهي غير مهمة مقارنة بإنقاذ عشرين مليون إنكليزي تعفنت عظامهم من سوء التغذية ـ إن وقت مناقشتها فيما بعد.

لا أعتقد بأن الاشتراكي سيضطر بأن يضحي بأي مبدأ جوهري

لكنه من المؤكد أنه سيضحي بكثير من الشكليات. وسيساعد على ذلك بشكل هائل من أجل تبديد رائحة غرابة الأطوار، مثلاً، لو كانت عالقة بالحركة الاشتراكية. لو تم وضع أصحاب القمصان التي بلون الفستق والصنادل في كوم وحرقهم وأرسل كل نباتي وممتنع عن الكحول ومتسلق مسيحي إلى بيته في ويلوين غاردن سيتي ليمارس تمارين اليوغا بهدوء! لكن أخشى بأن ذلك لن يحدث. لكن ما هو ممكن بالنسبة للنوع الأكثر ذكاء من الاشتراكيين أن يتوقفوا عن تنفير المؤيدين المحتملين بطرق سخيفة وتافهة. يوجد كثير من التزمت والذي يمكن إسقاطه بسهولة كبيرة. خذ مثلاً، الموقف الماركسي النموذجي الكئيب من الأدب وسأعطي مثالاً واحداً فقط من الكثير الذي ببالي. يبدو تافهاً، لكنه ليس كذلك. في وركر ويكلي القديمة (احد أسلاف ديلي وركر) كان هناك عمود من الحديث الأدبي من نموذج (كتب على طاولة المحرر). لأسابيع كثيرة متتالية ظل هناك مقدار محدد من الحديث عن شكسبير؛ آنذاك كتب قارئ حانق يقول، (رفيقي العزيز، لا نريد أن نسمع عن هؤلاء الكتاب البورجوازيين من أمثال شكسبير. ألا يمكنك أن تقدم لنا شيئا أكثر بروليتارية؟) كان رد المحرر بسيطاً، (لو رجعت إلى فهرس رأس المال لماركس ستجد أن شكسبير ذكر مرات كثيرة فيه) وأرجوا أن تلاحظ أن هذا كان كافياً لإسكات المعارض. بما أن شكسبير حاز على استحسان ومباركة ماركس فقد أصبح محترماً. تلك هي العقلية التي تبعد الناس العاديين عن الحركة الاشتراكية. لا حاجة للاكتراث بشكسبير لكي ينفرك ذلك النوع من الأشياء. مرة أخرى، توجد

اللهجة الغربية التي يعتقد كل الاشتراكيين بأن استخدامها ضروريا. عندما يسمع الشخص العادي عبارات مثل (الإيديولوجية البورجوازية) و (التضامن البروليتاري) و (ونزع ملكية منتزعي الملكية)، فهي لن تلهمه بل على العكس ستثير اشمئزازه. حتى كلمة (رفيق) قامت بنصيبها القذر بتشويه الحركة الاشتراكية. كم متذبذب توقف على الحافة، وربما ذهب إلى اجتماع عام ورأى الاشتراكيين الخجولين يخاطبون بعضهم البعض طوعا (برفيق)، ثم تسلل مبتعدا خائب الأمل إلى أقرب بار للبيرة! وغريزته صحيحة؛ لأنه أين المعنى في إلصاق سمة سخيفة بنفسك والتي لا تذكر دون جرعة كبيرة من العار حتى بعد ممارسة طويلة؟ خطأ فادح أن تدع السائل العادي يخرج بفكرة مفادها أن تكون اشتراكياً يعني ارتداء الصندل والثرثرة بالمادية الدياليكتيكية. يجب أن توضح أن هناك متسع في الحركة الاشتراكية للكائنات البشرية وإلا انتهت اللعبة.

وهذا يثير صعوبة كبيرة أي أن المسألة الطبقية يجب أن تواجه بواقعية أكبر مما تواجه به الآن كقضية منفصلة عن الوضع الاقتصادي.

لقد كرست ثلاثة فصول عن العقبة الطبقية. إن الحقيقة الأساسية التي كان يجب أن تنبثق، كما أعتقد، هي أن النظام الطبقي الإنكليزي تجاوز نفعه لكنه عمّر دون أن يبدي أي علامة للموت. وما يزيد القضية تشويشاً الافتراض كما يفعل الماركسيون (راجع مثلاً السيد الي براون في كتابه الممتع ببعض جوانبه (مصير الطبقات

الوسطى) بأن الدخل فقط هو من يحدد المرتبة الاجتماعية. اقتصاديا لا شك بوجود طبقتين فقط الطبقة الفقيرة والطبقة الغنية لكن اجتماعيا هناك سلسلة هرمية كاملة من الطبقات والسلوكيات والتقاليد التي علمتها كل طبقة في فترة الطفولة ليست مختلفة فقط بل هي نقطة جوهرية تلح منذ الولادة حتى الممات. لهذا تجد أفرادا شاذين في كل طبقة من طبقات المجتمع. تجد كتابا أصبحوا أغنياء واحتفظوا بميولهم سليمة كأفراد منشقين من الطبقة الوسطى الدنيا مثل ويلز وبينيت؛ وتجد أثرياء لا يستطيعون لفظ هاءاتهم وتجد أصحاب محلات صغيرة دخولهم تقل كثيراً عما يجنيه بنّاء الآجر ويعتبرون أنفسهم رغم ذلك بمقام اجتماعي أرفع منه؛ وتجد صبيان المدارس الداخلية يحكمون الأقاليم الهندية ورجال المدارس الخاصة يروجون للمكانس الكهربائية. لو أن التصنيف الطبقي الاجتماعي يتوافق بدقة مع التقسيمات الطبقية، لانتحل خريج المدرسة الخاصة لهجة كوكنية (شعبية) في الليلة التي ينحدر فيها دخله عن ٢٠٠ جنيه في السنة. لكنه هل يفعل هذا؟ على العكس، إنه يصبح خريج مدرسة خاصة أكثر بعشرين مرة من قبل. يتمسك برابط المدرسة القديمة كما لو كانت حبل النجاة. وحتى المليونير الذي لا يلفظ الهاء، رغم أنه يذهب أحياناً إلى معلم الخطابة ويتعلم لهجة محطة البي بي سي، لكنه قلما ينجح في إخفاء نفسه تماماً كما يحب أن يفعل. في الحقيقة من الصعب جداً الفرار، ثقافيا، من الطبقة التي ولدت فيها.

يزداد شيوع الظواهر الشاذة بانحدار الازدهار الاقتصادي. لن يكون هناك مزيد من المليونيريين الذين لا يلفظون هاءاتهم لكن ستجد

الكثير من رجال المدارس الخاصة المروجين للمكانس الكهربائية وأصحاب المحلات الصغيرة المساقين إلى الملاجئ. قطاعات واسعة من الطبقة الوسطى تتبلور (تتحول إلى البروليتاريا) تدريجياً؛ لكن النقطة الهامة أنهم لا يتبنون وجهة نظر بروليتارية في الجيل الأول على الأقل. أنا مثلاً، لأي طبقة انتمي بتربيتي البورجوازية وبدخلي العمالي؟ اقتصادياً أنتمي للطبقة العاملة لكن من المستحيل تقريباً أن أعتبر نفسي أي شيء سوى فرد من الطبقة البورجوازية. ولنفرض أنني سأحدد الجانب الذي سأقف معه، مع من سأقف، مع الطبقة العليا التي تحاول عصري وطردي من الوجود أم مع الطبقة العاملة التي سلوكياتها غير سلوكياتي؟ من المحتمل أن أقف أنا شخصياً مع الطبقة العاملة في أي قضية هامة. لكن ماذا عن عشرات ومئات الآلاف الآخرين الذين في وضع مشابه لوضعي تقريباً؟ وماذا عن الطبقة الأكبر بكثير والتي تصل إلى الملايين هذه المرة ـ عمال المكاتب والمستخدمين ذوي المعاطف السوداء من كل أصنافهم ـ الذين تقاليدهم تقاليد الطبقة الوسطى بصورة أقل وضوحا لكن بالتأكيد لن يشكروك إن نعتهم بالبروليتاريين؟ لكل هؤلاء الناس نفس مصالح ونفس أعداء الطبقة العاملة. كلهم يسرقهم ويتتمر عليهم نفس النظام. ومع ذلك كم منهم يدرك ذلك؟ حين تقترب الفرصة سيقفون كلهم إلى جانب مضطهديهم وضد هؤلاء الذين يجب أن يكونوا حلفاءهم. من السهل تماماً تخيل حشر الطبقة الوسطى في أسوأ أوضاع الفقر وتظل رغم ذلك عدوة لدودة للطبقة العاملة عاطفياً؛ هذا طبعاً جوهر الحزب الفاشي الجاهز.

من الواضح أنه على الحركة الاشتراكية أن تستولي على الطبقة

الوسطى المستغلة (بفتح الغين) قبل أن يفوت الأوان؛ قبل كل شيء يجب أن تفوز بعمال المكاتب الكثيرين والأقوياء إن عرفوا كيف يتحدون. لكن من الواضح على حد سواء بأنهم فشلوا للقيام بذلك للآن. آخر شخص تأمل أن تجد فيه آراء ثورية هو الموظف أو مندوب المبيعات. لماذا؟ إلى حد كبير كما أعتقد، بسبب نفاق البروليتاريا الذي اختلط بالدعاية الاشتراكية. لكي نرمز إلى الحرب الطبقية، يتم رسم صورة أسطورية للبروليتاري، كرجل متين مداس بالأقدام وبثياب العمال الفضفاضة الملوثة بالشحم، تمييزاً مغايراً للرأسمالي، كرجل شرير وبدين في قبعة عالية ومعطف فرو. وأفترض ضمنيا بعدم وجود أحد في الوسط بينهما. الحقيقة الكائنة طبعاً أنه في بلاد كإنكلترا حوالي ربع سكانها في الوسط. إن كنت ستعزف على وتر ديكتاتورية البروليتاريا، يجب أن تبدأ بشرح من هم البروليتاريون كإجراء وقائي أولي. لكن بسبب الميل الاشتراكي لخلع صفات مثالية للعامل اليدوي في حد ذاته لم يتم توضيح ذلك كفاية. كم عدد البائسين المحطمين من الموظفين والباعة الجوالين الذين حالهم أسوأ من حال عامل المنجم أو عامل المرفأ الذين يعتقدون بأنهم بروليتاريين ؟. البروليتاري ـ هكذا تعلموا التفكير ـ يعني رجلا بدون ياقة (طوق). لذلك حين تحاول أن تثير عواطفه بالتحدث إليهم عن (الحرب الطبقية) فانك لا تنجح إلا في ترويعهم فينسون دخولهم ويتذكرون لهجاتهم ويطيرون للدفاع عن الطبقة التي تستغلهم.

في انتظار الاشتراكيين مهمة كبيرة هنا. يجب أن يوضحوا فوق أي إمكانية للشك، أين يسير الخط الفاصل بين المستغل (بالفتح) والمستغل

(بالكسر). ومرة أخرى إنه التمسك بالأساسيات؛ والنقطة الجوهرية هنا أن كل ذوي الدخول الصغيرة المزعزعة في نفس القارب يجب أن يقاتلوا في نفس الخندق. ربما يمكننا العمل بكلام أقل عن الرأسمالي) و (البروليتاري) وبكلام أكثر عن السارقين والمسروقين. لكن على أي حال يجب أن نتخلص من تلك العادة المضللة في التظاهر بأن البروليتاريين فقط هم العمال اليدويون. ويجب أن تصل إلى بيت الموظف والمهندس والمندوب التجاري وفرد الطبقة الوسطى (الذي افتقر في العالم)، بقال القرية والموظف الحكومي من الدرجة الدنيا وكل الحالات الأخرى الملتبس بأنها بروليتارية، والذين تعني لهم الاشتراكية شيئاً كبيراً بالإضافة إلى العمال غير البارعين والعمال العضليين في المصانع. يجب أن لا يسمح لهم بالتفكير بأن المعركة بين الذين يلفظون هاءاتهم وبين الذين لا يلفظونها؛ لأنهم إن فكروا كذلك، سوف ينظمون إلى جانب الهاءات.

ربما أشير ضمناً بأنه يجب على كل الطبقات المختلفة أن تعمل الآن معاً دون أن يطلب منها أن تتخلى عن اختلافاتها الطبقية. ويبدو ذلك خطير. ويبدو مثل معسكر دوق يورك الصيفي وسلسلة الحديث الكئيب عن التعاون الطبقي وبذل الجهود العظيمة التي هي مجرد تضليل أو فاشية أو كليهما معاً. لا يمكن وجود أي تعاون بين طبقات تتعارض مصالحها الحقيقية. لا يستطيع الرأسمالي أن يتعاون مع البروليتاري. ولا يستطيع القط التعاون مع الفأر؛ ولو اقترح القط التعاون وكان الفأر غبياً لدرجة قبل بذلك فبعد لحظة قصيرة سيختفي الفأر في حلق القط. لكن من الممكن دائماً التعاون طالما يكون ذلك على

أساس المصالح المشتركة. الناس الذين عليهم العمل معاً هم هؤلاء الذين يتذللون لرئيس العمل والذين يرتعدون خوفاً عند التفكير بإيجار البيت. هذا يعني أن المساهم الصغير عليه أن يتحالف مع العامل اليدوي في المصنع، وضارب الآلة الكاتبة مع عامل المنجم ومعلم المدرسة مع ميكانيكي المرآب. هناك أمل في دفعهم لفعل ذلك لو أمكن إفهامهم أين تكمن مصالحهم. لكن ذلك لن يحدث إذا أثيرت نزعاتهم الاجتماعية التي بعضها قوية كأي اعتبار اقتصادي لدى قسم منهم على الأقل. وهناك أخيرا، اختلاف حقيقي في أنماط السلوك والتقاليد بين موظف البنك والعامل في حوض السفن وشعور موظف البنك بالتفوق المتجذر فيه. سيتخلص منه في وقت لاحق لكن ليس الآن الوقت المناسب لنطلب منه فعل ذلك. لهذا ستكون فرصة عظيمة لو أمكن التخلص من تلك المضايقة الآلية للبرجوازية الخالية من المعنى التي تشكل كل الدعاية الاشتراكية تقريباً في الوقت الحالي. يسري في فكر الجناح اليساري وكتابته كلها - وفي كل الطريق إليها، من المقالات البارزة في ديلي وركر إلى أعمدة الرسوم الهزلية في نيوز كرونيكل - تقليد معاداة الارستقراطية والسخرية المتواصلة والغبية على سلوكيات وولاءات الارستقراطية (أو في اللغة الشيوعية القيم البورجوازية). انه هراء قادم من مضايقي البورجوازية الذين هم أنفسهم بورجوازيون لكنه يسبب ضرراً كبيراً لأنه يسمح للقضايا الثانوية بأن تسد طريق القضايا الرئيسية ويشتت الإنتباه بعيداً عن الحقيقة المركزية بأن الفقر هو الفقر سواء كانت الأداة التي تعمل بها فأس أم قلم.

ها أنا مرة أخرى بأصلي المنحدر من الطبقة الوسطى ودخلي البالغ

ثلاث جنيهات في الأسبوع من كل المصادر. بالنسبة لما أجنيه من مال من الأفضل لو دفعني لأكون في الجانب الاشتراكي بدلاً من التحول إلى فاشي. لكن إن واصلت إزعاجي ومضايقتي بخصوص (إيديولوجيتي البورجوازية) وجعلتني أفهم ذلك بطريقة خبيثة. أنا شخص دوني لأنني لم أعمل بيدي أبداً فلن تنجح إلا في كسب عداوتي. لأنك تقول لي إما أنني غير مفيد بالوراثة أو أن أبدل نفسي بطريقة تفوق قدرتي. لا أستطيع أن أحول لهجتي أو ميولي وعقائدي إلى الصنف البروليتاري ولن افعل إن استطعت. لماذا علي فعل ذلك؟ لم اطلب من أي شخص أن يتكلم بلهجتي لماذا إذا يسألني أن أتكلم بلهجته؟ سيكون من الأفضل لو سلمنا بتلك السمات الشخصية الطبقية كبديهيات وأكدنا عليها بأقل ما يمكن. وهي مشابهة للاختلاف العرقي وتبين التجربة أنه يمكن التعاون مع الأجانب، حتى مع الأجانب الذين لا تحبهم حين يكون الأمر ضروريا. اقتصادياً أنا في نفس القارب مع عامل المنجم والعامل غير المؤهل وعامل المزرعة؛ ذكرني بذلك وسأقاتل في صفهم. لكنني بالتأكيد أختلف عن عامل المنجم والعامل غير المؤهل وعامل المزرعة: أكد على ذلك فتسلحني ضدهم. لو كنت حالة شاذة منفردة فلن أهتم لكن ما هو صحيح عني صحيح عن الآخرين الذين لا يحصون. كل موظف بنك يحلم بالطرد، وكل صاحب محل يتأرجح على حافة الإفلاس هو جوهرياً في نفس الموقع. هناك أيضاً أفراد الطبقة الوسطى الغارقون، وأكثرهم متشبث بأرستقراطيته ظناً منهم أنها تبقيهم عائمين. من غير المفيد أن تطلب منهم إلقاء أطواق النجاة. هنالك خطر واضح تماماً بأن شرائح واسعة من الطبقة الوسطى ستقوم بأرجحة

عنيفة ومفاجئة إلى اليمين في السنوات القليلة القادمة. بفعل ذلك قد تخيفهم. ضعف الطبقة الوسطى حتى الآن يكمن في حقيقة أنها لم تتعلم أبداً أن تتحد؛ لكن إن أرعبتهم للاتحاد ضدك يمكنك أن تجد بأنك أقمت الدنيا وأقعدتها. ولمحنا نظرة خاطفة من ذلك في الإضراب الكبير.

لنلخص ما قلناه: لا توجد فرصة لتصحيح الأوضاع التي وصفتها في الفصول السابقة من هذا الكتاب أو من إنقاذ انكلترا من الفاشية إلا إذا استطعنا أن نوجد حزبا اشتراكيا فعالا. يجب أن يكون حزبا ذو أهداف حقيقية ثورية ويجب أن يكون قويا عدديا ليكون فاعلا. لا نستطيع الحصول عليه إلا إذا قدمنا هدفا يدرك كل الناس العاديين بأنه مرغوب. لذلك وقبل كل شيء نحتاج إلى دعاية ذكية. تقل من العزف على (الشعور الطبقي) و(مصادرة أملاك مصادري الملكية) و (الإيديولوجية البرجوازية) و (التضامن البروليتاري) وأن لا نذكر الأخوات المقدسات أو الفرض ونقض الفرض والتركيب ولنكثر من العدالة والحرية ومصيبة العاطلين عن العمل. ولنقلل من التقدم الآلي والجرارات وجسر دنيبر وأحدث معمل لتعليب سمك السلمون في موسكو؛ وكل ذلك النوع الذي لا يشكل جزءا مكملا للعقيدة الاشتراكية ويبعد كثير من الناس الذين تحتاجهم القضية الاشتراكية، بمن فيهم أغلب من يستطيعون حمل الأقلام. كل ذلك مطلوب لتشكيل حقيقتين داخليتين بالطرق المتكررة في وعي الشعب. الأولى، أن كل مصالح المستغلين (بفتح الغين) واحدة؛ والأخرى أن الاشتراكية منسجمة مع آداب السلوك العامة.

بالنسبة لقضية الامتيازات الطبقية الصعبة بشكل رهيب، السياسة الوحيدة الممكنة في الوقت الحاضر هي التساهل وعدم ترويع مزيد من الناس. وقبل كل شيء الإقلال من المحاولات العضلية الكنسية لكسر الطبقات. إن كنت تنتمي إلى البورجوازيين لا تتحمس كثيراً للانحناء احتراماً وعناق أخوتك البروليتاريين؛ فقد لا يحبون ذلك؛ وإن اظهروا بأنهم لا يحبون ذلك يمكن أن تجد بأن ميولك الطبقية ليست ميتة كما تخيلت. وإن كنت تنتمي إلى البروليتاريين بالمولد أو ببصيرة الرب لا تسخر آلياً من رابطة المدرسة القديمة؛ فهي تحمي ولاءات ممكن أن تفيدك إن عرفت كيفية التعامل معها.

مع ذلك أعتقد بوجود بعض الأمل حين تكون الاشتراكية قضية حياتية وشيء تهتم به أعداد كبيرة من الإنكليز، فقد تحل العقبة الطبقية نفسها بسرعة أكبر مما يعتقد به الآن. في السنوات القليلة القادمة إما أن نحصل على الحزب الاشتراكي المؤثر الذي نريده أو لن نحصل عليه أبداً. إن لم نحصل عليه فإن الفاشية قادمة؛ ربما شكل انكليزي قذر أكثر من الفاشية، برجال أمن مثقفين بدلاً من السفاحين النازيين والأسد ووحيد القرن بدلاً من الصليب المعقوف. لكن إن حصلنا عليه سيكون هناك صراع، نتخيله صراعاً مادياً لأن حكومة الأغنياء لن تجلس هادئة في ظل حكومة ثورية حقيقية. وعندما تشكل الطبقات المتباعدة المنفصلة التي بالضرورة ستشكل أي حزب اشتراكي حقيقي يقاتل جنباً إلى جنب، فقد تشعر بشكل مختلف اتجاه بعضها البعض. وبعدها سيخبو بؤس التحامل الطبقي، ونحن أفراد الطبقة الوسطى الغرقى ـ المدرسون الخصوصيون والصحفيون

المستقلون شبه الجائعين وابنة الكولونيل العانس بدخلها الذي لا يتجاوز الخمسة والسبعين جنيها وخريجي كامبريدج العاطلين عن العمل والريان الذي بدون سفينة والكتّاب وموظفو الحكومة المدنيين والمندوبون التجاريون وتجار الأقمشة المفلسين في البلدات الريفية ـ قد ينحدرون دون مزيد من الصراع إلى صفوف الطبقة العاملة حيث ننتمي نحن، ربما حين نصل إلى ذلك لن يكون الأمر مرعباً كما خشينا، وأولاً وأخيراً، لأنه ليس هناك ما نخسره سوى هاءاتنا.

الطريق
إلى رصيف ويغان

بتكليف من نادي الكتاب اليساري حمل أورويل قلمه وأوراقه وذهب إلى الشمال الانكليزي حيث المعامل ومناجم الفحم الكثيرة وأقام في بلدة ويغان. سكن في بيت للإيجار مع أربعة عمال وأصحاب البيت. نزل إلى أعماق المناجم ليكتب بصدق وعن تجربة، عما يكابده العمال من مصاعب وأخطار في مشهد جحيمي بحرارته وسواده وتلوث هوائه إضافة إلى خطورة الانهيارات وانفجارات الغاز. كما يصف بؤس البيوت التي تسكنها الطبقة العاملة التي لا تقي من مطر الشتاء وبرده وتغص بالحشرات والذباب صيفا ويتحدث عن الدخل القليل للعامل الذي لا يكفيه لسد الرمق. في القسم الثاني من الرواية يعري أورويل حقائق الرأسمالية الصناعية التي تمتص دماء العمال ويهاجم الآلات التي ستحل في يوم ما محل الإنسان ويلقي الضوء على الحركة الاشتراكية في بريطانيا وكيف أساء الاشتراكيون لها ويستشعر خطر الفاشية والنازية ويدعو إلى تحالف ديمقراطي يضم العمال والمعلمين والصحفيين والموظفين للتصدي للدمار القادم.



علي مولا

للدراسات والنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-407-40-7

